وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية

سلسلة ثقافتك الإسلامية

٤

الفكر الغربى

دراسة نقدية

تأليف

أنور الجندى

اهداءات ٢٠٠١

المستشار/ رابح لطفي جمعة

القاهرة

وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
إدارة الشئون الإسلامية
الكويت

الفكر الغربي

دراسة نقدية

أنور الجندي

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٠٧ هجرية
١٩٨٧ ميلادية

المؤلف

أنور الجندي

- باحث إسلامي يعمل في حقل الدعوة الإسلامية منذ عام ١٩٤٦ ومن أوائل الصحفيين الإسلاميين.
- عمل بالصحافة العامة ثم في الصحافة الإسلامية وكتب فصولا في مختلف مجلات العالم الإسلامي.
- اشترك في عديد من المؤتمرات الإسلامية التي عقدت في الرياض ـــ الجزائر ـــ المغرب ـــ جاكارتا ـــ مكة المكرمة.
- دعى إلىٰ المحاضرة والزيارة في جامعات الإمام محمد بن سعود وجامعة العين بالإمارات.
- قدم موسوعة (مقدمات العلوم والمناهج) في عشر مجلدات طبع منها حتىٰ الآن ثمان مجلدات.
- له عشرات الكتب في مجال الادب والعلوم الإسلامية.
- كان الموضوع الرئيسي الذي أولاه اهتماما منذ أكثر من أربعين عاماً ودرس كتابه ودعاته ومختلف قضاياه هو «الغزو الفكري والتغريب».
- ولد عام ١٩١٧ في مدينة دريوط من أعمال محافظة أسيوط (جمهورية مصر العربية).

آفاق البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل إلىٰ البحث

لقد أصبح من الضروري علىٰ الأمة الإسلامية قبل نهاية العقد الأول من القرن الخامس الهجري أن تحدد موقفها من الفكر الغربي والحضارة الغربية تماما بعد أن مرت معهما بمراحل متعددة أبرزها الانبهار والتبعية ثم العودة إلىٰ الذات والتماس المنابع واكتشاف فساد نظرية الولاء وضرورة الانعتاق والتحرر وقد جاءت الأحداث عاملة علىٰ وضع المسلمين علىٰ طريق الأصالة بعد أن خدعتهم فكرة الولاء والتبعية وترتب عليها هزيمتهم واحتوائهم وحصارهم وسقوط أعز درة من تاريخ وجودهم الإسلامي وهي القدس مسرى رسول الله ﷺ والقبلة الأولىٰ في أيدي أعدىٰ أعداء الإنسانية (يهود) وقد دارت في هذه الفترة ١٩٤٨ ــ ١٩٦٤ محاورات واسعة بين المسلمين قادها أعلامهم ومثقفيهم من أجل العودة إلىٰ المنابع بعد أن كشفت لهم الأحداث زيف الانطلاق في طريق الولاء والتبعية وبعد أن فشلت كلا الأيدلوجيين (الليبرالية والماركسية) في تحقيق الهدف الأسمىٰ وهو قدرة الأمة الإسلامية علىٰ امتلاك ارادتها واستعادة حركتها واستئناف حضارتها وإقامة مجتمعها الرباني والانطلاق لتبليغ رسالة التوحيد الخالص للعالمين

وتحرير البشرية من أسر الوثنية وعبودية الفرد واخراج الناس من ضيق الدنيا إلىٰ سعة الآخرة وقد تابعنا هذه المراحل المختلفة منذ بدأت رسالتنا (١٩٤٦) الإسلام يزحف، انهيار الحضارة الغربية، الخ.

وتوالت بعد ذلك المرحلة التالية (اليقظة الإسلامية، المد الإسلامي، الصحوة الإسلامية) بعد سقوط الإعلام في أيدي الماركسيين ١٩٦٣ وما بعدها.

ومنذ عهد مبكر تكشفت أخطار التعريب في كتابات عام ١٩٤٧، ١٩٤٨ والغزو الفكري ١٩٥٦ وما بعدها، وحتىٰ اليوم.

وقد تكشفت في هذه المرحلة الطويلة (١٩٤٦ ـــ ١٩٨٦) مجموعة ضخمة من الحقائق:

أولا: هزيمة فكر التعريبيين والدعاة إلىٰ التبعية للحضارة الغربية: (طه حسن ـــ حسين نوري ـــ توفيق الحكيم، سلامة موسىٰ، علي عبدالرازق).

ثانيـــــاً: هزيمة محاولات احتواء مفهوم الإسلام بتحريف التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية (هيكل، العقاد، طه حسين، الشرقاوي).

ثالثـــــاً: تكشف فساد الدعوة إلىٰ احياء الفكر الباطني والوثني ودعوات القاديانية والبهائية والباطنية.

رابعـــــاً: تكشـف فساد الدعوة إلىٰ الأيدلوجيات:

الماركسية والليبرالية والوجودية والتحليل
الفرويدي، ونظرية المدرسة الاجتماعية في النفس والإخلال (وركايم) ونظرية الوجودية وغيرها.

خامساً: سقوط دعاوى التعريب والغزو الثقافي حول: مفهوم الدين اللاهوتي، واللغة القومية، وتفسير التاريخ الإسلامي عن طريق المذهب المادي، وهزيمة نظريات الغرب الوافدة في الأدب والثقافة والتربية.

سادساً: سقوط مفهوم الحضارة الغربية ودعاتها بتقبلها بما فيها من شر وفكر وفساد.

سابعـــاً: سقوط مفهوم الشيعة في قبول مفهوم العلم التجريبي وارتباطه باسلوب العيش الغربي.

وقد تابع جيل كامل من دعاة اليقظة والصحوة هذه المفاهيم التي طرحها الفكر الغربي الوافد في أفق الفكر الإسلامي عن طريق أتباعه وأوليائه خلال أكثر من قرن من الزمان منذ أن أصدر جمال الدين الأفغاني كتابه (الرد على الدهريين) وتوالت كتابات محمد عبده في (الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية) وفريدوجدي في الرد على حملات كرومر على الإسلام ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب في مواجهة القاديانية والبهائية وحملات المبشرين وامتد ذلك امتداداً طبيعياً في الدعوة الإسلامية التي حمل لوائها الإمام حسن البنا وجماعات الإخوان والشبان ومكارم الأخلاق وامتد

ذلك إلىٰ المغرب في الدعوة السلفية، وامتد في رحاب الأزهر والزيتونة والقرويين ثم امتد إلىٰ الجماعة الإسلامية في باكستان وفي ندوة العلماء في الهند وفي اندونيسيا والملايو في أقصىٰ الأرض واليوم بعد قرن من الزمان تقريباً في هذه المقاومة اعتقد انه قد حان الوقت لكي يقف الفكر الإسلامي المتجدد بقوة في مواجهة حاسمة مع الفكر الغربي والحضارة الغربية، هذه المواجهة تكشف فساد وجهة الفكر الوافد وقصوره وعجزه عن العطاء في أفق الإسلام ـــ بل عجزه عن العطاء في أفق فكره هو بعد أن تعالت الصيحات في الغرب بفشل الأيدلوجيين الليبرالية والماركسية. وتكشف في نفس الوقت عطاء الإسلام وقدرته علىٰ حل مختلف المشاكل التي تضطرم بها المجتمعات الإسلامية اليوم، بل وقدرته ايضا علىٰ حل المشاكل العالمية أيضا.

ومن هنا كانت هذه المحاولة في إقامة مواجهة حاسمة مع الفكر الغربي المعاصر (الليبرالي والماركسي والصهيوني) بجذوره اليونانية واليهودية والمسيحية، لنرىٰ كيف تحولت المواقف اليوم تحولا كبيرا عما كانت عليه قبل قرن من الزمان من حيث ظهور جماعات غربية تدخل في دين الله افواجا وعلىٰ رأسها قادة ومفكرون غربيون وجدوا أن خلاصهم لن يكون إلا بالإسلام أمثال البروفسور موريسون، وجارودي، وبوكاي ـــ كل في اختصاصه علىٰ نفس الطريق الذي سار عليه من قبل اللورد هولي، ودكتور خالد شلدريك، وعبدالكريم جرماثوس.

وبالنسبة للاعتراف بفضل الإسلام حين قاد المسيرة: توماس كارليل وجوستاف لوبون، وبرنارد شو، ودرابر، وهونكة وفي القريب جاك بيرك، واليكس كاريل، ومارسيل بواشنا.

واعتقد إننا الآن في مرحلة الاصالة والرشد الفكري القادر علىٰ الحكم علىٰ الفكر البشري كله ووضعه في مكانه الصحيح من الإسلام الذي هو المنهج الرباني الأصيل القادر علىٰ تصحيح مسار البشرية إلىٰ طريق الله بعد أن ضلت هذا الطريق منذ أن انحرفت به خلال القرن الخامس عشر الهجري إلىٰ اليوم حين نقلت العلم التجريبي من الإسلام وصهرته في بوتقة الوثنية اليونانية الرومانية وخلطه بمفاهيم اليهودية والمسيحية المحرفة التي وصلت إلىٰ أوروبا منفصلة عن ترتيب رسالة السماء الحقة ومن ثم بدأت التجربة في الغرب من منطلق منحرف خاطىء ثم جاء المسلمون فأخذوا هذه الثمرة المعطوبة تحت خداع بعض السذج من انها بضاعتهم أصلا، ثم جاءت الموجة الثانية من المغيرين التي حاولت أن تقنع المسلمين بانه لا سبيل أمامهم للخروج من أزمة التخلف إلا بالتبعية الكاملة لمنهج الغرب وحضارته (خيره وشره ما يحب منه وما يكره وما يحمد فيه وما يعاب).

والواضح الذي لا يقبل الشك أن هذا المنهج الغربي فرض علىٰ المسلمين ولم يختاروه عن طريق المدرسة (العلمانية) والمحكمة (القانون الوضعي) والمصرف الربوي حيث اختفى منهج التربية الإسلامي والشريعة الإسلامية ومنهج التعامل الاقتصادي

الإسلامي.

ومضت التجربة تحاول أن تصور الإسلام دينا لاهوتيا قاصرا علىٰ العلاقة بين الله والإنسان، في حجب كامل للجانب الآخر (العلاقة بين الإنسان والمجتمع) وقد أعان علىٰ ذلك دعاة يلبسون العمائم ادعوا أن الإسلام دين لاهوتي وليس له نظام للحكم أو السياسة او الاقتصاد وكان ذلك كله عملا مجرما ظالما لم يصمد أمام أضواء الإسلام الحق وأمام صيحة المفكرين المسلمين الأصلاء الأبرار الذين كشفوا هذه الوجهة وتطورت الفكرة إلىٰ دعوة ناهضة لبناء المسلم بالتربية في سبيل إقامة حكم الله ونظامه الاجتماعي في أرض الإسلام.

ومن ثم كان لابد للدعوة الإسلامية أن تتخطى مراحل التكوين والبناء، وكشف زيف المطروحات المسمومة في أفق الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي، لنصل إلىٰ حقيقة أساسية هي: المواجهة الكاملة للفكر الغربي وكشف زيفه انطلاقا من مفهوم أساس عميق في دعوة الإسلام ونظامه هو القدرة الدائمـة للإسلام علىٰ الانبعاث من داخله وانه يحمل في أطوائه عوامل تصحيح مساره إذا اختلفت الطرق وإذا تخلىٰ المسلمون عن التطبيق ثمة وإذا خدع المسلمين خادع بمنهج جديد يظنون انه سيحقق لهم التقدم أو امتلاك الإرادة أو يخرجهم من النفوذ المسيطر لإحدى القوىٰ العالمية ولو تنبهوا لادركوا بأن القرآن قد رسم لهم طريق التجدد، طريق الثبات، طريق النصر، طريق الخروج من المحنة في آيات

بينات يقرأونها صباح مساء، كما رسم لهم كذلك المصادر التي نشأ عنها المنهج التجريبي الذي بنى الحضارة المعاصرة، ومنهج المعرفة ذي الجناحين الذي قدم لهم مفهوم التكامل بين القيم، والتوازن بين العناصر المتوازية.

حشد الغرب قواه كلها لاحتواء فكر ومجتمع المسلمين من أجل استدامة سيطرته ونفوذه وقد أعد العدة لهذا الزحف علىٰ نحو واسع وعميق، وكان أكبر أهدافه هو تربية جيل جديد في أحضان الأمة علىٰ مفاهيمه وقيمه ليكون بديلا له عند خروج احتلاله العسكري، وقد أعد العدة لهذا الزحف عن طريق مبشرون يستقدمون يلبسون ثياب العلماء وهم يحملون في نفوسهم أحقاد الكنيسة علىٰ الإسلام ومناهج جديدة تطرح مفاهيم مختلفة تقوم أساسا علىٰ الاقليمية والقومية الضيقة لهدم قاعدة الوحدة الإسلامية وفصل المجتمعات الإسلامية عن القاعدة الجامعة (قاعدة الخلافة الإسلامية) وفي نفس الوقت طرح نماذج فاسدة في المجتمع لتوهين قيم الدين والأخلاق والعرض والشرف ،بدءا من الكابريهات إلىٰ الخمور إلىٰ المراقص، وفي مجال التعليم والتربية قدم ما يناقض عقيدة التوحيد (سواء في مفهوم الخلق كنظرية دارون) أو مفهوم الربا، أو التحرر الاجتماعي لاسقاط القيم التربوية الاسلامية، وكان في مقدمة المخططات تغليب العاميات في الأوطان وتثبيت قواعد اللغة الأجنبية وطرح مفاهيم مختلفة عن مفهوم الإسلام للتقدم والنهضة والتجديد.

وكانت الحملة الخطيرة الكبرى التي عمد النفوذ الأجنبي إلىٰ تركيزها وإذاعتها هي القول بان أسباب التخلف في البلاد الإسلامية ,العربية إنما يعود إلىٰ عامل أساسي واحد هو الإسلام نفسه بسبب معتقداته التي لا تجاري العصر والتي هي المسئول الأول عن جميع مشكلات التخلف والضعف وأن السبيل الوحيد للمسلمين والعرب إذا كانوا راغبين في التقدم والنهضة أن يأخذوا مفاهيم الغرب نفسه بعد أن يتخلوا تماما عن هذا القديم البالي (الذي هو الإسلام).

هذا هو المنطلق الذي بدأ به النفوذ الغربي فرض مفاهيمه عن طريق التعليم وعن طريق الصحافة التي أخذت تنشيء صحفا لعرض علوم الغرب ومفاهيمه بدأ من نظرية دارون التي كانت هي القضية الكبرى التي دار حولها البحث بين متصدر لها (الدكتور شبلي شميل) وبين قاعدة تختلف معه لتخفف الحوار (هي الدكتور صروف محرر المصطفى) ثم جاء اتباعهم من بعد اسماعيل مظهر وسلامة موسىٰ وغيرهم لتثبيت قواعد نظرية الخلق القائمة علىٰ القردة (في مواجهة مفهوم القرآن) ثم تقديم نظريات أخرى في القانون الوضعي والربا وغيرها من القضايا التي قاومها علماء المسلمين دون أن تكون لهم منابر حقيقية يستطيعون من خلالها الدفاع حيث كانت كل المنابر في أيدي العصريين اتباع النفوذ الغربي ولاتزال إلىٰ اليوم بعد مائة عام.

وقد انطلقت مواجهة الحملة علىٰ الإسلام التي قادها الغرب من

حقد قديم وكراهية دفينة للإسلام الذي سيطر علىٰ أوروبا أربعة قرون وهزم أوربا في الحروب الصليبية بعد قرنين من الزمان والذي حقق وجوده بالسيطرة علىٰ مساحة من جبال البيرنيه إلىٰ حدود الصين في أقل من ثمانين عاما محطما نفوذ الدولتين الرومانية والفارسية معليا كلمة الله الحق ومفهوم التوحيد الخالص ومخرج أوربا من ألف سن من الرهبانية والوثنية إلىٰ المنهج العلمي التجريبي، وقاضيا علىٰ كل ما قبل الإسلام من ثقافات ولغات وعبادات وثنية وفاتحا لأفق جديد أمام البشرية إلىٰ الله متحررة من عبودية حضارات اليونان والرومان والفرس والفراعنة والهنود إلىٰ حيث لا فضل لعربي علىٰ عجمي ولا لأبيض علىٰ أسود إلا بالتقوىٰ ومقيما لمفهوم جديد في الحضارة قوامه الرحمة والعدل والتوحيد والاخاء البشري.

ومنذ سجن لويس التاسع في بيت ابن لقمان في المنصورة حتىٰ يدفع الفدية وبعد سبعة حروب صليبية متوالية كان قد تنبه إلىٰ أن المسلمين لا يهزمون من خلال عقيدتهم التي تقوم علىٰ افتداء النفس المسلمة لإعلاء كلمة الله خالصة من خلال عقيدة الجهاد القائمة الباقية إلىٰ يوم القيامة، ومن ثم بدأت الدعوة إلىٰ تحريف الإسلام واخراجه من مفاهيمه الحقة، واخراج المسلمين من الإسلام إلىٰ مفهوم اللاهوت والعبادة، ليستطيع الغرب أن يسيطر من خلال فرضه أيدلوجياته علىٰ الأمة الإسلامية واخضاعها واخضاع ثرواتها ومعابرها وأرضها لنفوذ حضارته التي

تدخل الآن مرحلة المحاق.

لقد وجد النفوذ الغربي مجتمعا ضعيفا وقوى مجاهدة هزمتها الخيانة (الخيانة التي هزمت عبدالقادر الجزائري وعرابي وعبدالكريم والشيخ كامل وأحمد بن عرفان) ومن ثم سيطر الجيل الذي رباه النفوذ الاستعماري ومضى في خطة الحصار والاحتواء بهدف تقويض المجتمع والاسرة بنشر الإباحة وهزيمة العقل الإسلامي بإذاعة الالحاد والوثنية واحلال مفاهيم جديدة وقيم جديدة في الأخلاق والنفس والاجتماع لاحتواء المجتمع الإسلامي وتدميره.

كان هدف أصحاب النفوذ الأجنبي الوافد علىٰ حد تعبير زعيمهم كرومر: بناء أجيال جديدة تحمل أمانة النفوذ الأجنبي وتضرب الحركة الوطنية وبعض مفاهيم الإسلام، ومن هنا وجدنا ذلك الجيل الجديد الذي تولىٰ الحكم بعد الحرب العالمية الأولىٰ (بعد ان هزمته قوى الوطنيين وغيرهم) لا يدافع عن حرية الوطن بقدر ما يقبل مفاهيم الغرب وكان سعد زغلول في مصر ومن بعد اتاتورك في تركيا وبهلوي في إيران وهم دعاة العلمانية وهم أول من حطم المفهوم الجامع بين الإسلام والوطنية ومع ذلك فإن كل معارك التحرير والمقاومة للنفوذ الأجنبي قامت تحت لواء الإسلام ومن مفهومه الأصيل العميق المنغرس في أعماق هذه الأمة يقول برنارد لويس: ان الحركات البارزة والأصيلة التي قامت في ديار الإسلام منذ بدأ الغرب يتصل بها هي إسلامية في جوهرها، وقد عنيت بقضايا الإيمان وموقف الجماعة الإسلامية من الدول التي

احتلت أرضها أكثر من عنايتها بالأمة أو البلاد المحتلة. وتمثل هذه الحركات في ثلاث صور (١) الرفض القطعي للحضارة الأوروبية مع العودة للماضي البعيد ومحاولة الاحياء علىٰ النحو الذي قام به ولي الله الهندي والوهابية وبعض السلفية المتأخرين (٢) الموقف الذي يمثله أحمد خان في الهند وعبد القيوم الناصري في أواسط آسيا وهو الموقف التعاوني (٣) الموقف الليبرالي الذي يمثله الشيخ محمد عبده والذي أراد أن يتسع الإسلام للحديث مع العلم (التقنية) دون أن يتخلىٰ عن خصائصه (٤) موقف الجماعة الإسلامية وجمال الدين).

ومع قدر وافر من التحفظات علىٰ كلمات (برنارد لويس اليهودي الذي لا يكتب خالصا لوجه الحق) نرىٰ أن الجذور الإسلامية كانت في تلك المرحلة التي كانت توصف من الغربيين بانها عصر الانحطاط، كانت هناك يقظة واعية لم تلبث أن ازدادت ونمت وتوسعت وتأصلت عن طريق أجيال الدعاة المتتابعين حتىٰ وصلت إلىٰ المرحلة القرآنية التي قد تنظر إلىٰ بعض المراحل نظرة النقد (ولكنا إذا وضعناها في اطارها التاريخي لم تكن إلا جهد الطاقة والاعذار إلىٰ الله).

لقد كانت محاولات النفوذ الأجنبي واسعة ومتعددة من دعوة إلىٰ الاقليمية، أو إلىٰ القومية الوافدة، أو إلىٰ النزعة الانسانية (تولستوي وغاندي) أو إلىٰ ما أطلق عليه قديم إسلامي وجديد عصري، أو إلىٰ ما يسمىٰ حضارة العرب وثقافة الأدب، أو إلىٰ

احياء الفرعونية والفينيقية، كل في بلده.

وفي خمس قضايا كبرى عملت القوى الغربية على افساد مفاهيم المسلمين فيها وإخراجهم من مفهومهم الأصيل (السياسة — القانون — الاقتصاد — التعليم — الانتماء — الاقليات والقوميات) فقد اخضعت النظام السياسي للديمقراطية الغربية والليبرالية واخضعت النظام الاجتماعي للقانون الوضعي وأخضعت الاقتصاد للأنظمة الرأسمالية ثم الماركسية واخضعت التعليم لمناهج الغرب ونظرية ديوي المفرغة من أساس الدين والأخلاق، وحال النفوذ الغربي المتمثل في سيطرة حاكمة دون نظرية متميزة إسلامية في هذه المجالات جميعا، ومع كل الجهود المكثفة التي قام بها النفوذ الأجنبي (عن طريق الاستشراق والتبشير والماسونية) وغيرها من قوى لتثبت مفاهيمه وتدمير تصحيحات اليقظة الإسلامية فإن الغرب قد فشل في السيطرة على العقل الإسلامي وصمود الإسلام تماما أمام التحديات ولم يضعف أو يستسلم أمام الهجمات كما ضعف غيره ولم تستطع الفلسفات الوثنية والمادية أن تحتويه كما احتوت اليهودية والمسيحية من قبل وقد استطاع بقوته الذاتية أن يرد هذه الهجمات على أعقابها وكسرها وظل محافظا على قوته وشخصيته وهذه طبيعة الإسلام في أوقات المحن والأزمات.

وقد تأكدت بعد هذه الجولة الضخمة خلال قرن من الزمان منذ فرض قانون نابليون — فشل الاتجاهين الماركسي والليبرالي فقد

تجاوزت اليقظة الإسلامية أزمة التقليد إلىٰ حتمية الحل الإسلامي .

لقد طرح النفوذ الأجنبي عشرات المطاعن والدعوات المسمومة :

(١) النظرية المادية (٢) الفلسفة الماسونية الصهيونية (٣) الروحية الحديثة (٤) نظرية الوالدية (الإنفجار السكاني وتحديد النسل) (٥) النظرية الربوية (٦) تحرير المرأة واخراجها وهدم الأسرة المسلمة (٧) التفسير المادي للتاريخ (٨) الدعوة إلىٰ نبوات بعد ختم الرسالة : البهائية والقاديانية (٩) نظرية التطور (١٠) نظرية فرويد (١١) الوجودية (١٢) نظرية دوركايم في هدم القيم (١٣) تحويل مفاهيم التلمود إلىٰ نظريات فلسفية علمية الطابع (١٤) إحياء تراث الإلحاد ووحدة الوجود والحلول (١٥) نظرية القومية الوافدة (١٦) الدعوة إلىٰ إحياء تراث ما قبل الإسلام (١٧) الهوفنرم (الفكرة البشرية) (١٨) الحملة علىٰ التراث ، علىٰ اللغة العربية ، علىٰ تاريخ الإسلام ، علىٰ الشريعة الإسلامية ، علىٰ القرآن ، علىٰ السيرة والسنة كذلك فقد طرح المنهج الوافد فكرة الفكر الحر والاعتقاد ومذاهب الشك واللاأدرية والالحاد ، وقصة أن الأديان خرجت من الأرض ولم تنزل من السماء وانها ظاهرة من الظواهر الاجتماعية ، وأن البشرية بدأت وثنية ثم عرفت التوحيد ونظرية أن الدين علاقة بين الإنسان وربه ، ولا علاقة له بالمجتمع ، وأن الدين هو أفيون الشعوب ، وأن الدين مانع من الرقي والتقدم ،

واشاعة التفسير المادي، الاقتصادي، الجنسي، للتاريخ وأخطر من ذلك إحياء الفكر الباطني والوثني ومفاهيم الاشراق والاتحاد والحلول ووحدة الوجود والقول بالظاهر والباطن في القرآن والتأويل والوضع والاسرائيليات.

كل هذه الشبهات دحضها رواد اليقظة وكتاب الصحوة.

وقد تتابعت الحملة علىٰ موجات متوالية، وكانت دفاعات علماء الإسلام علىٰ قدر حجم القضايا قادرة علىٰ ردّ السهام إلىٰ صدور أصحابها وما تزال المعركة مستمرة.

الباب الأول
الفكر الغربي قبل الإسلام

الفصل الأول
نشأة الفكر الغربي

نشأ [الفكر الغربي] الذي أصبح من بعد فكراً عالميا يحاول أن يفرض نفوذه ومفاهيمه وسيطرته علىٰ قارة الإسلام أساسا — نشأ هذا الفكر في أحضان وثنية اليونان وعبادة القيصر الإله الروماني، ثم اصطبغ ميراثه هذا بأساطير اليهودية المحرفة ومفاهيم المسيحية التي انصهرت في بوتقة أديان التثليث والتعدد السابقة لها سواء في روما أو مصر أو الهند أو فارس. فلم يحمل في جوهره إلا قدرا ضئيلاً من ميراث النبوة الحقيقي الذي حرفه رؤساء الأديان حين اتجهت اليهودية إلىٰ فكرة شعب الله المختار والاله القاسي يهوه الههم الخاص من دون العالمين وحين اتجهت المسيحية إلىٰ فكرة الصلب والتثليث والخطيئة وكلها أفكار وثنية نشأت في ديانات سابقة واستعارتها أوربا من الأمم القديمة علىٰ حد تعبير القرآن الكريم [يضاهئون به قول الذين كفروا من قبل] ومن ثم فأن هذه الأرضية الأساسية للفكر الغربي قبل ظهور الإسلام كانت عبارة عن ركاما وغواشي وجماع خرافات الأمم وأساطيرها التي كانت تلوكها الأمم في عصر طفولة البشرية في الفترات التي

تفرق بين أديان السماء المنزلة وبعضها الآخر، فقد بدأت البشرية علىٰ طريق النبوة ولكنها كانت لا تلبث أن تنحرف إلىٰ أهوائها فتنشأ هذه الغواشي وهذا الركام الذي يستشري في أوصالها ولقد كانت أوربا وثنية مغرقة في الوثنية قبل أن تصل إليها خيوط من عطاء رسالات موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام يبدو ذلك واضحا في كلمات من هنا ومن هناك في فكر بعض مفكريها ولكنها مع الأسف كانت قد اختلطت اختلاطا شديدا بالوثنيات ومن ثم عجزت عن العطاء الحق، ومن الوثنية الشديدة العناد سواء في تعدد الالهة أم في استعباد الإنسان وغلبة روح السيطرة علىٰ الرقيق، مع امتهان المرأة ــ انتقلت أوربا إلىٰ المسيحية التي اختلطت بمفاهيم الأديان الوثنية حتىٰ تحولت في عدة قرون إلىٰ الرهبانية التي انعزلت بها عن المجتمع تماما في حياة مضطربة شديدة الاضطراب حتىٰ جاء الإسلام فأخرجها إلىٰ فهم جديد لعلاقات جديدة مع الله تبارك وتعالىٰ ومع العبيد ومع المرأة وسرعان ما تلقفت المنهج التجريبي الذي كان قد اتصل إلىٰ قلب أوربا حين سيطر المسلمون علىٰ الأندلس: ذلك الفردوس المفقود وأقاموا فيها جامعاتهم التي انتقل إليها أهل أوربا وحملوا منها مفاهيم العلم الحقيقي حيث أخرجهم من الظلمات إلىٰ النور في رحلة خطيرة امتدت أكثر من ثلاثة قرون.

ولكن الغرب الذي استطاع أن يستوعب العلوم الإسلامية لم يقبل عقيدتها ومنهجها الرباني لوجهه الإنساني الغاية ولكنه نقل ما شاء

من تجارب العلوم إلىٰ دائرة فكره الأساسية: اليونانية الرومانية من ناحية واليهودية المسيحية من ناحية أخرىٰ ثم انطوى عليها وبدأ حملة شديدة في حرب الإسلام وأهله انطلاقا من مفهوم عميق تكون في أعماقه وظل يحكم تصرفاته ومازال يحكمها حتىٰ اليوم، لا أحسب أنه تخلىٰ عنه لحظة واحدة وان بدا انه أخفاه في العقود الأخيرة وراء قفازات من حرير، ولقد كشف هذا المعنىٰ السيد جمال الدين الأفغاني حين قال (ان اوربا لا تزال تحمل روح التعصب ازاء الإسلام) الذي أتت تحمله عن بطرس الناسك وذلك تحت دعاوى مختلفة منها: أن أرض الإسلام كانت من أراضي الامبراطورية الرومانية (من الشام إلىٰ المغرب) وقد تردد في هذا قول اللورد سالسبري: وجوب اعادة ما أخذه الهلال من الصليب للصليب أو قول بيبرس شميت في كتابه عن سيرة المسيح: (ان هذا الاستيلاء علىٰ بيت المقدس كان حربا صليبية ثامنة أدركت المسيحية منها غايتها).

أو قول أحدهم: لو أن العرب لبثوا في جزيرتهم العربية لما كانت تقع حروب صليبية. وهذه كله عبارات مضللة تصدر عن تعصب وحقد شديدين فإن هذه المناطق التي يتحدثون عنها (الأندلس، المغرب، افريقيا، الشام) كانت في الحقيقة بلاد ذات رصيد عربي كبير فقد توالت إليها الهجرات قبل الإسلام بألوف السنين في موجات معروفة للمؤرخين، كذلك فإن احتلال الامبراطورية الرومانية لهذه المناطق لا يعني أنها أصبحت ملكا لها

بل انها كانت دولة محتلة أذاقت أهل البلاد الهوان حتىٰ حررهم الإسلام الذي أجلى نفوذ الرومان ثم ترك لأهل البلاد حريتهم فقبلوا الإسلام عن إراداتهم الخاصة.

وهذه هي الدعاوى الباطلة التي برروا بها إحتلالهم لبلاد المسلمين فضلا عن كبرىٰ دعواهم المضللة، بانقاذ بيت المقدس من المسلمين الذين كانوا له حماة منذ بزوغ فجر الإسلام إيمانا بحق أهل الذمة علىٰ المسلمين رعاية معابدهم ومصالحهم وهي أمانة قائمة في رقاب المسلمين إلىٰ يوم الدين.

غير ان الحقيقة التي لا سبيل إلىٰ تجاوزها أن بزوغ الإسلام قد أحدث هزة كبرىٰ في عالم أهل الكتاب جميعا والوثنيين الذين كانوا يعبدون عديدا من الالهة ولم يكن أهل الكتاب إلا فرقة من فرق ثلاث: المشركين والوثنيين من ناحية والحنفاء بقايا قوم إبراهيم والاريوسيين الذين رفضوا الوهية المسيح وقد ذكرهم الرسول ﷺ في رسالة إلىٰ هرقل امبراطور الروم، من ناحية أخرىٰ وهؤلاء كانوا مختفين في الجبال أو المواقع البعيدة في انتظار ظهور الحق، وما أن ظهرت دعوة الإسلام الأولىٰ حتىٰ استيقظت خطة المؤامرة للقضاء علىٰ الدين الوليد من قبل دولتي الفرس والروم، وإحداهما وثنية والأخرىٰ مسيحية علىٰ مذهب التثليث. وقد بدأ ذلك فعلا في أيام النبي الأخيرة حين أسرع بالتحرك في معركة (تبوك) في وقت الحر الشديد حيث أمن الرسول شمال الجزيرة ومداخلها ثم كان استعداده لبعيث أسامة الذي اختار النبي الرفيق الأعلىٰ

ورايته منصوبة أمام مسجد المدينة وكان من آخر كلامه ﷺ ما يرسم خطة المسلمين لمائة عام قادم من بعده: (١) انفذوا بعث أسامة (٢) لا يبقىٰ في الجزيرة العربية دينان ومنذ اليوم الأول للإسلام والدولة الرومانية الشرقية تهاجم حدود المسلمين وتغير عليها وما تزال الحرب سجالا لا تتوقف، ثم هي تمتد بعد ذلك إلىٰ ميادين متعددة، في حملات صليبية إلىٰ الشام ومصر، وفي حروب الفرنجة علىٰ الأندلس والمغرب بعد ان بلغ المسلمون نهر اللوار ثم جاءت الجولة الإسلامية الثانية بالانسحاب من غرب أوربا ودخول شرق أوربا إلىٰ أسوار فينا حيث صمدت الدولة العثمانية في وجه أوربا أربعة قرون بعد أن هزمت الحملات الصليبية، وارتدت قبل ذلك خاسرة علىٰ أعقابها ثم جاءت الجولة الأخيرة: التي وقف فيها اللورد في مدينة القدس وقال: اليوم انتهت الحروب الصليبية، ووقف القائد غورو الفرنسي في دمشق وقال: ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين، وبدأت تلك الجولة الجديدة من الصراع، في الوقت الذي كان المسلمون يعيشون أزمة التخلف يلهثون بعد ألف سنة من قيادة العالم كله: وتقديم حضارة التوحيد والمنهج التجريبي ومفهوم العدل الاجتماعي والإخاء البشري. في هذه المرحلة اصطنع الغرب كل الوسائل الممكنة لتغريب المسلمين واحتواء الإسلام واثارة الشبهات حول جوهر العقيدة، من خلال مؤسسات الاستشراق والتبشير والتنصير والماسونية والدعوات الهدامة وطرح أيدلوجيات الالحاد والإباحة والشك الفلسفي والوجودية في أفق العالم الإسلامي والسيطرة علىٰ

مناهج التعليم ونظم الحكم وفرض القانون الوضعي والمصرف الربوي، من أجل إذابة أمة الإسلام في اتون الأمية العالمية.

ولكن هل توقف المسلمون واستسلموا أمام هذه القوى الضاغطة: أبدا، ولا يوما واحدًا فقد قاوموا واعتصموا بمفهوم الإسلام (العودة إلىٰ المنابع) وإذا كانت الجماعة قد وقفت موقف الانبهار فإن الصفوة عرفت منذ اليوم الأول أن هناك فوارق عميقة، لم يتبنها دعاة الانبهار ابتداء من رفاعة الطهطاوي، إلىٰ سعد زغلول إلىٰ لطفي السيد إلىٰ طه حسين، كانت هناك عقليات مؤمنة تشرق نفوسها بنور الله لم تقبل التسليم وعارضت وخاصمت ودعت إلىٰ (العودة إلىٰ القرآن) وإذا كانت الحضارة قد بقيت تفتن البعض فإن الأستاذ حسن البنا قد أعلن صيحته الحاسمة في الوقوف في وجه الحضارة الغربية وعدم التسليم لها لمعارضتها للإسلام في جوهرها ووجهتها.

وفي قلب هذه المعركة بين التبعية والأصالة نشأت قاعدة إقامة الأساس القرآني الأصيل الذي يتحاكم إليه الوافد والمنبعث من التراث جميعا وقد جاء ذلك -بعد أن مرت الأمة الإسلامية بمرحلة الانبهار، ومرحلة التبعية، ومرحلة التجربة، مرحلة بعد مرحلة حتىٰ تأكد للمسلمين أن الطريق الذي ساروا فيه ملئ بالعثرات والأخطاء وانه لا يؤدي إلىٰ الهدف الذي يتطلعون إليه وهو: امتلاك الارادة التي تمكنهم من إقامة مجتمعهم الرباني علىٰ الأرض مرة أخرىٰ علىٰ النحو الذي يمكنهم من تبليغ دعوة الله إلىٰ

العالمين، فقد كانت المخططات كلها ترمي إلىٰ تعويق المسيرة ودفعها عن صراط الله المستقيم إلىٰ السبل التي تفرق بها عن سبيله.

ما هو التراث الغربي الذي كانوا يملكون قبل الإسلام

نتجاوز الحقيقة إذا قلنا أن التراث الذي كان قائما قبل الإسلام كان خليطا من ركام الوثنيات السابقة والمعاصرة لهم، من تراث الفرعونية والمجوسية والهندوسية وعقائد الرومان، وهي مجموعة من الأفكار المختلطة، التي امتزجت بتراث الدينين السماوين: ما نزل علىٰ عيسىٰ وموسىٰ عليهما السلام، ولكن المراجعات والأبحاث كلها لا تكشف أي ضوء يشير إلىٰ اثر هذين الدينين السماويين في هذا الركام المختلط الذي تمثل في مراحل كثيرة في ما قدم أفلاطون وارسطو قبل المسيحية وما قدمه أفلوطين، ثم ما تبلور في كتابات العديسي وأغسطين الذي خلط فكر المسيحية بمذهب أفلاطون وما قدمه توماس الاكويني مختلطا بمذهب أرسطو وقد سيطرت الفلسفة اليونانية سيطرة كاملة علىٰ الفكر المسيحي واتخذت كتابات فلاسفة اليونان أدوات دفاع عن المسيحية الغربية (بمفهومها الذي قدمه القديس بولس: القائم علىٰ التثليث والصلب والخطيئة) هذا الفكر الذي أقر كثيرا من قيم الحضارة الرومانية وخاصة ما يتعلق بالتعامل (أولا) مع الإنسان واقرار الرق واعتباره نظاما أساسيا لا سبيل إلىٰ القضاء عليه و (ثانيا) مع المرأة باعتبارها ليست ذات كيان خاص أو شخصية مستقلة.

ويمكن القول ان الفكر الأوربي الذي كان قائما (٥٧١ م)

كان فكرا بشريا مختلطا قد غلب علىٰ البشرية روح الظلم والإباحة والفساد التي عم مختلف المجتمعات ذات الحضارة المتقدمة كالنظام الفرعوني في مصر والمجوسي في فارس والهندوكي في الهند بالإضافة إلىٰ النظام الامبراطوري الروماني (قيصر...) حيث تفشت الدعوة إلىٰ ما يسمىٰ الملك الإله واستعلت روح الاستبداد الذي بلغ غاية القسوة في نظام الحكم مع استشراء روح الإباحة وعبادة الأجساد في نظام المجتمع، مع قيام الصراع بين اليهود وبين المسحيين، وقيام محاكم التفتيش وتغيير الكتب المقدسة ونقلها من روح الإيمان بالله الواحد الأحد إلىٰ التعدد والتثليث وهي أديان قديمة سبقت اليهودية والمسيحية، كما ظهرت فكرة الإله الخاص عند اليهود وفكرة الابن الإله في المسيحية، وبذلك علت في ظل الدين السماوي فكرة التجسيد التي جاءت الأديان للقضاء عليها وقد أخذت المسيحية من الفكر اليوناني القديم فكرة العقول السبعة، وفكرة الاتحاد والحلول، التي جاء الدين الحق للقضاء عليها، أصبحت من صلب العقيدة والمفهوم الاجتماعي الذي عرفته أوربا في هذه المرحلة والذي تطور حتىٰ وصل إلىٰ غاية كبرىٰ هي «الرهبانية» واعتزال الحياة جملة واحدة.

وقد أكدت أبحاث المؤرخين وعلماء اللاهوت أن عقيدتي التثليث والفداء التي عرضتها المسيحية كانت موجودة في عقائد اليونانيين منذ وقت طويل قبل الميلاد ويقول علماء تاريخ الاداب

اليونانية انها مأخوذة عن رواية قديمة جدا صور فيها الشاعر اليوناني آلام الصلب التي احتملها ذلك الاله، وقد أكدت الأبحاث كذلك أن كل ما تضمنته التوراة (المكتوبة بأيدي الأحبار) كان من جماع تراث الأمم القديمة سواء في بابل أو فارس أو الهند وانه قد صيغ من جديد ليكون عقيدة لليهودية وان كل قضايا الجبر والتشبيه والرجعة موجودة في هذا التراث كما أباحت الشرائع الربا والزنا وأكل مال الناس بالباطل.

وعندما اعتنق الرومان المسيحية، كانت قريبة من دياناتهم، ليس بينها وبين تلك الطقوس إلا فوارق قليلة، وأخذت المسيحية طقوس الرومان كما أخذت طقوس الوثنية الفرعونية. وصارت الهياكل كنائس مسيحية، وجاهدت القوىٰ الرومانية حتىٰ فرضت التثليث مع المسيحية وحاربت القائلين بان عيسىٰ عليه السلام نبي وليس إله أو ابن إله، وفي مقدمتهم (اريوس) وأتباعه.

وكان أريوس قد ظهر في الاسكندرية في أول القرن الرابع بعد الميلاد وكان ممن يعلمون الناس نفي الالوهية عن المسيح ويقولون عنه ليس من ذات الله وانه مسبوق بالعدم ضرورة لأنه مولود وانه جائز الوجود وأن الحكمة في وجوده أن يكون واسطة في انقاذ العالم من الخطيئة وقد حوكم اريوس (٣١٨ م) علىٰ تهمة انكار لاهوت المسيح واعترف اريوس بالاتهام وأثبته بحجج وحكم عليه بالحرمان ولم تأخذ الكنيسة برأيه وقبلت الرأي الآخر وهكذا لم يقدم تراث الغرب قبل الإسلام إلا أمرين:

إباحة اليونان وقسوة الرومان ومجموعة من الفلسفات القائمة علىٰ مفاهيم مضطربة من المنطق شكلت تلك الأفكار التي روج لها المشاؤون المسلمون بعد ترجمة الفلسفة اليونانية في القرن الثالث الهجري ، والتي رفضها علماء المسلمين منذ اليوم الأول كما قدمت مجموعة من المفاهيم القائمة علىٰ الاستعلاء بالعنصر والدم واحتكار الطبقات الفقيرة واقرار عبوديتها ومجموعة من الأساطير والخرافات عن تصارع الالهة وأحقادها ، مما قام عليه من بعد ما سمي بمذهب المحاكاة والمساواة والصراع الذي قامت عليه الفنون ومفاهيم تقليد الطبيعة والتفوق علىٰ الطبيعة .

وقد جاء الإسلام وهذه المعركة دائرة ومصطخبة ، بين مذاهب بشرية مضطربة في جميع أنحاء العالم ، في فارس ومصر والشام والدولة الرومانية الشرقية والغربية تحت غطاء مسيحي ظاهر ، مع عشرات من الفرق التي انسحبت إلىٰ الأطراف كمدارس انطاكية نصيبين والرها ، والصراع بين الهيلينية واليهودية وظهور المسيحية الهيلينية والنساطرة ، والصابئة والمجوسية ، وتراث الهند وتراث فارس القديم ، والوثنية العربية في الجزيرة العربية ، كل هذا الركام لم يكن يحمل في طياته إلا أهواء الشعوب وطفولة البشرية وقد جاء الإسلام ونزل القرآن فقضىٰ فيه بالرأي الحاسم الصحيح ، فما ترك كتاب الله طائفة أو فرقة أو مذهب إلا وقدم موقف الدين السماوي فيه خلافا معه أو اتفاقا .

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ النحل

وحين نستقرئ التاريخ نجد أن الشعلة الأوربية أوقدت من شجرة الإسلام فقد عاشت أوربا منطوية علىٰ أساطيرها ومفاهيمها المضطربة المختلطة التي أوصلتها إلىٰ عصر الرهبانية الذي توقف فيه كل شيء حتىٰ عبرت إليها حضارة الإسلام ومنهجه التجريبي عن طريق الأندلس ومن ثم انتفضت الحياة وحررت نفسها العقول ولكنها صاغت تجربة الإسلام في اطارها القديم (اليوناني ــ الروماني ــ اليهودي ــ المسيحي) وانشأت من خلال ذلك تلك المفاهيم الجديدة من العلم التي سرعان ما اصطدمت بمفاهيم الكنيسة في حرب شديدة الأوار انتهت بعزل الدين عزلاً كاملا وسيطرة مفاهيم العلم ــ العقل ــ المادة، الفلسفة علىٰ النحو الذي سارت به أوربا نحو الرأسمالية الليبرالية جدل هيجل، ونظرية التطور، والوضعية المنطقية والماركسية والبراجمانية والوجودية.

هذه المفاهيم التي عمد الغرب بعد جولته الاستعمارية في عالم الإسلام أن يفرضها علىٰ المسلمين في محاولة جادة وخطيرة وواسعة النطاق عن طريق التعليم والتبشير والاستشراق والصحافة إلىٰ (تغيير مضامين الإسلام) وإخراجه من مفهومه الأصيل الجامع الرباني الوجهة الإنساني الهدف إلىٰ تمسيح خطير بعده للانصهار في بوتقة الحضارة العالمية أو الأممية الشعوبية.

الفصل الثاني
من الاحتواء إلىٰ المواجهة

جرت عملية الغزو بين عالم الإسلام وعالم الغرب في عدة مراحل

الجولة الأولىٰ: خطة الاحتواء:

(١) حاول الغرب بناء منهج جديد في ضوء الإسلام مكنه من السيطرة علىٰ العلوم.

(٢) اندفع الغرب للسيطرة علىٰ بلاد الإسلام لاستنزاف ثرواتها.

(٣) عمل الغرب علىٰ تزييف منهج الإسلام حتىٰ لا يصير المسلمين قوة تناهضه.

(٤) فرض الغرب التبعة لمفاهيمه ومناهجه لاستسلام المسلمين أمامه.

الجولة الثانية: خطة المواجهة

(١) قاوم المسلمين النفوذ الأجنبي حتىٰ كل لواء سواء وطني أو قومي.

(٢) كشف المسلمون جوهر الإسلام وحقيقته وقدموه من جديد علىٰ أنه دين ودولة.

(٣) تقدم المسلمون فواجهوا مفاهيم الغرب وكشفوا زيفها.

(٤) تساقطت نظريات الغرب كما تتساقط أوراق الخريف لأنها لم تقم علىٰ أساس صحيح.

(٥) أندفع الإسلام إلىٰ الغرب واقتحم وجدان علمائه ومفكريه.

كانت قاعدة ابتعاث الإسلام من داخله في مرحلة التخلف قاعدة طبيعية فإن حركة اليقظة الإسلامية ما لبثت تتقلب بين مناهج الفلسفة والكلام (جمال الدين ومحمد عبده) إلىٰ المنهج القرآني (حسن البنا) واكتشف المسلمون مبكرا عملية التعريب وخطة الغزو ومؤسسات التبشير والاستشراق وأدوات المدرسة والصحافة.

وكانت الخطة الأساسية هي:

مقاومة إذابة الشخصية الإسلامية، وتأكيد الذاتية والطابع المميز وكشف دعوى اليأس والقنوط. والشك التي عمل النفوذ الأجنبي علىٰ إشاعتها بين المسلمين. فقد كانت أبرز أهداف التغريب والغزو الثقافي زرع فكرة اليأس والقنوط في النفس الإنسانية والاستهانة بالقيم الإسلامية والقول بان هزيمة المسلمين والعرب جاءت بينهم لارتباطهم بالإسلام والحقيقة هي أن تهاون المسلمين في الاستمساك بالإسلام هو الذي أدىٰ بهم إلىٰ الهزيمة، ذلك أن المنهج الإسلامي كان قادرًا دائما علىٰ حماية المسلمين من الهزيمة ودفعهم إلىٰ اعتقاد مكانهم الحق.

وكان من أبرز تعاليم الإسلام دعوته أهله ومعتنقيه إلىٰ معارضة التقليد الأجنبي والحرص علىٰ أن تظل شخصية المسلم متميزة وأن يكون مجتمعه وحضارته مستقلة، ولذلك فقد أعلن حربا لا هوادة فيها علىٰ التقليد وعلىٰ التبعية وحكم علىٰ من تشبه بقوم بأنه قد انفصل عن أهله وأصبح من أهل القوم الآخرين وكذلك دعا إلىٰ اعلان التميز بين الأمم من حيث العادات والأخلاق.

ولما لم يكن المسلمون حلقة في الحضارة اليونانية الرومانية التي تجددت في الحضارة المدنية كما يدعي بعض دعاة التعريب فقد كان لا بد من أن ينصح أن الإسلام جاء فاصلا بين عهدين في تاريخ البشرية، ذلك لأن للإسلام حضارته الخاصة ومفهومه المستقل وطابعه المحرر عن منطق اليونان ووثنية الفرس وتعدد الهنود.

ولقد أثبت الكثيرون من ثقاة المؤرخين للعالميين أن الإسلام جاء ليفتح للبشرية صفحة جديدة حيث أن كل ما سبقه كان مقدمة له وان المطالع لتاريخ ألف عام قبل الإسلام بين وثنية الرومان وتعثر المسيحية واضطراب الخطط والمفاهيم واختلاط وحي السماء بفكر طفولة البشرية ليحس احساسا صادقا بمعنىٰ قوله تعالىٰ

﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾

فقد اظلمت الحياة البشرية حقا ولم يعد هناك مخرج من ظلماتها

وقسوتها وجهالتها فكان الإسلام ذلك الضياء الذي أعاد البشرية مرة أخرىٰ إلىٰ الله، إلىٰ الفطرة، إلىٰ ميثاق الله تبارك وتعالىٰ الذي أخذه علىٰ الانسان قبل أن يخلق.

لقد توالت الأديان مع ارتقاء العقل البشري حتىٰ وصلت إلىٰ الغاية بالإسلام مع وصول البشرية إلىٰ عصر الرشد ومن أجل ذلك أشارت الكتب السابقة للإسلام جميعا إلىٰ النبي الخاتم وأن كل هذه النبوات هي مقدمات للدين الخاتم، كذلك فإن حقيقة التوحيد   وليس كما يدعي البعض مع ظهور اليهودية.

وقد كانت النبوة قبل الإسلام محلية: كل نبي لأمته وكانت الشرائع موقوته كل شريعة لعصرها فلما جاء الإسلام جاء للعالمين وجاء بشريعة خالدة إلىٰ يوم الدين وجاءت الرسالات من قبله بمعجزات البيئة لا يبقىٰ منها بعد ذلك شئ، أما الإسلام فجاء بالمعجزة الكبرىٰ الخالدة، جاءت المسيحية مكملة لرسالة موسىٰ وإلىٰ بني اسرائيل وحدهم فلما خرجت عن نطاقها الرباني إلىٰ دين عالمي انحرفت وتغيرت في مضامينها ووجهتها فقد كانت حلقة في عقد ينتهي بالإسلام، وقد جاء عيسىٰ عليه السلام مصدقا لما بين يديه من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعده اسمه أحمد فلما خالفت هذه الحقيقة وانتزعتها أصبحت اليهودية دينا عنصريا وأصبحت المسيحية دينا لاهوتيا ليس له شريعة بل هو مجموعة من الوصايا ومن هنا حاولت الأمة الرومانية المسيحية أن تصنع لها شريعة فاتخذت نظام الأيدلوجية البشرية وكان طابعها

هو الليبرالية الرأسمالية التي لم تلبث أن عجزت واستعلت فخرج من عبائتها نظام مضاد هو الاشتراكية وما يزالان يتصارعان ولم يحين أحدهما للبشرية المنهج الأمثل الذي تتطلع إليه الأمم جامعا بين اشراق الروح وعدالة المادة، وكان الإسلام قد سبق المنهجين وقدم المنهج الرباني الذي يحقق آمال البشرية في العدل والرحمة والشورىٰ والاخاء البشري ولكن روح التعصب التي سادت الغرب بعد ظهور الإسلام حملت الغرب علىٰ حرب الإسلام ومنهجه والتشكيك في قيمه وصرف الناس عنه، وذلك خوفا من تقبل الناس له لبساطته ويسره وقد بدأت هذه المعركة عندما ترجمت العلوم وكشف التجريب عن فساد بعض النظريات التي جاءت في الكتب المقدسة وخاصة عن عملية الخلق وعمر الأرض، وقد كانت جريمة محاكم التفتيش مرتبطة أساسا بالعلماء الذين تعلموا علم الإسلام وخالفوا مفهوم الكتب المقدسة أمثال جاليلو وكوبرنكوس. ولما عادت بقايا الحملات الصليبية إلىٰ ديارها شهدوا بعظمة الإسلام وعدالة حكام المسلمين فازعج ذلك الكنيسة فادخلتهم في المحارق.

وهكذا تحولت المواقف إلىٰ شئ معقد أشد التعقيد:
منهج تجريبي إسلامي تأخذه أوربا من المسلمين وتدعي انه من صنعها وعقيدة ناصعة تخوض فيها أوربا لتثير الشبهات حولها حماية لاتباعها واحتوائها لأهل الإسلام أنفسهم حتىٰ يتنكروا لدينهم ويزدروه.

ودعوى عريضة بالفصل بين الدين والدولة، وبين الدين والمجتمع، وبين المجتمع والأخلاق، وإشاعة للأساطير والخرافات، ودعاوى مضللة عما يسمىٰ بعلوم النفس والأخلاق والاجماع منقولة من التلمود والفكر الوثني القديم، ثم اختلط كل هذا بمطامع في اعلاء الجنس الأبيض صانع الحضارة وفرض شعب الله المختار علىٰ بلاد الإسلام باخراج أهلها منها بناء علىٰ تفسيرات مضللة للتوراة ولوعد الله لإبراهيم عليه السلام.

ويخترق الإسلام أعماق الفكر الغربي مرتين: مرة عندما قدم المنهج التجريبي الذي قامت عليه الحضارة المعاصرة والذي حرر الغرب من نظرية أرسطو في التامل وحرر أوربا من الرهبانية، ومرة أخرىٰ حين قامت حركة الاصلاح الديني في أوربا واسقاط التماثيل والصور من الكنائس، يقول الدكتور عمر فروج أن لوثر لما وضع أسس الاصلاح الديني للنصرانية وهو ما يعرف بالحركة البروتستانتية كان يضع أمامه نسخة من القرآن الكريم الذي كان قد نقل إلىٰ اللاتينية في النصف الأول من القرن الثاني عشر للميلاد (نقله روبرت أوف كشتر) الانجليزي، النسخة نشرت ١٥٤٣ وإذا نحن درسنا خصائص البروتستانتية من رفض السلطة البابوية والغاء الرهبنة واقرار الطلاق بالإضافة إلىٰ التخلي عن الرموز كالصور والصلبان وعن الثياب الخاصة بالأساقفة والقسس مما كان معروفا في الديانات الوثنية والمجوسية واليهودية والنصرانية ولما جاء الإسلام لابطاله لم نشك لحظة في أن هذه الوجوه من

الاصلاح قد جاءت من الإسلام وإلا فمن أين يجب أن تكون قد أتت، ثم ان النصرانية مازالت تعادي الإسلام قرونا كثيرة لأسباب مختلفة وتتهم الإسلام بالقسوة من أجل الطلاق، عادت تلك النصرانية نفسها في جميع أقطارها وفي روما حاضرة الفاتيكان نفسها إلىٰ إجازة الطلاق.

ولا ريب أن ثورة الاصلاح الديني في المسيحية قد استمدت تعاليمها من الإسلام فقد كانت الكنيسة تنادي بأنها الصلة الوحيدة بين الله والإنسان وبانه لا يصل إلىٰ (الله) تبارك وتعالىٰ) دعاء أو صلاة أو استغفار إلا عن طريق الكنيسة ورجالها فجاء رجال الاصلاح الديني (لوثر وكلفن) وغيرهم فنادوا بان العلاقة بين الله تبارك وتعالىٰ والإنسان هي السبيل الوحيد للغفران وانه ليس ثمة لرأي بشري حرمة التقديس وهذا المعنىٰ مستمد من الإسلام تماما وهكذا نجد أن الإسلام أعطىٰ في ميدانين: ميدان ظاهر واضح هو ميدان العلوم التجريبية (وهو ما لم يعترف به الغرب إلا منذ سنوات قليلة) وميدان الاجتماع والنظم السياسية والاقتصادية وهو ما استعان به الغرب من تراث المسلمين الذي نقل إلىٰ أوربا وحبس في مكاتبها وانتزعت منه عشرات النظريات في مختلف المجالات وخاصة في ميدان القانون والمعاملات وحيث اعطىٰ المسلمون لاوربا كل ما أبدعوه في مجال العلوم حجب الغرب عن المسلمين ما لديهم من علوم، هي بالطبع، اضافات علىٰ الأسس التي رسمها المسلمون.

والمعروف أن المسلمين حين انشأوا المنهج التجريبي كانوا معارضين لمنهج اوربا القائم في ذلك الوقت ــ وهو المنهج التأملي ــ وانهم راجعوا الفكر البشري السابق لهم وفحصوه، وقبلوا منه ورفضوا، وكشفوا أخطاء كثير من العلماء أمثال جالينوس، وصححوا ما كتبه أبقراط وأرسطو وافلاطون وكلها مفاهيم كانت تنظر أوربا إليها نظرة التقديس ثم أقاموا منهج الخلق العلمي فاعترفوا بالفضل للسالفين واعلنوا أن المعرفة من أجل نفع المجتمع وأقاموا روح التسامح للفئات المختلفة التي كانت تحيا في ظل المسلمين ونظروا إلىٰ الأديان الأخرىٰ نظرة كريمة فقد اعتبروها جماعات لها الحق في أن تحيا حياة كريمة ثم جاء الغربيون فنسبوا المنهج العلمي التجريبي (Eyperimental) إلىٰ أنفسهم وظلت علوم المسلمين تدرس في الجامعات الأوربية منذ القرن الثاني عشر الميلادي. وأعلن روجر بيكون انه تلميذ العرب والمسلمين ولكن ماكس فانتاجو في كتابه المعجزة العربية حين عن العطاء الإسلامي في مجال الجبر والحساب والفلك والجغرافيا الخ لم يستطع أن يكون منصفا وعشرات غيره بخلوا علىٰ المسلمين بالاعتراف، ولكن قليلين من العلماء أمثال درابر، و... اعترفوا بحقيقة الدور الذي قام به المسلمون، وربما استطاع مونتجمري وات أن يكشف ما وراء هذا الأمر حين قال:

لقد كان شعور أوربا الغربية بالنقص عند مواجهتها للحضارة الإسلامية جوانب متعددة، فالتكنولوجيا الإسلامية كانت متقدمة عن التكنولوجيا الأوربية في كثير من الميادين، وكان أثرياء المسلمين

أكثر استمتاعا بالكماليات من الأوربيين ، ولكن كان تشويه هؤلاء الأوربيين لصورة الإسلام ضروريا لتعويضهم عن احساسهم بالنقص ، وعندما نلم اليوم بكافة جوانب مواجهة المسيحية للإسلام في العصور الوسطىٰ يتضح لنا أن تأثير الإسلام في العالم المسيحي الغربي هو أضخم مما يظن عادة فلم يقتصر دور الإسلام علىٰ تعريف أوربا الغربية بالكثير من منتجاته المادية واكتشافاته التكنولوجية ولا علىٰ إثارة اهتمام الاوربيين بالعلوم الفلسفية بل انه دفع أوربا أيضا إلىٰ تكوين صورة جديدة لذاتها ، وقد أدت مواجهة الأوربيين العدائية للإسلام إلىٰ تهوينهم من شأن المسلمين في حضارتهم ومبالغتهم في بيان أفضال التراث اليوناني والروماني عليهما ومن ثم فإنه ومن أهم واجباتنا معشر الأوربيين الغربيين أن نصحح هذه المفاهيم الخاطئة وأن نعترف اعترافا كاملا بالدين الذي ندين به للعالم العربي والإسلامي .

ولكن هذه الحقائق لم يكن من اليسير علىٰ الغرب أن يعترف بها إلا بعد تحولات خطيرة وبعد أن استطاع المسلمون أنفسهم أن يكشفوا ما حاول الغرب أن يدعيه لنفسه باطلا وهو من معطيات الإسلام .

الفصل الثالث
قبل الإسلام: فكر مختلط

كان الفكر الأوربي قد تشكل قبل الإسلام من مفاهيم وثنية ويونانية ومسيحية مختلطة، جماع من مفاهيم الإباحية المطلقة والعبودية المطلقة اطفأت المسيحية بعض نارها بشئ من الروحية والرحمة لم تستطع أن تتغلب علىٰ روح القسوة الشديدة العاصفة التي خلفتها الفلسفات اليونانية والحضارة الرومانية، وكانت النظريات الفلسفية مشوبة بشئ مما جاء في التوراة والانجيل وبعضها مكتوب بأقلام الأحبار والرهبان وهي فلسفة منقسمة علىٰ نفسها بين عبادة الجسد والرهبانية (الابقوريون والرواقيون) وهما نزعتان متضادتان حول تفسير مفهوم السعادة: أحدهما ترمي إلىٰ اقتناص اللذات والأخرىٰ تدعو إلىٰ التحرر من اللذات كلية وكلاهما مبالغ في وجهته وكلاهما متعارض مع فطرة الإنسان الجامعة الداعية إلىٰ مقارفة ما أحل الله دون الوصول إلىٰ مرحلة السقوط، وهي المعادلة الإسلامية الحقيقة التي دعا إليها الدين الحق في كل زمان. ولقد غلب المفهوم الإباحي علىٰ الحضارتين اليونانية والرومانية حول الاندفاع وراء اللذات وعبادة الأجساد وما أطلق عليه مرح البدن وهو المفهوم الذي ورثته الحضارة الغربية المعاصرة واسرفت فيه اسرافا شديدا، خاصة بعد أن وقعت أوربا في دائرة (الرهبانية) التي هي في حد ذاتها اسرافا في الجانب الآخر،

وهكذا لم يستطع الغرب أن يعرف ميزان الاعتدال الذي دعا إليه الدين الحق، وهو تحصين رغبات الإنسان دون الخروج علىٰ الحدود والضوابط التي رسمتها رسالات السماء.

ولا ريب أن فكرة الفلسفة اليونانية في الإباحة والعري هي أصل الدعوة التي حمل لوائها اليهود في العصر الحديث تحت ستار الماسونية بهدف هدم المجتمع الإنساني وذلك بتلقين الشباب في طفولتهم أسس دعوات الجنس والانحلال وتربيتهم علىٰ عدم التجرح من رؤية أعضائهم التناسلية في نوادي العراة أو الرحلات.

(٢) وكان من أخطر ما دعت إليه الفلسفة اليونانية الرومانية الدعوة إلىٰ جعل شئون الحكم في يد طائفة مختارة من الناس يتصاهرون فيما بينهم ويلدون أطفالهم بصورة جماعية ثم تربيهم الدولة محافظة علىٰ سلامة الجنس المختار، وهي دعوى أفلاطون في جمهوريته التي فشل مرتين في أن يحققها حين أتيحت الفرصة لإقامة حكومة ولعل هذه الدعوى هي أخطر ما حملت الفلسفة اليونانية الرومانية إلىٰ حضارة الغرب الحديثة حيث لا تزال قائمة في أعماق الحكام والفلاسفة المعاصرين وان كانت مختفية تحت أسماء أخرىٰ براقة كاذبة وقد كانت هذه الدعوى المسرفة في الظلم مما دعا الإسلام إلىٰ القضاء عليها فقد دعا فلاسفة الاغريق (ارسطو وافلاطون) إلىٰ شرعية الرق

وإلىٰ تقسيم المجتمع إلىٰ سادة وعبيد، والتأكيد بان وجود الرقيق حقيقة لا سبيل إلىٰ تجاوزها واقرار حق السيد في استغلال العبيد (ارسطو) وقد عجزت المسيحية عن أن ترفع عن المجتمع الأوربي هذه الآصرة بل لقد أيدتها من بعد كما أيدت (ربا اليهود).

(٣) وقد كانت نظرية الأجناس التي استعلنت في ظل الفكر الغربي الحديث من أخطر الدعوات التي أعلن الإسلام معارضته إياها والتي استغلها اليهود ليفرضوا علىٰ البشرية نظرية شعب الله المختار وهي نظرية ترىٰ أن تكون هناك جماعة معينة بينها دين الله عقدا خاصا لتكون مسودة علىٰ العالم، وقد قرر الإسلام أن عقد الله تبارك وتعالىٰ مع الناس هو (التقوى) بذلك شجب الإسلام الدعوة العنصرية القائمة علىٰ الدم والأنساب ومنع التفاصل بهما، كذلك فإن الإسلام لم يقر أي تميز في الجماعة علىٰ أساس اللون أو الجنس أو اللغة، وجعل التميز الوحيد هو التقوى والعمل الصالح، وكذلك هدم الإسلام نظام استعلاء الطبقة الخاصة لاغيا الرق والسخرة ومحرراً للعبيد وفاتحا لهم باب الأخوة الجامعة بشتىٰ الأساليب.

(٤) كذلك فقد رفض علماء الإسلام المنطق الأرسطي الذي يقوم علىٰ القياس والاستدلال النظري وأقام منطقا جديدا معبرا عن خصائصه وهو المنهج التجريبي واعتبروا أمثال

الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد مجرد امتداد للروح الهلينية في العالم الإسلامي والفكر الإسلامي هو الذي اكتشف بحق المنهج التجريبي، ومنهج المعرفة وقدم الإمام ابن تيمية الأسس العقلية المجردة لمنطق القرآن بعد أن دحض أخطاء أرسطو.

إن اختلاط الفكر اليوناني الروماني بالفكر اليهودي المسيحي واضح في تاريخ الفلسفة وضوحا شديدا، هذا الاختلاط التي كان مصدره عجز المفاهيم الدينية عن تقديم نفسها للناس إلا من خلال نظريات فلسفية تجليها أو مسرحيات تصورها وهو ما ارتفع الإسلام ارتفاعا كبيرا عن قبوله، فإن الفلسفات حين ترجمت عجزت عن احتواء الإسلام كما احتوت اليهودية والمسيحية ووقف لها علماء المسلمين بالمرصاد وكشفوا زيفها وخلافها العميق مع منهج الإسلام: الذي كان واضحا بسيطا ميسرا ليس فيه أي تعقيد يحتاج إلىٰ الاسلوب الفلسفي، والذي كان يختلف من حيث الجوهر مع مفاهيم الوثنية والعبودية والتعدد والإباحية التي كانت هي الظواهر الواضحة للفكر الغربي المختلط.

والمعروف أن موسىٰ بن ميمون (فيلسوف اليهودية) طبق الفلسفة الارسطية علىٰ اليهودية، كما طبق موسىٰ

الاكويني الفلسفة الارسطية علىٰ المسيحية، وأن اثر الفلسفة اليونانية ظاهر للعيان في مذاهب الفلسفة الغربية من بعد: وفي كتابات بيكون وديكارت واسينوزا ولينينر وهيجل، كان هدف الفلسفة المسيحية من ذلك تزويد العالم بنظرية تامة عن الكون وهذا ما لم يكن الإسلام في حاجة إليه لقيامه علىٰ التوحيد والتنزيه فالإسلام في جوهره قرار لله تبارك وتعالىٰ بالسلطان الأوحد في الهيمنة علىٰ الكون وأن الذين حاولوا التوفيق بين الفلسفة اليونانية والإسلام أمثال: (الكندي والفارابي وابن سينا) كانوا يهدفون إلىٰ غايات بعيدة عن خدمة أهداف الإسلام الحقيقية علىٰ نحو ما عرف أخيرا من تبعية بعضهم للدعاوى الباطنية فضلا عن فشلهم الذريع في تحقيق هدف الموائمة بين فكر عبودي يوناني وفكر اسلامي يدعو إلىٰ المساواة والحرية والاخاء البشري، ومن ذلك تخبطهم في الموائمة بين فكر ارسطو وفكر أفلاطون وكلاهما له وجهة مختلفة.

لقد كانت الفلسفة المسيحية تحاول تبرير التثليث بمفاهيم فلسفة مستمدة من الفلسفات الوثنية القديمة، ولم يكن الإسلام في حاجة إلىٰ فلسفات لعرض مفاهيمه اليسيرة في التوحيد، وكذلك الأمر بالنسبة للمسرح وعقدة الصراع بين الالهة والبشر فإن الإسلام قد خلا من حاجته إلىٰ هذا الأداء لقول الباحثون في

مقارنات الأديان : إن اليهود في عهد فيلون (الذي عاش ما بين سنة ٤٠ قبل الميلاد و ٤٠ بعده مزجوا الدين بالفلسفة حتى ادعوا أن الفلسفة الاغريقية والديانة الموسوية من أصل واحد وفي نفس الوقت نرى الافلاطونية الحديثة التي بدأت بتاريخ افلوطين المتوفى ٢٧٠ م تمزجها بالدين المسيحي مزجا وإذا النساطرة واليعاقبة الذين ورثوا نظريات هذه المدرسة (الأفلوطيـة المحدثة) والذين كانوا يقيمون في بلاد فارس والعراق وسوريا حين الفتح الإسلامي يتكئون علىٰ دراسة الفلسفة حتىٰ كانوا واسطة في نقلها للمسلمين ، وانهم حين نقلوا الفلسفة اليونانية لم ينقلوها بامانة بل خلطوها بمفهومهم المسيحي :

وصدق الله العظيم

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

الفصل الرابع
ماذا أخذ الغرب وماذا أعطىٰ

أريد أن أقدم تصوراً للفكر الأوربي قبل أن تصل أضواء الإسلام إلىٰ الغرب: هذا الفكر المختلط علىٰ حد تعبير الباحثين في العقائد والفلسفات: الخلط بين الفكر اليوناني والفكر الروماني، وهو فكر بشري وبين بقايا الدين اليهودي والمسيحي، والمسيحية دين مكمل لرسالة موسىٰ بكتاب آخر غير التوراة هو الانجيل، وقد عبرت مفاهيم الرسالتين المنزلتين إلىٰ الغرب علىٰ نحو مختلف، بعد أن تنازعتها أهواء الأحبار الرهبان علىٰ النحو الذي أشار إليه القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا وأكدته في العقود الأخيرة أبحاث كبار رجال اللاهوت اليهودي والمسيحي أنفسهم، أبرز معطيات هذا الفكر تتركز في الفيلسوفين الكبيرين (أفلاطون) وأرسطو علىٰ خلاف ما بينهما من اتجاه يمكن أن يصور الخلاف الفلسفي العالمي كله فأفلاطون مفاهيمه تتصل بالحدس والروح وارسطو مفاهيمه تتصل بالمادة ولذلك فقد كان ارسطو قاعدة أساسية للفكر المادي الغربي الذي انطلق من بعد أن وقع الخلاف بين الفكر المسيحي اللاهوتي الذي تقلص — وبين الفكر العلمي والتجريبي الذي انتج الفكر الفلسفي المادي.

وفي نفس الوقت عندما عبر الإسلام إلىٰ الغرب وحمل معه مفاهيمه سواء في مجال العلم التجريبي أو منهج المعرفة (بمفاهيمه

في التاريخ والاجتماع والاقتصاد والتربية) تراجع منهج ارسطو تماما وهاجمه الفكر الغربي بمثل ما سبق أن هاجمه به المسلمون في القرن الرابع الهجري، ولكن حركة الغزو الفكري والتغريب لم تلبث أن فرضت منهج ارسطو علىٰ المناهج الدراسية والثقافية العربية والإسلامية لتحصر المسلمين في دائرة الفكر التأملي وتحرمهم من الفكر التجريبي الذي كانوا قد أهـدوه للغرب وأقام عليه الحضارة الحديثة.

لقد أفاد الفكر الغربي بنظريات المسلمين في العلوم (وفي مختلف المجالات مما عرف بعضه (روجر بيكون ورابر، وديكارت) وما أنكره فرنسيس بيكون ولكن النصوص كشفت مصادره من كتابات الغزالي في المنقذ من الضلال وكتابات الشافعي في الرسالة وغيرها.

غير أن القضية هي: ماذا كان موقف الغرب، لقد باع لنا البضاعة الفاسدة وحجب لديه فكر المسلمين المحبوس في أكثر من نصف مليون مخطوط ان محاولة صرف المسلمين عن منهج فكرهم الأصيل كان هدفا ضخما من أهداف التعريب والغزو الفكري إيمانا منهم بان ذلك هو السبيل الوحيد لابقائهم ــ أي المسلمين ــ في الدائرة المغلقة وما يزال المسلمون غارقون في دراسة فلسفة الغرب القديمة والحديثة، ومازالوا يفهمون التاريخ الإسلامي بمقاييس التفسير المادي، وما يزالون يعتبرون (ابن سينا والفارابي) هم فلاسفة الإسلام.

وكان ذلك العمل مؤكدا للتوجيه الذي قدمه لويس التاسع بعد الحملة الصليبية التاسعة: [أيها الأمة النصرانية إذا أردت أن تقضي علىٰ هذه الأمة (أي الإسلامية) فعليك أن تدمري اخلاقها وأن توجدي لها بدائل لولاءاتها غير الولاء لله ورسوله وللمؤمنين، اوجدي لها ولاءات جديدة وتعلق جريدة لوموند فتقول: واعتقد بأنه إذا لم نتمكن من تحويل المسلمين بالتدريج عن دينهم وحملهم علىٰ اعتناق المسيحية فإن النتيجة الحتمية هي تكون روح قومية جديدة تؤدي إلىٰ طردنا من الامبراطورية الاستعمارية في شمال افريقيا وان السبيل الوحيد لعدم طردنا من هذه الامبراطورية أن نجعل سكان البلاد فرنسيين والسبيل لذلك هو أن نجعلهم مسيحيين».

ومن أجل ذلك طرح النفوذ الأجنبي في أفق الفكر الإسلامي حصاداً مختلطا من الفكر اليوناني والروماني والمسيحي واليهودي لإثارة الشبهات وزلزلة النفوس وإثارة الشكوك في القلوب ولكن علماء المسلمين واجهوا هذا الفكر وكشفوا زيفه وأبانوا عن عواره وفساده وعجزه عن العطاء في مواجهة تكامل الإسلام وسماحته وسعة أفقه.

ولقد كشفت المواجهة التي قام بها علماء المسلمين للفكر اليوناني في القرن الثالث الهجري والمواجهة إلىٰ علماء المسلمين للفكر الغربي بحمله في القرن الرابع عشر الهجري عن أصالة وقوة، ان دلت علىٰ شيء فقد دلت علىٰ أن «المسلم قادر علىٰ أن

يتجاوز الفكر الغربي بجملته إلىٰ فكر آخر أكثر انسانية وعمقا وأكبر قدرة علىٰ معالجة مشكلات العصر علىٰ أساس الإيمان بالله الواحد الأحد وباخلاقية الحياة والمسئولية الفردية، ذلك هو منهج الإسلام الجامع.

«وإن ما يصلح في مجتمعات الشرق أو الغرب علىٰ السواء من مبادىء وأفكار لا يكون صالحا بالضرورة لمجتمعات عالمنا الإسلامي، وأن المجتمع الاوربي ليس بالضرورة مثالا لكل المجتمعات وقد تتجاوز البشرية حضارة الغرب إلىٰ موقع آخر من الحضارة أفضل وأكمل يقيم التوازن بين الجانب الروحي والجانب المادي ويجعل دعائمها الإيمان بالله» علىٰ حد تعبير الدكتور الغنيمي التفتازاني.

لقد كانت ترجمة الفلسفة اليونانية إلىٰ اللغة العربية في القرن الثالث الهجري أشبه بمؤامرة خطط لها الشعوبيون والباطنيون أعداء الإسلام، خرجت عن الهدف الحقيقي من ترجمة العلوم وقد أعان عليها ذلك الاتجاه الخطير الذي سار فيه (المأمون) بالانحياز إلىٰ علماء الكلام والمعتزلة الذين كونتهم الفلسفة اليونانية أساسا وأخرجتهم من مفاهيم الإسلام.

ولكن قدرة الإسلام وأصالته — إذ ذاك — كانت قادرة علىٰ ضرب هذه المؤامرة منذ اللحظة الأولىٰ وكشف زيف دعاوى الفكر اليوناني (والمجوسي والهندي والفارسي) جميعا، ولكن الخطورة نشأت عندما تجدد ذلك في العصر الحديث علىٰ يد حركة

التغريب والغزو الفكري التي كانت تسعىٰ إلىٰ أن تطرح في أفق الفكر الإسلامي خليطا من مفاهيم اليونان والفرس، ومجموعة من فلسفات مضطربة باطنية وفلسفية ومادية ووثنية وإباحية بهدف تدمير مفهوم أهل السنة والجماعة ــ وهذ هي المعركة التي مازلنا نواجهها بقوة منذ منتصف القرن الرابع عشر الهجري.

وقد تحدث كثير من الباحثين عن أخطار ترجمة التراث اليوناني التي اتسعت في العصر الحديث دون أن يكون لها ترشيد صحيح أو قدرة مسبقة علىٰ كشف زيوفها.

ولقد طرحت حركة الترجمة التي قام بها النساطرة مجموعة من المفاهيم الفلسفية الفاسدة التي تداولتها الوثنيات اليونانية التي أطلق عليها اسم علم الأصنام والتي كانت جماع وثنيات المجوسية والبوذية والأبقورية والتي صنعت من بعد فلسفات شوبنهور ووجودية سارتر والهة الزراعة والحصاد والخير والشر، واسترضاء الالهة بالخمور والدعارة في المعابد، وجماع مفاهيم السومرين، والبابليين، وتموز وأدونيس وعشتروت. وعبادة العجل في مصر، وقد خاض في هذا الوحل فلاسفة لهم أهداف تكشفت منذ قريب أمثال الفارابي وابن سينا ومن تبعهم من أصحاب رسائل إخوان الصفا ودعاة القرامطة والزنج.

ويصور محرر المقتطف هذه الفترة بقوله:

«كان حوض البحر المتوسط في نهاية القرن الأول الميلادي

مسرحا لمعركة فكرية كبيرة تناضلت فيها الثقافتان الاغريقية والعبرية (ايطاليا، سوريا ــــ مصر، اليونان) قبل المسيحية، قامت المعركة علىٰ النزاع بين العقل والدين».

ويؤكد هذا النص أن اليهودية قد هزمت أمام الفكر اليوناني الذي يؤمن بالإباحية اليونانية.

تتلخص مفاهيم الفكر الاغريقي الذي انصهر في الفكر الروماني من بعد في عدة مفاهيم أساسية:

أولاً: تقنين الرق والعبودية

فقد قسم أفلاطون الناس إلىٰ ثلاثة أقسام: المشرعون والمحاربون والصناع أما الأولون فهم المخلوقون لسيادة دون غيرهم وسماهم (الصنف الذهبي أما المحاربون فهم حراس المملكة وسماهم الصنف الفضي أما الصناع فهم المخلوقون للطاعة العمياء ودعاهم الصنف الحديدي أما العبيد فقال انهم ماشية الأمة مثلهم كمثل البهائم العاقلة وهذا رأي الحضارات القديمة (الفارسية والهندية والفرعونية) في الرقيق.

ثانياً: فشل فكرة المدنية الفاضلة

وقد دعا أفلاطون لتحقيق جمهورية في جمهورية صغيرة وقيل له انك مفوض تفويضا مطلقا لتحقيق جمهوريتك فاخفق، وقعد عشرين سنة وبعد فترة من الزمن أعيد للتجربة مرة أخرىٰ وبعد

هذا الاخفاق أخفق اخفاقا كاملا مرة أخرىٰ.

ودعا أفلاطون إلىٰ التناسخ حين قال أرسطو بازليه المادة وقد سيطرت الأفكار الأفلاطونية سيطرة كاملة علىٰ المدارس الباطنية الاشراقية والصوفية، لنزعتها المثالية الهادفة إلىٰ تحقير الجسد وملذاته، وهذه الفلسفة هي التي أخذ منها أصحاب الفلسفة الاشراقية، وهي تبدو واضحة عند أكثر الفلاسفة العرب وخاصة ما يتعلق منها بالنفس إذ النفس عندهم كشأنها عند أفلاطون جوهر روحاني قادر علىٰ مجاوزة عالم الحواس والابدان إلىٰ عالم الربوبية والصفاء، وحين تقرأ كتابات الفارابي وابن سينا وإخوان الصفا والكندي وابن رشد وغيرهم تجدهم يكثرون في مصنفاتهم الفلسفية من ذكر أفلاطون في معرض كلامهم عن النفس (ويختلف مفهوم أفلاطون في قضية النفس عن مفهوم الإسلام الصحيح) والأثر الأفلاطوني في رسائل الفارابي (آراء أهل المدنية الفاضلة) أكثر أما مؤلفات ابن سينا فهي مستنبطة من مصنفات أفلاطون، وكذلك كل ما جاء في رسائل إخوان الصفا من مسائل الفيض والابداع وكانت الافلاطونية قد انتقلت إلىٰ فلاسفة الاسكندرية فيلون، أفلوطين، فرغويوس، ترقلوس، ثم انتقلت إلىٰ اللغة العربية في عصر الترجمة ثم ترجمت إلىٰ اللغات الأوربية.

وقد عمد كتاب التعريب في عصر مبكر إلىٰ اغراء المصنفين العرب بأفلاطون وارسطو فيقول سلامة موسىٰ في اطار حديثه عن الفكر الاغريقي وعظمته (!) إن المجدد الناهض لا يكون كذلك

إلا إذا تخلص من القيود العديدة سواء أكان مصدرها الشرائع أم التقاليد، وحين يوردون حلم أفلاطون بالمدينة الفاضلة لا يشيرون إلىٰ إخفاقه وفشله في التطبيق ولكنهم يشيرون إلىٰ أن الفارابي أخذ الفكرة منه.

ثالثاً: مشاهير النساء

وقد دعا أفلاطون إلىٰ تلاقح النساء والرجال بدون تعيين إمراة بعينها لرجل بعينه حتىٰ تمتزج الأنساب ولا يعرف أحد والديه، ولا ينسب الأبناء إلىٰ أب معروف فيتربىٰ الأبناء بدون ولاء إلا لوطنه ودعا إلىٰ العناية بالانتقاء والمفاضلة ولا يسمح للطبقات بالاختلاط الجنسي فلكل طبقة نساؤها ورجالها لا يتعدونها إلىٰ غيرها كما دعا إلىٰ إلغاء الزواج والامتلاك بين طبقتي المقاتلة والأوصياء ولما كان هذا النظام فاسد الوجهة والاسلوب فقد فشل فشلا ذريعا حيث كتب الفشل علىٰ كلا التجربتين اللتين قام بهما، حيث وضع نفسه موضع المشرع الأكبر وأصدر قوانينه وتشريعاته معتمدا علىٰ فكره الذاتي وأهوائه.

وقد كانت غايته: تثبيت الرق، ومنع طبقات الأمة الدنيا من القدرة علىٰ النماء والتحول،

يقول الدكتور حسن الشرقاوي: وقد استعار ماركس تجربة أفلاطون وتصور ماركس أن خطأ أفلاطون يكمن في اعتماده علىٰ طبقة المفكرين الأمر الذي كتب علىٰ مدنيته الفشل في التطبيق ولذلك

استبدل ماركس بطبقة الفلاسفة طبقة العامة وجعلها الطبقة الحاكمة وكفل لها جميع السلطات التي كانت لطبقة الفلاسفة فقد شكل المثلث وجعل القاع هو القمة أما القمة فهي القاع واجتر الفكر الأفلاطوني اجتراراً واهتم بالمعدة أكثر من اهتمامه بالعقل ــ وقد طبق تلميذه (لينين) المنفذ الأول للشيوعية هذه النظرية في روسيا فهل حققت السعادة للانسان.

لقد هبطت الشيوعية بالإنسان إلىٰ الدرك الأسفل وجعلته عبداً للمادة بعد ان كان سيدا كما أفقدته فكره وعقله ودينه جميعا كذلك فقد استعار (هتلر) نظرية سيادة العنصر وجعلها أساس دعوته وفشلت دعوته كما فشلت الشيوعية والجمهورية الأفلاطونية من قبل ويرجع هذا إلىٰ انحراف الإنسان وغروره حين يضع نفسه موضع المشرع الأكبر، محاولا أن يرسم منهجا أو نظاما مخالفا لمنهج الله تبارك وتعالىٰ، وهكذا يتخبط الفكر البشري حين يرىٰ نفسه قادراً علىٰ أن يقلب النظام الرباني وكانت أخطاء أفلاطون كالآتي:

ــ تعصبه لطبقة الفلاسفة وظلم طبقتي الجند والعامة.
ــ معاملة الطبقات الدنيا كالبهائم والحيوان.
ــ إلغاء الأبوة والبنوة.
ــ القضاء علىٰ المريض والمشوه والمعتوه بالموت والتعقيم والنفي.

وقد تابع أرسطو استاذه أفلاطون في مفاهيم الاستعلاء العنصري

للسادة وإقرار الرق والعبودية للطبقات الدنيا.

وقد جاء الإسلام لنقض هذه الفلسفة البشرية الضالة تماما من جميع جوانبها.

الفصل الخامس

أرسطو : بين الفارابي وابن سينا

واجه الفكر الإسلامي نظريات الفكر (الاغريقي — اليوناني — الهليني) مرتين مرة في القرن الثالث الهجري ومرة في القرن الرابع عشر الهجري ففي المرة الأولىٰ عند ترجمته حيث قاوم علماء المسلمين نظريات أرسطو في المنطق وكشفوا زيفها وردوا نظرياته عن الخالق، وعن المادة، وعن ، بعد أن جرى الفارابي وابن سينا شوطا طويلا في قبولها ومحاولة الموائمة بينها وبين مفهوم التوحيد الإسلامي وهي المحاولة التي انتهت إلىٰ فشل ذريع والتي تركت آثارها في مجال الكلام والاعتزال والتصوف الفلسفي وغيره، والمرة الأولىٰ في العصر الحديث عندما تقرر تدريس الفلسفة اليونانية في الجامعات، وجاء المستشرقون ليعلنوا أن الفلسفة العربية هي فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية وعلا صوت لطفي السيد وطه حسين وغيره إلىٰ ما أسموه المعلم الأول (أرسطو) بدعوى انه معلم الفكر الإسلامي، في أكذوبة عريضة لم تثبت علميا ولكنها كانت أشبه بمؤامرة يراد بها ربط المسلمين بمنهج أرسطو التأملي الذي تجاوزته أوربا بقبول منهج التجريب الإسلامي. وكما رفض المسلمون نظرية أرسطو في المنطق فقد نبذو كتابات أرسطو عن الدراما والنماذج التي طاف بها في تراجيدات سوفوكليس واسنجيلوس ويور بيديز وكوميديات اريستوفان واضرابه فقد رأوها

حافلة بالهة تتصارع وأرباب تلهو وتعبث وقدر متربص بالناس أبدا أن يلحق بهم ضروب الأذى، لم يرقهم هذا أبدا فقد كانوا أجيالا مجبولة على نظرة التوحيد ورفض الشرك ولو كان شبهه أو أداة من أدوات صناعة الفن والتجميل وكذلك أسقطت أكذوبة دعاة الفلسفات حيث لم يكن ارسطو معلما للمسلمين يوما من الأيام.

وكما قلنا فلقد رفض الفكر الإسلامي صراحة ومن أول يوم (المنطق الأرسطي) الذي يقوم على القياس والاستدلال النظري وأقام منطقا جديدا معبرا عن خصائصه وهو المنهج الحسي التجريبي واعتبار الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد مجرد امتداد للروح الهلينية في العالم الإسلامي والفكر الإسلامي هو الذي اكتشف بحق المنطق التجريبي وقد عرض الإمام بن تيمية الأسس العقلية المجردة لمنطق أرسطو ورفض القول بالكليات.

وكما رفض المسلمون المنهج القياسي اليوناني فقد رفضوا المفهوم الاقطاعي والاستبدادي الذي عرفته حضارات الرومان والفرس، كذلك فقد رفض الصوفية الهندية والنعوصية وما أخذه من الفرس والروم فهي تنظيمات وليست نظما.

أما في العصر الحديث فقد ركز علماء المسلمين على تكذيب دعوة الفلسفة الإسلامية المرتبطة بالكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد والكشف عن أن محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة التي قاموا بها كانت زائفة. وقد أطلق عليهم علماء المسلمين المشاؤون

المسلمون علىٰ وزن المشائين اليونان.

وإذا كان الإمام ابن تيمية قد حسم موقف المسلمين من مسألة منطق أرسطو فإن عددا كثيرا من العلماء قد سبقه إلىٰ دحض مفتريات الفلسفة اليونانية وكان الإمام الفرابي قد كفر الفلاسفة في ثلاث مسائل هما: انكار علم الله (تبارك وتعالىٰ) بالجزئيات ــ وانكار حشر الأجساد وقولهم بقدم العالم.

وقد أعلن الشيخ مصطفىٰ عبدالرازق بان الفلسفة الإسلامية تتركز في انتاج الأصوليين من علماء أصول الفقه والدين الذين لزموا منهج السلف وذلك قوله «ان أبرز الآراء وأكبرها خطرا القول بان الفلسفة الإسلامية الصحيحة ينبغي التماسها في الفقه الإسلامي، وهذه القضية تناقض تمام المناقضة ما يقول به المستشرقون بان المسلمين عارون من الفلسفة، وان الفلسفة التي دخلت إلىٰ ثقافتهم يونانية ومنهم من يعتبر أن علم الكلام هو أصل الفلسفة الإسلامية وان علم الكلام عند المسلمين مستمد من الفلسفة اليونانية متأثر بها، أما أن الفقه هو أصل الفلسفة الإسلامية فنظرية جديدة لا شك انها ستفتح باب جديدا للبحث والجدل والمناقشة، ويقول الشيخ مصطفىٰ عبدالرازق أن الشافعي هو أول من وضع مصنفا في العلوم الدينية علىٰ منهج علمي ومصنف الشافعي هو الرسالة ورسالة الشافعي تسلك في سرد مباحثها وترتيب أبوابها نسقا مقررا في ذهن مؤلفها قد يميل اطراده أحيانا ويخفي وجه التتابع فيه، ويعرض له الاستطراد أو

يلحقه التكرار والغموض ولكنه علىٰ ذلك كله بداية قوية للتأليف العلمي المنظم في فن يجمع الشافعي لأول مرة عناصره الأولىٰ» أ.هـ.

(كتابه: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ــ ١٩٤٥)

ومنذ أن أعلن الشيخ مصطفىٰ عبدالرازق أن الفلسفة الإسلامية تبدأ بالإمام الشافعي ومن هذا الخط بدأ (علي سامي النشار) ذلك العمل الكبير الذي استطاع أن يحققه، ثم جاء بعده الدكتور محمد محمد حسين فدعا إلىٰ اسلمة الأدب العربي وتحريره من الزيوف والسموم التي حاول طه حسين أن يصبغه بها، ثم جاء الدكتور محمد عبدالله دراز فوضع منهج الأخلاق في القرآن أما الأستاذ حسن البنا فقد فتح الباب أمام الدراسات العصرية للشريعة الإسلامية مقارنة بالقانون الوضعي وهو العمل الذي سار فيه عبدالقادر عودة وعلي علي منصور وتوفيق الشاوي، ومحمود أبو السعود، وعيسىٰ عبده.

ولقد كشف علماء المسلمين أن منطق أرسطو أخفق في التمييز بين الحق والباطل.

وجاءت أوربا في عصر النهضة فأسقطت منطق أرسطو الذي أصبح يطلق عليه المنطق الصوري (أي الذي يجعل كل همه في تكوين صيغ وصور كلامية يعتبرها بمقاييسه وقواعده صحيحة وان خالفت الواقع المحسوس الملموس وعادت البشرية إلىٰ قواعدها

سالمة وهي أن المنطق هو مجموعة من البديهيات والمسلمات في كل عقل تخضع لها العقول السليمة بغير حاجة إلىٰ تعقيدات أرسطو» .

ويرجع تمجيد أرسطو واكباره في الفترة السابقة لعصر النهضة في أوربا هو انه أصبح ـ بمنطقه الصوري ـ موضع تقديس الكنيسة المسيحية حتىٰ أن من كان يجرؤ علىٰ مخالفة رأي من آرائه كان يعرض نفسه للموت وقد كاد أن يكون ذلك نصيب من قال بكروية الأرض لأن أرسطو قال انها مسطحة؛ وتتخذ حكومة جنوب افريقيا ـ كما يروي الأستاذ أحمد حسن ـ من فلسفة ارسطو سندا شرعيا لسياستها العنصرية فهو يتحدث باسهاب عن العبيد وكيف يجب أن يبقوا عبيدا ويجب ألا يفكروا فضلا عن أن يتحرروا علىٰ كونهم عبيدا .

ولقد حاولت كتابات التعربيين (لطفي السيد وطه حسين و سلامة موسىٰ وغيرهم أن تبعث الحياة مرة أخرىٰ في فكر أرسطو بترجمة آثاره والدعوة إليه ، وبالرغم من التيار الذي أنشأه الشيخ مصطفىٰ عبدالرازق فقد ظل خصوم الإسلام يركزون عليه وقد أعلن الفيلسوف اقبال الحذر من سيطرة الفكر الارسطي ، وتحدث كثيرون عن ضرورة مواجهة منطق ارسطو كما فعل ابن تيمية من قبل للعودة إلىٰ الأصالة .

ولم يتوقف الصراع بين أرسطو وأفلاطون علىٰ طول العصور وما يزال أثر هذا الصراع قائما حتىٰ الآن فقد كان أفلاطون

يهدف إلىٰ تنظيم الحياة الاجتماعية أما أرسطو فيرمي إلىٰ إعادة تنظيم المعرفة. كان أفلاطون مثاليا وشاعرا، فإن أرسطو كان عالما تأملياً يصل إلىٰ أصوله بالملاحظة هذا التمزق الذي تعيشه الثقافة الغربية والحضارة الغربية إلىٰ اليوم بدأ مع أرسطو وأفلاطون.

ويقول الدكتور علي سامي النشار في كتابه مناهج البحث عن مفكري الإسلام: ان المنطق اليوناني هو ناشىء عن عبقرية اللغة اليونانية وان من هذا المنطق نشأت الميتافيزيقا الارسطية ولذلك كان من المتعذر نجاحه في العالم الإسلامي وكان لا بد من منطق خاص ينبثق من عبقرية اللغة العربية».

وكذلك فقد رفض علماء الإسلام نظرية الفارابي في المدينة الفاضلة، تعدها الفقهاء: الاعتصام للشاطبي وتبصرة الأحكام لابن فرحون وسبقهما ابن تيمية وابن القيم وقد تبين أن الفارابي تأثر بالمدرسة الفلسفية اليهودية مبتدئا بابن جبرول.

وأن الذين حاولوا أن ينشروا بمدنيته الفاضلة وينقذوها هو القرامطة في مدينة هجر القرمطية وكان حمدان قرمط مؤسس القرامطة صابئيا وكان أكبر تلاميذ الفارابي وقد تأثر الاسماعيلية بالفارابي كما تأثر به مجمع إخوان الصفا.

ومما يؤخذ علىٰ الفارابي تخبطه في كتابه (الجمع بين رأي الحكميين) اعتماداً علىٰ كتب مشوهة لفلسفة كليهما حتىٰ قيل أن لا يعرف ما بين الفلاسفة الثلاث من خلاف.

لقد ظل المنحى الذي سار عليه الفارابي غامضا ومريبا حتىٰ كشف عنه الباحثون من أمثال محسن مهدي في كتابه عن وجهة الفارابي من خلال أبحاثه وصلته بإخوان الصفا ومدرستها الاستشراقية الفارسية عند السهروردي وأثر نظرية الفارابي في كتابات الباطنية.

كما كشف عن ذلك ابن الأزرق في كتابه (بدائع السلك في طبائع الملك) وقد كان علىٰ معرفة تامة بأعمال الفارابي السياسية ــ علىٰ حد ما نشره الدكتور علي سامي النشار (مجلة دراسات فلسفية وأدبية ١٩٧٦) كاشفا عن المنحى الشخصي لحياة الفارابي وفكره وقد قال أنه ولد في الشمال في قبائل التركمان فيما يسمىٰ الآن (تركستان) وقد ذهب من بعد إلىٰ بغداد حيث درس علىٰ (يوحنا بين جيلان) وكانت مدرسة الاسكندرية الفلسفية قد انتقلت من مرو وجند سابور وحران إلىٰ بغداد، نقلها رهبان حيث تلقاها يوحنا بن جيلان، وكان الفارابي أول رجال المدرسة من المسلمين في بغداد وشيخ الافلاطونية الحديثة في العالم الإسلامي، وكانت (صابئة الحرنانية هي الملهم الأكبر لفيلسوف الإسلام الأول: الكندي كما كان لهم أثر كبير في الفيلسوف محمد ابن ابي بكر الرازي: هذه الصابئة الحرنانية الذين كانوا فرقة افلاطونية أساسا، يجند بها نظريا الفارابي ثم يقلدها عمليا (حمدان قرمط) الصابئي الحراني وينقدها أتباعه في مدينة البلاد في هجر، وهكذا يتبين أن الفارابي كان صابئياً حرنانيا ولم يكن تركيا ولا

فارسيا ولا عربيا والصابئة الحرنانين هم من أصل يوناني ويشتغلون بالموسيقىٰ والكيمياء وقد وصفهم المسعودي بأنهم حشوية الفلاسفة وهناك قول انه عربي تعلم علىٰ يد الصائبة وقد قيل هذا عن الكندي، ويتركز أثر الفارابي الحقيقي في علم السياسة وفي الحركة السياسية العنيفة التي كادت تقوض نظام الدولة الإسلامية كله، حيث نجد أن هذا الرجل الذي حاول اتباعه أن ينشئوا مدينة الله لافلاطون في مدينة هجر القرمطية بقيادة حمدان قرمط، وفي كتابه (المدينة الفاضلة) تأثر بافلاطون وأن كان قد أضفىٰ علىٰ رئيس المدينة بعض التصورات الإسلامية وكذلك نقل في بعض كتبه الأخرىٰ، بعد أن تبين له استحالة قيام ميتافيزيق عن طريق اليونان في العالم الإسلامي ويفسر لنا هذا تماما هجوم ابن رشد عليه.

يقول دكتور عمر فروخ: ان الفارابي يجعل السكنى في مدينته الفاضلة مقصورة علىٰ الذين يذهبون مذهبه في التفكير وكان الفارابي من المؤمنين بالفيض أي بان هذا العالم فاض عن الله (وهي نظرية يونانية باطلة) لا يقرها مفهوم الإسلام الصحيح ومن هنا فإن مفهوم الفارابي مخالف في تفاضيله لمفهوم أهل السنة والجماعة قريب من مفاهيم الباطنية والفرق الضالة لأنه يرىٰ أن الخلود روحي وأن الأجسام لاتبعث وانه يرىٰ أن النبوة إنما هي القوة الخيالة، وعن الفارابي أخذ إخوان الصفا الذين يرون أن الأديان ناقصة وانه لا بد من سد نقصها بالفلسفة، وكذلك فإن

مفهوم ابن سينا في النفس مضطرب فهو لا يدري من أين جاءت النفس ولا ما يحدث لها بعض مفارقتها للبدن ويرىٰ أن الحكماء الالهيين يرغبون في خلود غير الخلود الذي جاءت به الأديان.

بل ابن سينا يذهب إلىٰ أبعد من ذلك في معارض الإسلام حين يتحدث عن الله تبارك وتعالىٰ فيطلق عليه اسم (واجب الوجود) أو العلة الأولىٰ أي انه يعتبره مجرد وجود منطقي بلا إرادة وبلا معرفة. وواجب الوجود أو العلة الأولىٰ ليسا من أسماء الله تبارك وتعالىٰ الواردة في القرآن الكريم.

ويسير علىٰ هذا النحو ابن باجة وابن طفيل وابن رشد ويستمدون مفاهيمهم من التفسير اليوناني فابن باجة يرىٰ أن الوجود غير متناه وابن طفيل يجعل الفرد الفائق الفطرة يعلم نفسه ويستغنى بعقله عن النبوة، أما ابن رشد فيرىٰ أنه إذا ظهر خلاف بين ظاهر الفلسفة وظاهر الشرع فعلينا أن نفهم الفلسفة علىٰ ظاهرها وأن نتطلب لظاهر الشرع تأويلا معقولا.

وهذه كلها مفاهيم باطلة في نظر الإسلام.

وإذا كان بعض هؤلاء الفلاسفة قد خالفوا المفهوم اليوناني أو تفسيرات أرسطو في بعض الجزئيات فإنهم قد أخطأوا في الأصول العامة الأساسية وهذا ما يشجب نظرتهم تماما ولا عبرة مما يقال أن ابن رشد خالف أرسطو في صفة العلم الإلهي (حيث جعل الله تعالىٰ تعلم ذاته وتعلم الكائنات خلاف لمذهب أرسطو) فإن ابن رشد من ناحية أخرىٰ يرىٰ أن العالم أزلي ومن ثم فهو أبدي،

كما يرىٰ قدم المادة وهو بذلك يخالف أساسين من أهم أسس الإسلام، كما أن فكرة توفيقه بين الشريعة والفلسفة قامت علىٰ أسس باطلة إذ أن المفهوم الإسلامي هو خضوع المعقول للمنقول، وأن الوحي هو الأساس والعقل خاضع له.

ولا ريب أن اهتمام الغرب في العصر الحديث بالفارابي وابن سينا وابن رشد إنما يرجع إلىٰ سبب واحد هو أن منابع هؤلاء يونانية وليست إسلامية خالصة، ومن ثم فهم قد أعادوا انبعاث الاعتزال والعقلانية والتصوف الفلسفي وأولوا اهتماما بالغا بابن سينا والفارابي من ناحية وبالحلاج وابن عربي من ناحية أخرىٰ فهذه بضاعتهم التي يريدون ترويجها في أفق الإسلام حتىٰ يشككوا المسلمين في هذا العصر في مفهوم أهل السنة والجماعة ومن ثم فقد استطاعوا تجنيد عدد من الكتاب ذوي الأسماء اللامعة للكتابة عن هؤلاء من أمثال العقاد وإبراهيم بيومي مدكور وعثمان أمين.

وهناك ملاحظة هامة هنا فإننا نفرق بين كتابات الفارابي وابن سينا في العلوم التجريبية والرياضية وبين كتابتهم في الفلسفة والمنطق فهذه الأخيرة هي موضع الخطر وان كانت المحاولات الماكرة تحاول أن تستقطب العلوم التجريبية والرياضية للهدف الحقيقي وهو نشر فكر القرامطة والباطنية علىٰ النحو الذي قدمته رسائل إخوان الصفا.

ولا بد من الإشارة إلىٰ الضربة القاصمة التي وجهها الإمام

الغزالي للفلسفة حين كشف أخطاء الفلاسفة المشائين في انكار البعث ومعرفة الله تبارك وتعالىٰ للجزئيات وخطأ القول بقدم العالم.

هذه الضربة التي مازال دعاة التعريب يشيرون إلىٰ آثارها الخطيرة أما الضربة الثانية فتلك التي وجهها ابن تيمية لنظرية المنطق الارسطي الذي قامت عليه من بعد كتابات الفلاسفة والتصوف الفلسفي جميعا (وكان ذلك في مرحلة تالية للدور الذي قام به الشافعي وابن حنبل وعلماء أصول الفقه والدين فقد نقد ابن تيمية الحد الأرسطي والقياس وطريقة الاستدلال الارسطية وقدم منهجا إسلاميا قرآنيا للمنطق مستمد من القرآن والسنة، وهو المنهج الذي أخذه الغرب من بعد ليهاجم به فهم أرسطو، وان أهمية ابن تيمية لم تكن قاصرة علىٰ اسبقيته لمفكري الغرب في نقد المنطق التقليدي نقدا علميا موضوعيا بل تتعدى ذلك (كما تقول صاحبة رسالة المنطق عن ابن تيمية التي نوقشت أخيراً (عفاف عبدالعزيز الغمري) إلىٰ انه فتح طريقا جديدا لنفذ المنطق القديم سار فيه بعض مفكري الإسلام منذ ابن القيم والصنعاني والسيوطي.

الفصل السادس
مواجهة الفلسفة اليونانية

تصدى علماء المسلمين في القرن الرابع عشر الهجري وبعد أن اتسع نطاق التعريب وتوالت مؤامرات الاستشراق لفرض مفاهيم الفكر اليوناني والفلسفات ومفاهيم التصوف الفلسفي والفكر الباطني من خلال إعادة احياء مقررات هذا الفكر وكانت الدعوة تحمل طابع المراوغة بالقول الباطل أن المسلمين والعرب في القديم قبلوا هذا الفكر ــ وهذا لم يحدث ــ ولذلك فإن علىٰ المسلمين اليوم أن يقبلوا نتاجه الممثل في الفكر الغربي المادي.

وكان المسلمون قد دحضوا كل شبهات الفكر اليوناني وتبين اضطراب الترجمات من اليونانية إلىٰ العربية كما تبين دور النساطرة في بث دعواهم من داخل الترجمات، كذلك تبين دور الفارابي وابن سينا في خدمة الباطنية والقرامطة.

ويشير الدكتور عمر فروخ إلىٰ أن التجريب الإسلامي كان عاملا حاسما في كشف فساد المسلمات الباطلة التي قدمها الفكر اليوناني وارسطو بالذات الذي أحصىٰ عليه أكثر من عشرين مفهوما خاطئا عن الدارسين الذين يحبون أرسطو
كقوله مثلا: إذا ألقي جسمان من مكان عال فإن الأثقل منهما يصل إلىٰ الأرض أولا
ــ ليس للنبات أعضاء تذكير وأعضاء تأنيث.

ـــ الكواكب مساكن للالهة.

ـــ الماء والهواء والتراب والنار عناصر.

وقد ثبت منذ زمن بعيد في علم الطبيعيات من الفيزياء والكيمياء وفي علم الفلك والجغرافيا وفي علم النبات أن هذه أخطاء

أما في العلوم الاجتماعية كالسياسة أو في العلوم المطلقة فنجد كثيرين من المفكرين يخالفون أرسطو في كثير من آرائه.

وقد أدرك الإمام الغزالي هذه المشكلة في كتابه (تهافت الفلاسفة) فقال:

إن المترجمين لكلام (أرسطوطاليس) لم ينفك كلامهم عن تحريف وتبديل مموج إلىٰ تفسير وتأويل حتىٰ أثار ذلك أيضا نزاعا بينهم وفهم الغزالي الترجمة فهما خاصا حينما قال (وأقومهم بالنقل والتحقيق من المتفلسفة في الإسلام: الفارابي أبو نصر وابن سينا فيقتصر علىٰ ابطال ما اختاروه ورأوه صحيحا من مذهب رؤسائهم في الضلال، أما ما هجروه واستنكفوه من المتابعة (أي ما تركوه ولم يأخذوا به) فلا يتمارى (لا يشك أحد) في اختلاله ثم هو لا يفتقر إلىٰ نظر طويل في ابطال أن الفارابي وابن سينا عند الغزالي ناقلان، نقلا آراء اليونان إلىٰ العرب وان هما لم يتوليا نقل تلك الآراء من اللغة اليونانية إلىٰ اللغة العربية.

ثم تأتي إلىٰ (السفسطة) وهي مذهب في التفلسف عند اليونان رأى ابن رشد أن أصحابهما معاندون جبناء مشعوذون

يأتون بكلام لا معنىٰ له (تهافت التهافت) ويرىٰ ابن رشد أن السفسطائيين يقتصرون عند البحث علىٰ جانب واحد من الأمور ثم هم ينقلون القضية من مسألة إلىٰ مسألة ويجادلون في أمور لا تحتمل الجدال وجدالهم ذلك لا معنىٰ له.

(٢) وأخطأ معظم فلاسفة اليونان وارسطو منهم في القول — يقول الدكتور عمر فروخ بان العالم مؤلف من أربعة عناصر هي المادة والماء والتراب والنار وفي القول بان الماء ينقلب ترابا والتراب ينقلب ماء أو هواء وان الهواء ينقلب ماء، وكلنا يعرف اليوم أن الماء والهواء والتراب والنار ليست عناصر بل مركبات وكان أرسطو أسوأ القائلين بذلك، وقد فند بعض المفكرين اليونانيين هذا القول وقالوا بالنظرية الذرية يغرب ما يقال في العلم اليوم، ولكن أرسطو أصر بعد ذلك علىٰ رأيه وقد أدرك المسلمون والعرب خطأً هذا.

(٣) وفي الفلك مجال كبير للخطأ، فالنجوم بعيدة عنا وللمنال منها مدخل كبير، ولقد كان لليونان في الفلك جهود ثمينة، ولكن تلك الجهود ظلت حائرة بين العلم والخرافة، أما العلم ففي قولهم أن الأرض كرة، وانها تدور علىٰ نفسها، وانها في فلك حول الشمس، أما الخرافة فكانت في قول جمهورهم أن الأرض ثانية في مركز النظام الشمسي وأن المتحرك فهو الشمس والقمر والنجوم، ثم قالوا ان الأجرام السماوية كائنات بريئة من النقص ولا يجري عليها (الكون والفساد) أي لا تنشأ ولا تتبدل ولا تفنىٰ!

وانها مساكن للالهة وأن لها نفوسا تحركها وأن لها عقولا تعرف

بها الغيب فتلقي ببعض ما تعرف من الغيب إلىٰ نفر من البشر.

وكان أرسطو من أنصار الخرافة في النظر إلىٰ النجوم فلقد أصر علىٰ أن تكون الأرض ثابتة وان النجوم مساكن للالهة وعلىٰ أنها تعرف الغيب.

ولما جاء الإسلام حسم معظم هذه الأمور فقد أبطل التنجيم فكان ذلك حسما للجدال الأول. وجاء ابن حزم الأندلسي (٤٥٦ هـ) فأعلن أن النجوم أجسام حجرية وانها لا نفوس لها تحيى بها ولا عقول لها تفكر بها وهي لا تعلم الغيب وكان رده علىٰ القدماء عنيف جدا.

وفي دوران الأرض من الناحية العملية قام السجستاني يصنع الاصطرلاب الزورقي المبني علىٰ أن الأرض متحركة تدور علىٰ محورها وأن الفلك بما فيه ما عدا الكواكب السبعة السيارة ثابتة، ثم جاء القزويني (المتوفي ٦٨٢ هـ) فقال (والأرض متحركة دائما علىٰ الاستدارة التي نراه من دوران الفلك إنما هو من أثر دوران الأرض علىٰ نفسها لا دوران الكواكب).

وكان بطليموس قد سمى الكواكب: (الكواكب المتحدة) فاخترع الأفلاك المتداخلة وقد أدرك ابن طفيل الأندلسي (٥٨١ هـ) أن نظام بطليموس خطأ فأشار علىٰ تلميذه نور الدين البطروجي بالعمل علىٰ إصلاح هذا النظام غير اننا لا نعرف ان كان البطروجي قد فعل ذلك أم لم يفعله.

وكان جالينوس قد قال (ان الشمس لا تقبل الانعدام) وقد رد حجة الإسلام الغزالي علىٰ جالينوس في هذا رداً عاقلا علىٰ ناحيتين: فمن ناحية علمية فلكية قال الغزالي أن المدة التي ذكرها جالينوس ليست كافية في مثل هذا الأمر فالشمس وحجمها (مائة وسبعون مرة قدر حجم الأرض) ولو نقص منها مقدار جبال لمابان ذلك للحس في الزمن الذي هو حياة الإنسان علىٰ الأرض، ثم يقول الغزالي: ولعله قد نقص من الشمس مقدار كبير ولكن الحس لا يستطيع تقديره، وتقدير ذلك لا يعرف إلا بعلم المناظر أو البصريات ثم لا يعرف ذلك إلا بالتقريب.

وقد اهتم اليونان الذين قالوا بكروية الأرض بان تقيسوا محيط الأرض وقد بذلوا جهوداً كبيرة ولكن مقاييسهم كانت بعيدة جدا عن الصواب.

وقد قام المسلمون باجراء تجارب جديدة وكانت دقيقة جدا لا تختلف عن المقاييس الحالية أكثر من بضعة وعشرين كيلو مترا.

كما أعلن قدماء اليونان مقياس السنة الشمسي، ولم يرض المسلمون بهذه الأرقام التي جاء بها اليونان فقام ثابت بن قرة بحسبان ذلك فبلغ ٣٦٥ يوما وربع يوم وعشر دقائق وعشر ثوان وهو رقم يزيد علىٰ القياس الحالي بأقل من نصف ثانية ثم جاء عمر الخيام فوصل بالحساب إلىٰ أن يصحح السنة الشمسية بان زاد ثمانية أيام علىٰ كل ثلاث وثلاثين سنة فظل الخطأ حول السنة الشمسية يوما واحداً في كل خمسة آلاف سنة» ا.هـ.

وهكذا نرى كيف كانت مواجهة الفلسفة اليونانية قديما وحديثا تكشف عن أصالة الإسلام وزيف ركام الفكر البشري في عصر طفولة البشرية وسقوط التيجان الوهمية من فوق رءوس الضلال أمثال: أرسطو وأفلاطون وأشياعهما ابن سينا والفارابي ومن هذه الجولة تتبين الحقائق الآتية:

أولا: انكشف عمق الخلاف بين العقليتين الإسلامية واليونانية، وان فلسفة أمة من الأمم لا تخرج عن دائرة السنة التي تضعها هذه الأمة ومن خرج علىٰ هذه السنة لفظ حتىٰ في دائرتها ولم يعد يمثل سوىٰ فكره الذاتي وهذا ما حدث لفلاسفة الإسلامية.

ثانيــــاً: ان ما كتبه الفارابي وابن سينا وغيرهما هي فلسفة مشائية في كلياتها وجزئياتها، وقد تكشف أن العقل اليوناني يختلف تماما عن العقل الإسلامي وأن المسلمين قد رفضوا رفضا قاطعا (المنطق الأرسطي) وان لهم منطقا تجريبيا، في علم أصول الفقه خاصة يعتمد علىٰ المنهج التجريبي الذي نسب خطأً إلىٰ فرنسيس بيكون، وحيث يعتمد المسلمون علىٰ المنهج التجريبي فإن حضارة اليونان تعتمد علىٰ المنهج القياسي.

ثالثــــاً: إنه منذ بدأت الأقطار الدخيلة تقتحم حمى الإسلام

في أواخر القرن الثاني الهجري كان موقف الإسلام منها واضحا ويمثله موقف الإمام أحمد بن حنيل في مسألة خلق القرآن، وقد ظل المنهج التجريبي هو الممثل للروح الإسلامية الحق، وقد ظل الفكر الإسلامي يرفض الآراء الدخيلة حتىٰ ما اصطنعه المتكلمون من آراء عقلية لتأييد مذاهبهم وموقف الإمام الشافعي من علم الكلام واضحا كموقف الإمام أحمد بن حنبل من فتنة خلق القرآن (دكتور عبدالوهاب أبو النور).

رابعــــاً: الفلسفة المسماة بالفلسفة الإسلامية ليست من خواص الإنتاج الفكري للمسلمين وإنما هي من مسايرة للتفكير الفلسفي اليوناني تماما فقد كانت في حقيقتها محاولة (الفارابي ــ الكندي ــ ابن سينا) للتوفيق بين ما قالته اليونان بصفة خاصة في فلسفتهم وما نزلت به العقيدة الإسلامية من شرائع وعقائد.

وهي محاولة فشلت لأسباب كثيرة وأهمها فساد النصوص، وفساد نسبة النصوص إلىٰ أصحابها، وغلبة فكرة العقل علىٰ النقل..

وهناك محاولة جديدة اليوم ترمي إلىٰ مثل هذا التوفيق أو التلفيق للربط بين الفلسفات المعاصرة والفكر الإسلامي.

خامســاً: تبين فساد التقسيم الذي قدمه (الفارابي) في كتابه

احصاء العلوم حين قسم العلوم إلىٰ عقلية ونقلية كان الأولى للبس منها للنقل مجال وكان الثانية ليس فيها للعقل دور وكلا الفرضين خطأ، وقد كان مراد الفارابي ومن تبعه من المفكرين المتأثرين بمنطق الاغريق الدفاع عن الفلسفة وذلك بالطعن في العلوم الدينية والادعاء بانها لا تقوم علىٰ اعتبارات عقلية بل علىٰ معطيات مستمدة من الوحي والدين وبما أن هذه المعطيات لا يجوز الشك فيها فهي إذا غير عقلية غير منطقية غير نقدية، غير لازمة وكل ما بني عليها مشكوك فيه، أما العلوم العقلية فهي لدىٰ الفارابي ومن نحا نحوه تقوم علىٰ معطيات العقل والحس وكلاهما نقدي قابل للشك وبالتالي للمراجعة والتصحيح، وأهم هذا النوع من العلوم العقلية هو طبعا (الفلسفة) فالدفاع عن الفلسفة هو بيت القصيد ذلك انها كانت منذ البداية متهمة من قبل الإسلام بانها تناقض مع ما جمع عليه السلف من اعتقاد بالله والقدر واليوم الآخر والخلق والقرآن الكريم وانها تأخذ بآراء ميتافيزيقية مستهجنة ومنهم من رمى الفلاسفة بالزندقة والكفر (اسماعيل راجي الفاروقي).

سادساً: كان موقف علماء أهل السنة والجماعة حاسما في نقد الفلسفة اليونانية و (الفلسفة بصفة عامة) وتنحيتها

عن مكان الصدارة التي وضعه منها المستشرقون وارجاعها إلىٰ المكان الثانوي الذي تستحقه بالنسبة إلىٰ التراث الفكر ككل.

وهذا ما قام به الإمام ابن تيمية فقد وضع (العلوم الشرعية) في مكان الصدارة بعد أن ميز ناحيتها الأصولية والتطبيقية فعلم أصول الفقه وعلم أصول الدين علمان عقليان نقديان يتحريان الحقيقة ويوصلان إليها لا تقل عقلانيتهما ونقديتهما عن أي فلسفة، عن أي علم طبيعي أو رياضي وتراثهما هو التراث المنهجي المجرد في الفكر الإسلامي وهو الأجود والأعظم وهو الخط الذي سار عليه الشيخ مصطفىٰ عبدالرازق واغزر تلاميذه (علي سامي النشار) الذي تابع منهجه في احصاء العلوم ونقد المنطق الارسطي واحلال المنطق اللغوي العربي مكانه واعتبار الفكر الأصولي بمثابة الرأس والمنهج للتراث الفكري الإسلامي كله».

الباب الثاني
بين الأديان السماوية والفلسفات

الفصل الأول
الأديان السماوية والفلسفات

حقيقتان نقدمهما في مقدمة هذا الفصل يلقيان الضوء الكاشف علىٰ العلاقة بين الأديان السماوية والفلسفات البشرية التي لعبت بها الأهواء من خلال اليهودية والمسيحية حين انتقلت إلىٰ الغرب وإلىٰ محيط الدولة الرومانية حيث ظهرت فلسفات اليونان (أفلاطون وأرسطو) ثم الافلاطونية المحدثة).

الحقيقة الأولىٰ: كانت حكمة الله تبارك وتعالىٰ أن تتوالىٰ رسالات السماء مع تطور البشرية وارتقاء العقل البشري حتىٰ وصل إلىٰ غاية قدم له معها رسالة جامعة هي الإسلام وكتابه القرآن ورسوله محمد ﷺ خاتم الرسالات والكتب والنبيين ومن أجل ذلك اشارت الكتب السابقة وأخذ العهد علىٰ الأنبياء السابقون لها إلىٰ أن الغاية لا تتحقق إلا بمجيء الدين الخاتم وأن كل الدعوات والنبوات هي مقدمات له، وأخذ العهد علىٰ الأنبياء انه

إذا جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم أن يتبعوه وينصرونه وقد سجلت الكتب السماوية: وفي مقدمتها التوراة والإنجيل هذه الحقيقة وصفه النبي محمد ﷺ حتىٰ قال النبي ﷺ: لو كان موسىٰ حيا لما وسعه إلا أن يتبعني.

الحقيقة الثانية: إن بني اسرائيل لم يستجيبوا بدعوة الأنبياء المتتالية عليهم بل حاربوها ولذلك فقد نقل الله تبارك وتعالىٰ الملك والنبوة إلىٰ أبناء اسماعيل وكشف عن أن بني اسرائيل عجزوا عن حمل الأمانة وأفسدوا في الأرض وأعطىٰ الله تبارك وتعالىٰ ملكا عظيما لآل إبراهيم وكان وعده في القرآن لإبراهيم وذريته إسماعيل واسحاق وليس لاسحق وحده كما يدعي اليهود وقد جاء اسراء النبي ﷺ إلىٰ بيت المقدس وصلاته بالأنبياء والرسل قاطبة أمالا دليلا علىٰ أمرين (١) علىٰ انه أمير الأنبياء (٢) علىٰ أن الإسلام ورث ما كان في يد الأنبياء من قبل.

وقد أعلن الله تبارك وتعالىٰ عن اختيار الأمة الخاتمة

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

ومن هنا فإن كثيرا ما يتردد علىٰ أقلام المؤرخين والكتاب يحتاج إلىٰ إشارة واضحة

أولاً :أن ما لدى المصريين من آثار التوحيد والبعث هو من بقايا دين ادريس عليه السلام الذي ظهر في مصر وعلم الناس الكتابة بالقلم ودعاهم إلىٰ الواحد الأحد فقد عرف المصريون (الله تبارك وتعالىٰ) قبل أن يعرفوا آمون وأزوريس وبتاح وآتون ، ولم يكن اخناتون موحداً بمفهوم الإسلام ولكنه وحد عبادة الوثن وجعلها في الشمس (وقال الله تعالىٰ

﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾

ثانيــــاً : كذلك فإن كل ما لدى العرب في الجزيرة العربية في الجاهلية من كرم وخلق وسماحة هو من آثار دعوة التوحيد : الحنيفية الإبراهيمية وقد عاش الأحناف يتوارثون عقيدتهم حتىٰ جاء محمد ﷺ.
ويختلف مفهوم الإسلام عن مفاهيم الكتب المقدسة والقديمة ومفاهيم الهندوسية والبوذية والمهبراتا والفيديا .. الخ وما تضمه من مفاهيم حول أصل الكون وخلق الإنسان فهو من مصدر رباني لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.
ومن هنا فإن النظريات الاجتماعية التي تتحدث عن

أصل الأديان: مثل الخوف البدائي والرهبة من قوى الطبيعة الغامضة وتجسيد تلك القوى، أو نظريات علم النفس المتعلقة بالدين (مثل صورة الأب التي يتم تجسيدها في الله) لا تنطبق علىٰ المسلمين، ان المسلم لا يبحث عن شيء مهدي ليقلل من مخاوفه أو ليشرح الأشياء، ولكنه يؤمن إيمانا قويا بالحقيقة العظمىٰ، حقيقة الله والتوحد به ويضحي أيضا بحياته في سبيل هذه الحقيقة.

كذلك فقد انهارت في الغرب الرؤية المسيحية للعالم التي تقوم علىٰ أساس الاعتقاد بان الله الأب قد أحب البشر إلىٰ درجة كبيرة حتىٰ انه أرسل إليهم ابنه الوحيد، انهارت هذه النظرية عندما اكتشف جاليلو لأول مرة الحقيقة التي كان يعرفها العالم الإسلامي لقرون عديدة وهي أن الأرض تعد مجرد كوكب صغير يدور حول الشمس، وعندما كشفت الملاحظات الفلكية فيما بعد حقيقة انه حتى النظام الشمسي ليس بأكثر من ذرة صغيرة في الكون الالهي الواسع الذي يحتوي علىٰ ملايين من المجرات والبلايين من النجوم ان الإنسان، بل في الحقيقة الأرض باكملها، لم تكن لها تلك الأهمية عند الله وان المسيحي الذي درس العلوم لا يجد أمامه سوى اختيارين.

(١) اما أن يرفض المسيحية ويحاول تكوين نظرة موحدة للكون بدون الدين.

(٢) واما أن يصبح شخصا ممزقا يؤمن بمعتقداته سرًا ولكنه يتصرف علانية وكأن تلك المعتقدات لا تتوافق مع الحياة الواقعة وقد وصل الأمر في النهاية أن معظم الناس في روسيا ودول أوربا الشرقية رفضوا المسيحية كلية واستعاضوا عنها بالفلسفة المادية: التي تمثل علمية زائفة قام هيجل وماركس بوضعها.

وقد اختار آخرون الأسلوب الثاني.

وبتحليل ذلك التمزق الروحي للإنسان الغربي كتب (جوليان هكسلي) قائلاً: ان مثلنا العليا الغربية تكون عرضة للهجوم لانها غير موحدة بما فيه الكفاية، حتى تكون لديها أي قوة دافعة حقيقية (ان حريتها تكمن في حريتها ومقاومتها للدكتاتورية البهيمية) ولكن طالما يستمر انشقاقها إلى قسمين بين الطبيعي والخارق — بين الله والبشر، بين المادة والروح، فسوف تظل معركتنا الغربية تعاني من انفصام بكل ما تعنيه تلك الكلمة وسوف تفشل مثلنا العليا في تزويد القوة الفعالة للقيام بعمل هادف حقيقي.

(جوليان هكسلي: كتابه دين بلا وحي (١٩٥٧)

ان حل هكسلي لهذه المشكلة هو إيجاد دين بدون الهة وذلك ما يسميه بالفلسفة الانسانية المتطورة.

وما حدث للمسيحية في روسيا، حدث للبوذية في الصين، وللطاوية في اليابان وبدون شك: أن الهندوسية في الهند ينتظرها نفس المصير فإن ظهور الحقيقة ليس من الممكن صده، وأن الالهة والافكار والمذاهب والأديان الزائفة من المحتم أن تتلاشى» (دكتور م.م صديقي).

كيف واجه الفكر الغربي المسيحي معطيات العلم التجريبي الإسلامي ؟

كان الإسلام سمحا كريما في العطاء العلمي فإنه لم يقفل أبوابه علىٰ أهله ولكنه سمح لأهل أوربا الذين رغبوا في الالتحاق بالجامعات الإسلامية في الأندلس (جامعات بلنسية وقرطبة و) بتعلم علوم الإسلام وقد جاء الأوربيون المسيحيون من مختلف أنحاء أوربا يدرسون في الجامعات الإسلامية في الأندلس قبل سقوطها وقد شهد كثير من أعلام الفكر الغربي بالعطاء الإسلامي الذي نقل الفكر الأوربي من منهج أرسطو التأملي النظري إلىٰ منهج الإسلامي التجريبي الذي كان نواة الحضارة المعاصرة ثم كان أن سيطر الغربيون علىٰ هذه الجامعات بعد خروج الحكم الإسلامي علىٰ الأندلس، ومهما كان موقف الغرب من هذه القضية الأساسية وادعائهم أن المسلمين لم يقدموا لهم شيئا فإن العلماء المنصفين الذين جاءوا بعد ذلك كشفوا هذه الحقيقة وحاولوا رد اعتبار العطاء الإسلامي غير أن تجربة الغرب مع التجريب الإسلامي لم تكن سهلة ولا يسيرة فإنها واجهت مخاطر كثيرة وحاربتها الكنيسة حربا

عنيفة، وقاومت الذين اعتنقوا مفاهيمها من الغربيين وقدمتهم إلىٰ محاكم التفتيش من أمثال جليلو وكوبرناكيس ذلك أن الكنيسة وجدت في علوم التجريب الإسلامية ما يناقض ما جاء في الكتاب المقدس وفي سفر التكوين بالذات عن خلق الكون وعمر الأرض ولذلك فقد تلفق الغرب نظرية دارون واعتنقها وحاول أن يفرضها علىٰ مناهج التعليم حتىٰ في بلاد المسلمين أنفسهم بهدف الوقوف أمام نظرية الخلق الإسلامية التي جاء بها القرآن. وقد تصاعدت الخلافات بين رجال الكنيسة دين علماء الغرب إلىٰ حد انتهىٰ وقوف العلماء موقف الخصومة التامة للمسيحية ثم للدين بصفة عامة ومن ثم كانت دعوتهم إلىٰ دين البشرية وإلىٰ نظريات الأخلاق المنفصلة عن الدين وانكار الوحي والنبوة ورسالات السماء جملة،

هذه المفاهيم مع العلم التجريبي وقد كانت المعركة مع مفهوم المسيحية الذي قدمه القديس بولس وليس مع مفهوم المسيحية الذي جاء به السيد المسيح ومن هنا فإن المعركة التي عرفتها أوربا ضد الدين والتي قادها من بعد ماركس وانجلر لم تكن في الحقيقة موجهة لمفهوم عام وإنما كانت موجهة للمسيحية الغربية في صراعها مع العلم التجريبي من ناحية ومع مفاهيم اليهودية وغيرها

إن مفاهيم العلوم الإسلامية التي فتحت أمام علماء أوربا حقائق جديدة مخالفة لما جاء في الكتاب المقدس وأهمها (دوران الأرض) فقد كانت مفاهيم الكنيسة عن الكون مستمدة من نظريات بطليموس وفيثاغورس فجاء التجريد والعالم الإسلامي فأثبت خطأها. ولكن الآباء المسيحيون أصروا علىٰ صحتها ومنعوا مناقشتها، كانت نظرة رجال الدين إلىٰ اجرام السماء مختلفة، وانها كائنات حية، وقيل انها موطن الملائكة وقيل أن النجوم كائنات روحية وان السماء قبة صلبة تحيط بالأرض والأجسام السماوية مصابيح معلقة في السماء، وجاء العلم ليقرر غير ذلك.

ثم كان لمفاهيم الإسلام أثرها في اسقاط مفهوم الكنيسة من انها هي الصلة الوحيدة بين الله والانسان وبانه لا يصل إلىٰ الله دعاء ولا صلاة ولا استغفار إلا عن طريق الكنيسة ورجالها.

وجاءت محاولة الإصلاح الديني التي قام بها مارتن لوثر وكلفن لمعارضة بيع صكوك الغفران واعتبار ذلك وسيلة مشروعة للثراء وقال كلفن ان العلاقة بين الله والإنسان علاقة مباشرة وانه ليس لرأس بشري حرمة التقديس وهكذا كان للإسلام أثره في تحرير العقل البشري من تعاليم القرون الوسطىٰ التي كانت تحرم علىٰ المسيحيين التذود بالعلوم الطبيعية والتجريبية.

واليوم يتراجع الفاتيكان نحو الحكم علىٰ جاليلو وكوبرنيكيس اعترافا بالمنجزات التي قدمها الإسلام، كما نجد اعترافا صريحا من

مجمع الأساقفة في الفاتيكان بفضل الدين الإسلامي في (فهم وتذوق تراث المسيحية بشكل أفضل).

ويقرر المطران جورج خصر: أن الإسلام هو الذي اعتق المسيحية من الاضطهاد وأن الحكم الإسلامي أنصف المعتنقين للأديان الأخرىٰ وجعلهم أهل الذمة.

جاءت المسيحية مكملة لدين موسىٰ عليه السلام (مرتبطة بالنظام الموسوي والتشريع الذي جاءت به التوراة، وقد كانت نظاما خاصا بالأخلاق والتسامح ليكسر حدة المجتمع اليهودي المادي، ولذلك فإنها منذ انفصلت ودعا بولس بها إلىٰ دين عالمي كانت في حاجة إلىٰ نظام اجتماعي خاص بها، وكان لهذا التحول محاذيره ومخاطره فقد أخذت المسيحية بعض أفكار الأديان الوثنية الموجودة في بيئة الدولة الرومانية لتكسب اتباعا لها، وكأنما بدت اليهودية وهي تحمل مفاهيم المادية الخالصة بينما تحمل المسيحية مفاهيم الروحية الخالصة، ثم جاء الإسلام يجمع بين المادة والروح ولذلك نجد القرآن ينعي علىٰ بني اسرائيل اهمام القيم والروحانيات وينعي علىٰ أهل الانجيل انهم اهملوا الدنيا واقرأوا إذا شئتم ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ الآية (سورة الفتح).

وعندما عبرت المسيحية إلىٰ أوربا فرضت علىٰ الناس بقوة السلطة الوثنية الرومانية حين اتخذها (قسطنطين) نظاما للحكم وقد وقعت في وجه الترف الروماني برهبانية عاتية وانعزالية قامت علىٰ تعذيب الجسم وتحريم ما أحل الله من الطيبات ثم بدأ

الرهبان في تسخير الكنيسة لغاياتهم الشخصية، ثم بدا صراع الكنيسة مع الأباطرة والملوك.

يقول داربر في كتابه (النزاع بين الدين والعلم):

لقد دخلت الوثنية والشرك في النصرانية عن طريق من تظاهروا بالنصرانية رياء وكذبا ليتقلدوا المناصب العالية في الدولة الرومانية دون أن يؤمنوا بها وقد فعل ذلك الامبراطور قسطنطين الذي اعتنق النصرانية ولم يتخل عما اعتاد من ظلم وفجور، لقد اعتنق النصرانية مرغما بعد ان دفعته إلىٰ العرش آملا أن يتقيد بأوامرها ويساعد علىٰ انتشارها ويقضي علىٰ جرثومة الوثنية الرومانية وكانت نتيجة ذلك الصراع أن امتزجت مبادئ‌ء المسيحية وقيمها ببقايا تلك الوثنية ونشأ عن ذلك الامتزاج دين جديد: هو خليط من المسيحية الأصلية والوثنيات اليونانية والرومانية» لقد عمل قسطنطين جاهدا بغية توطيد ملكه للتأليف بين الفريقين المتضادين بين الوثنية والنصرانية دون أن يحتفل احتفالا صادقا بحقيقة الدين وحسب المسيحيون أن قبولهم بهذا الوضع انما هو قبول مرحلي لا محيد عنه وان المسيحية أن تنجو آخر الأمر من رجس الوثنية، أن المسيحية دين سماوي ولكنها بزغت عقيدة مكملة لليهودية ومصححة لها كثورة اجتماعية أخلاقية في مجتمع يهودي فاسد ولهذا جعلت شريعتها الأساسية (التوراة) مع تعديلات طفيفة نزلت في الانجيل لهذا كان من المفهوم الطبيعي للمسيحية أن تحكم بشريعة الله المنزلة في التوراة الأصلية مع

مراعاة التعديلات الواردة في الإنجيل غير أن الذي حدث بالفعل لم يكن كذلك فقد انتقلت المسيحية من المجتمع اليهودي إلىٰ المجتمع الروماني وظل القانون الروماني مطبقا بجاهليته ووثنياته ولما بدا الصراع بين الدين والحياة قضت الكنيسة بممارسة سلطانها علىٰ القلوب والمشاعر بينما يمارس القانون الروماني سلطاته في واقع الحياة.

كان لهذا الخليط الذي تشكل من الفكر الروماني والفكر المسيحي أثره في ظهور مجموعة من المفاهيم التي اضطربت بها الحياة في مقدمتها عقيدة التثليث التي لم تكن تعرفها الأجيال الأولىٰ للمسيحية وهي عقيدة كانت سائدة في المجتمعات الوثنية (أول من نادى بها ترتليان في القرن الثاني الميلادي فهي دخيلة علىٰ النصرانية الحقة الموحدة وكانت قد غلبت علىٰ كثير من الديانات التي سبقت النصرانية ففي الهند ــ الثالوث البرهمي (براهما وفيشنو وسيفا).

وفي الديانة اليهودية: الثالوث البوذي الاله (الترفانا ــ بوذا الابن، الروح القدس.

وفي بلاد الصين الثالوث الصيني (تي ين) الاله المتطور، وتي سميز (الشمس) وتشانج (وهو أرواح الآباء والحكماء).

وفي بلاد الكلدان: الثالوث المكون من بعل (اله الشمس) وعشتروت (اله الجمال) وتموز (اله الخصب والنماء).

وفي الفرعونية (آتون ـــ آمون ـــ رع) الوجود والحكمة والحياة (عن بحث الأستاذ محمد عزت الطهطاوي).

وفي (قاموس الكتاب المقدس) ما يلي:
«اعترف كبار علماء اللاهوت أن كلمة التثليث لم ترد في الكتاب المقدس ويظن أن أول من صاغها واخترعها واستعملها هو (ترتليان) في القرن الثاني للميلاد وقد خالفه كثيرون ولكن مجمع نيقة أقر التثليث ٣٢٥ م ثم استقر التثليث بعد ذلك عند الكنائس النصرانية علىٰ يد اوغسطيوس في القرن الخامس الميلادي».

ويقول ادولف هرنك أستاذ تاريخ الكنيسة في جامعة برلين:
[إن صفة التثليث هذه التي تتكلم عن الأب والابن والروح القدس غريب ذكرها علىٰ لسان المسيح ولم يكن لها وجود في عصر الرسل وهو الشئ الذي كانت تبقى جديرة لو أنها صدرت عن المسيح شخصيا]

والمعروف أن آريوس وأصحابه الموحدين وقفوا ضد فكرة التثليث أكثر من نصف قرن (٣٢٥ إلىٰ ٣٧٩ م) حتىٰ تغلب عليهم اثناسيوس الذي ثبت التثليث عام ٣٧٩ وقد عاش الموحدون اتباع آريوس إلىٰ عصر النبوة وقد ذكرهم الرسول في خطابه إلىٰ هرقل امبراطور الدولة الرومانية.

(أني أدعوك بدعاية الإسلام : اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين
فإن توليت فإنما عليك اثم الاريسين) الخ هؤلاء الاريسيون هم اتباع اريوس وأنصار عقيدة التوحيد المجرد التي دعا إليها السيد المسيح عليه السلام وحواريوه المخلصون والذين غلبوا علىٰ أمرهم.

وتعد فكرة التثليث من أخطر العوامل التي هزت العقيدة المسيحية ولا تزال بعيدة الاثر إلىٰ الآن فقد قامت علىٰ فلسفة وثنية قديمة لا يقبلها العقل هي الخطيئة والفداء. فقد جاء السيد المسيح وصلب تكفيرا عن خطيئة سيدنا آدم بعصيانه الله تبارك وتعالىٰ فهم يقولون أن السيد المسيح جاء ليفتدي البشر من خطيئة آدم وهي عقيدة وثنية قديمة وقد كشف القرآن حقيقة هذه القضية بان آدم عصى ربه حين أكل من الشجرة ولكنه تاب إلىٰ الله فتاب الله عليه ولم يعد هناك خطيئة حيث لا يقر الإسلام انتقال خطيئة أحد إلىٰ الآخرين (ولا تزر وازرة وزر أخرى).

كذلك لا يقر الإسلام نظرية (الأب والابن والروح القدس) فالسيد المسيح عبدالله ورسوله وان الله تبارك وتعالىٰ جل شأنه

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾

أما صلب المسيح فهي دعوى باطلة فقد قرر القرآن أنه لم يحدث

(وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ)

أما الصلب فقد كان شعاراً وثنيا في الأصل وشاع استعمال في معظم بلدان الشرق الوثنية ولم يتخذ المسيحيون الصليب شعاراً رسميا إلا في أوائل القرن الرابع بعد الميلاد .

وقد جمعت المسيحية في تحولها الذي قام به بولس مجموعة من الأفكار الباطلة التي أخرجتها من مفهوم الدين المنزل :

أولها : الخطيئة . ثانياً : الرهبانة . ثالثاً : التثليث .

(١) أما بالنسبة للخطيئة فقد قرر الإسلام أن الإنسان مسئول عن عمله وليس عليه أن يتحمل خطيئة أحد ، وليست هناك خطيئة لأحد مهما كان تنسحب علىٰ الناس جميعا أو البشرية كلها بل ناط الإسلام بكل إنسان تبعه أعماله وتصرفاته فقد أقام الإسلام حرية الاختيار والمسئولية الفردية وتبعه الأعمال وقرر الإسلام أن الأصل في الإنسان الخير علىٰ خلاف ما تقول به أديان أخرى من أن الإنسان خلق خاطئا أو كان في أول أمره دنسا ويقرر القرآن أن الإنسان خلق طاهراً وخلق تاما وليس في الإسلام أن الخطيئة موروثة في الإنسان قبل ولادته ولا انه يحتاج إلىٰ أن يأتي من يتحمل خطيئة البشر جميعا ، يقول جوستاف غرونبام : ان الإنسان الإسلامي علىٰ خلاف غيره لا ينوء تحت وطأة الخطيئة الأصلية التي تحكم عليه وعلىٰ نفسه بالسوء والفساد» .

ولقد ظلت فكرة الخطيئة الأصلية تفعل فعلها في الفكر

الغربي الحديث حتىٰ اليوم من وراء جميع الفلسفات كالسيف المسلط علىٰ الرقاب.

أما بالنسبة للرهبانية فالإسلام لا يقر الرهبانية بمعنىٰ اعتزال الحياة، وليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولكن الزهادة أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك وأقوىٰ صور الزهد في الإسلام التضحية بالنفس في سبيل الجماعة ورهبانية المسلم الجهاد وقد دعا الإسلام جميع أبنائه إلىٰ الاندماج في المجتمع وقهرهم قهراً علىٰ الأخذ من منافع كل الدنيا، وكل إيقاف للحياة علىٰ العبادة والزهد والنسك فهو مخالفة صريحة لمفهوم الإسلام، ويدعو الإسلام المسلم إلىٰ الزهد في وسط مغريات الحياة، وليس بالعزلة عنها وقد دعا الإسلام إلىٰ حفظ الدنيا وتنميتها في اطار التقوى وتوجيهها إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ.

فإذا رجعنا إلىٰ تاريخ الرهبانية وجدناها كما وصفها القرآن الكريم

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾

ويقول جولز ليروي في كتابه عن الرهبان والرهبانية في الشرق أن الكنيسة القبطية تأثرت بعقائد قدماء المصريين لما عرفوا أن الجسد زائل والروح باق احتقروا متاع الدنيا واعتبروه عبئا يجب الخلاص منه حتىٰ لا يقف عثرة في طريقهم إلىٰ الخلود وهذا يفسر ترك الزهاد لعالمنا ورحيلهم إلىٰ الصحراء حيث بدأوا حياة

جديدة في مقابر قدماء المصريين وقد حولوها إلىٰ خلايا للرهبنة، ويقول ان الرهبانية نتاج شرقي فقد ظهرت في مصر وفلسطين ثم انتشرت تدريجيا إلىٰ اجزاء متفرقة من العالم المسيحي وقد لعب الرهبان دوراً هاما في كثير من أحداث التاريخ واثرى بعض الرهبان ثراء فاحشا وكانت أديرتهم تدل علىٰ الرخاء والرفاهية وعلىٰ تناسيهم لمفهوم الرهبانية الصحيحة».

وقد أشارت أبحاث كثيرة إلىٰ ما عرف عن الأديرة من فساد وخمر ودعارة

يقول ليكي في كتابه (تاريخ أوربا الأخلاقي): لقد عجزت الرهبانية عن الحد من جموع المادية فقد بلغ التبذل والاسفاف غايتهما في أخلاق الناس وسادت الدعارة والفجور وانقسم المجتمع إلىٰ فئتين متناقضتين متباعدتين رهبانية متطرفة وفجور متطرف وكان الناس يرون في الرهبانية السلبية مضادة للفطرة الانسانية التي بقيت مقهورة زمنا ثم تسربت إليها هي الأخرى عوامل الفساد الأخلاقي فأصبحت مرتعا للكبائر والمنكرات، وكانت النكبة التي حاقت بالفكر الديني جناية رجال الدين بدس المعلومات البشرية التي كانت سائدة حينذاك وفرضوها حقائق ثابتة علىٰ عقول الناس واعتبروها من صلب الدين وكذبوا بل كفرّوا كل من يقول بخلافها وساموهم سوء العذاب وحينما جاءت النهضة الحديثة وتغيرت المفاهيم العلمية بالتدريج والترقي والتطور وقع الصراع بين العلم والكنيسة وانهزم الدين هزيمة منكرة

وسقط رجال الدين سقوطا لم ينهضوا بعده وتزعزع الفكر الديني في أوربا وفقد تأثيره علىٰ الضمائر والنفوس وأصبحت أوربا النهضة لا دينية تقف بصرامة في مواجهة النصرانية والأديان السماوية كلها وساد الاعتقاد بان الفكر الديني والفكر العلمي متناقضان متعاديان، الإيمان بأحدهما يستلزم حتمية الكفر بالآخر وهكذا وقع المحذور الذي ساق أوربا إلىٰ المادية بكل معانيها وإلىٰ فصل الدين عن الحياة وأن الدين إذا كان لابد منه فهو قضية فردية تتعلق بذات الإنسان ولا تجاوزه إلىٰ السياسة والمجتمع والدولة وأورث ذلك كله أن الديانة المادية هي التي تسود أوربا وأمريكا اليوم، لا النصرانية، وأصبحت الفضائل كلها في الفائدة العملية وأن القيم العليا والمبادىء السياسية هي النجاح المادي لا غير، مما دعا الأمريكي جون جنتر أن يقول: أن الانجليز يعبدون بنك انجلترا ستة أيام في الاسبوع ويتوجهون في اليوم السابع إلىٰ الكنيسة».

(٣) بالنسبة لعقيدة التثليث فإن الرأي السائد في دوائر الكنيسة ان المسيح اله تجسد في صورة بشر ليكون البشر أهلا للقائه وكان نزوله رحمة وخلاصا للبشرية وقضية التجسد من أخطار القضايا التي مازالت قائمة اليوم بعد مرور قرنين علىٰ ظهور المسيحية ومسألة التجسد (Ineamation) إلىٰ انه اتخذ شكلا آدميا فهو ــ في نظرهم ــ إله كامل وبشر كامل أيضا وهو وحده يجمع بين صفتيه بمعناهما الدقيق وأن

عيسىٰ هو الأقنوم الثاني في عقيدة التثليث وعن طريقه تصل إلىٰ إله التثليث وانه سبيلنا إلىٰ أن التقرب إلىٰ الله يكون عن طريق عيسىٰ المسيح كرب.

وفي انجيل يوحنا ١٤/١ نص يقول: ان الكلمة صارت جسدا وحل بيننا أي أنه إله في صورة انسان» أ.هـ.

ولا ريب أن من أخطر قضايا الفكر البشري المعاصر التي واجهها الإسلام هي قضية التثليث: وهي الآن موضع بحث عميق ومستفيض في دوائر اللاهوت وقد أحدثت اثاراً بعيدة في نفوس الكثيرين.

يقول مؤلف تاريخ الحضارات اليوم (الجزء الرابع) باشراف موريس كروزيه ص ٥٣٨ ما يلي:

القول بالثالوث الأقدس يبقى العقل حيالها حائراً لا يستطيع النفاذ إليها وهو أمر لا يتصوره الخاطر وهي عقيدة وقعت دوما حجر عثرة لدى العقول وحالت كثيرا دون اعتناق الناس لها أو دون استمرار من أحد علىٰ القول بها وعلىٰ العكس من ذلك جاءت عقيدة الإسلام بوحدانية الله: الكائن الأبدي الأزلي السرمدي، هذا الشعور بوحدانية الله تغلغل في تعاليم الإسلام وسيطر علىٰ حياة المؤمنين وهيمن علىٰ الفن ولاسيما فن البناء والرسم».

***

ولقد كان من أخطر النظريات التي طرحت في أفق المسيحية قضية (بنوة المسيح لله) قال رنيان في كتابه حياة المسيح : أن بنوة المسيح لله التي نطق بها المسيح نبوة مجازية في المعنى أن الله يعامل المسيح كما يعامل الوالد ولده بالشفقة والاحسان.

وقال الشيخ محمد عرفة : ان النبوة التي نطق بها المسيح بنوة اكرام وتعظيم لا بنوة وولادة، فإذا فهمت المسألة علىٰ هذا الوجه رجع الناس إلىٰ التوحيد الخالص إلىٰ الدين الحق. وان القرآن في هجمته علىٰ تعليم نبوة النسب والولادة لم يحارب المسيحية ولكنه حارب بدعة من البدع التي حاربتها المسيحية قبل أن يهاجمها الإسلام.

ولقد كانت هذه القضايا في حاجة إلىٰ جهد كبير لاقناع العقول بها ومن هنا نشأت الفلسفة المسيحية التي حاولت استخدام المنطق والتأويل، من أجل خدمة مفاهيم التثليث والفداء والتجسد والخطيئة والأسرار السبعة علىٰ نحو ما قام به أوغسطين والقديس توما مما أطلق عليه فيما بعد (اللاهوت المسيحي).

كانت أكبر المحاذير في وجه مؤسسة الكنيسة المسيحية هي :

أولاً : قبول دخول الوثنية علىٰ النصرانية

فقد رأت الكنيسة انه لقرب وزلفى إلىٰ رجال البلاط الروماني سمح للوثنية أن تتغلغل في أصول النصرانية القائمة علىٰ توحيد الله تعالىٰ، وأن الوثنية والشرك قد دخلا إلىٰ النصرانية بتأثير المنافقين

الذين أمكنهم بتظاهرهم بالنصرانية تولي مناصب عالية في الدولة الرومانية.

ومن اثر ذلك نشأ دين جديد تتجلىٰ فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء ومن هنا نشأت عقيدة التثليث (الأب والابن والروح القدس) وضغطت الوثنية علىٰ النصارى بعد ان أوهمتهم بان المسيح ابن الله وتعالىٰ الله عما يقولون علوا كبيرا.

ثانياً: وقوفهم في وجه العلوم التجريبية

ومحاربتهم للعلماء الذين تلقوا عن المسلمين، بل أن الكنيسة طردت فردريك الثاني حاكم صقلية (الذي أصبح امبراطور المانيا عام ١٢١٥) لأنه أهدى إلىٰ جامعات بولونيا وباريس ترجمات الكتب الفلسفة والعلمية العربية وأسس ١٢٤٤ جامعة نابولي وجعل منها أكاديمية لادخال العلوم الإسلامية إلىٰ الغرب، وقد طرده البابا جريجوري التاسع من الكنيسة بتهمة ما يبديه من مظاهر الود تجاه الإسلام ونفس المصير لحق بـ (يوهان رامسكه) المتوفي ١٧٧٤ م الذي اتهمه رجال اللاهوت بالزندقة لأنه رفض وصف النبي ﷺ بالسلبيات كما رفض تقسيم تاريخ العالم إلىٰ تاريخ مقدس وتاريخ غير مقدس وقد جر عليه ذلك ويلات كثيرة ومات مفلسا بائسا في الثامن والخمسين من عمره.

ثالثاً: تردي رجال الكنيسة في نظرتهم إلىٰ المرأة

وادعاؤهم انها رجس من عمل الشيطان وانها من جنس آخر

غير جنس الرجال ومما يذكر في هذا الشأن أن مجمع باكوس المسيحي ٥٨٦ بعد ميلاد الرسول لستة عشر عاما أخذ يبحث هل المرأة إنسان أم شيطان في الوقت الذي يعلن فيه من مكة أن النساء شقائق الرجال وأن للمرأة من الحقوق ما للرجل وعليها من الواجبات ما للرجل وانها تتعلم وتصلي وتعبد الله .

رابعاً : قبول فكرة الدعوة العالمية للمسيحية

كانت النصرانية دعوة محدودة إلىٰ شعب بني اسرائيل ايضا مكملة لليهودية طبقا لما قال السيد المسيح في انجيل متى (الاصحاح الخامس ١٧) : (لا تظنوا إني جئت لانقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لانقض بل لأكمل) .

ويقول الله تبارك وتعالىٰ في القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾

لم يزعم الحواريون استقلال النصرانية عن اليهودية ولم يزعموا عالميتها ولكن بولس الذي لم ير المسيح في حياته ولا سمعه يبشر الناس، نقض عقيدة التوحيد أولا (بقوله بالتثليث وفكرة قيامه المسيح ونبوته لله ليكفر بنفسه عن خطيئة البشر) وثانيا : بابطال الختان، وقال بنشر المسيحية في الشعوب الوثنية من بلاد الدولة

الرومانية ولم يورد بولس دليلا واحداً ولا كلمة واحدة تنسب إلىٰ المسيح عن عالمية النصرانية.

خامساً: تعدد الأناجيل

لقد وصلت الكتب المنسوبة إلىٰ المسيح عليه السلام إلىٰ أكثر من سبعين كتابا أو انجيلا وأوصلها البعض إلىٰ مائة كتاب كلها تختلف عن الانجيل الذي نزل علىٰ المسيح، وليس بين الأناجيل: الانجيل الذي ذكر القرآن انه انزل علىٰ عيسىٰ بن مريم عليه السلام فهي جميعا منسوب كتابها إلىٰ تلاميذ المسيح يروون فيه سيرته ومواعظه فإذا أردنا قياسها علىٰ ما عند المسلمين فهي لا تقاس علىٰ القرآن وانما تقاس علىٰ كتب السيرة.

وعندما قرر مؤتمر نيقه ٣١٥ عقيدة التثليث والوهية المسيح قرر أيضا احراق جميع الكتب التي لا تقول بالوهية المسيح وقدسية الكتب الأربعة المتداولة (متى ــ مرقص ــ لوقا ــ يوحنا).

وأعطت هذه المجامع حق القرآن والحرمان للكنيسة كما قرروا عصمة البابا والاقرار بعصمته يعطه حق النسخ والتشريع وتنص هذه الأناجيل علىٰ أن المسيح قد صلب (وينفي ذلك القرآن) وتغفل التبشير بمحمد عليه السلام (ويقرر القرآن أن الأناجيل تحمل البشرى وتفسح الأناجيل القول بالوهية المسيح بصورة أو بأخرى وينفي القرآن ذلك.

ويتصل صلب المسيح عند المسيحيين بعقيدة (الخلاص) وهي

أن المسيح بصفة الالهية قد جاء إلىٰ الأرض ليتعذب بهذا الصلب ليمسح عن البشر الخطيئة الأولى الموروثة بعصيان آدم ربه في الجنة والقرآن الكريم يقرر أن

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

وانجيل برنابا وحده هو الذي يتفق في هذه النقاط مع عقيدة الإسلام ويحكي انجيل برنابا رفع المسيح دون أن يصلب وأن يهوذا تعثر في النطق وفي الوجه فصار شبيها ليسوع وفي انجيل برنابا جاءت صفة الرسول ﷺ مرات عديدة تصل إلىٰ خمس عشر مرة، وبين أسطورة يكفر من قال أن المسيح ابن الله والرافضين الختان ويؤكد علىٰ سنة الختان ويقرر أن ختان المسيح حدث بعد ان تم ثمانية أيام ويؤكد نجاسة غير أهل الختان وبرنابا صاحب هذا الانجيل هو أحد الحواريين من أنصار المسيح عليه السلام، وقد أعلن في مقدمته أن (بولس) قد انفرد بتعليم مخالفٍ لما تلقاه الحواريون عن المسيح وأن تعاليمه هي التي انتشرت وغلبت وسادت المعتقدات المسيحية وتذهب دائرة المعارف الفرنسية إلىٰ أن انجيل مرقس وانجيل يوحنا من وضع بولس.

الفصل الثاني
وجوه الاختلاف بين المسيحية والإسلام

إن رسالة السماء تمثلت في أديان محلية لاقوامها وكانت رسالة موسىٰ عليه السلام إلىٰ بني اسرائيل مصدرة بكتابها الأول (التوراة) ثم توالت رسالات السماء إلىٰ بني اسرائيل حتىٰ ختمت برسالة عيسىٰ عليه السلام بكتابها الأخير (الأنجيل) وقد نصت جميع كتب السماء علىٰ الرسالة الخاتمة التي أخذ العهد علىٰ جميع الرسل بتبليغها والاذعان بها وهي رسالة محمد ﷺ.

ويبدو هذا واضحا فيما ورد في الاصحاح الأول من انجيل يوحنا و (١٧ من انجيل متى) من أنهم كانوا ينتظرون ثلاثة: ايليا والمسيح والنبي وأن الذي يأتي أولا هو (ايليا) ثم (المسيح) ثم النبي وما قاله السيد المسيح من وجود (معزّى) آخر بعده [يمجده ويشهد له ويذكره الناس بكل ما قاله ويعلمهم أمور كثيرة ويرشدهم إلىٰ جميع الحق] وهذا ينطبق علىٰ سيدنا محمد.

وفي انجيل برنابا نص صريح في هذا المعنىٰ حيث يقول بالنص:

ترجم الله العالم فيرسل رسوله الذي تستقر علىٰ رأسه عمامة بيضاء يعرفه أحد مختاري الله وهو سيظهره للعالم وسيأتي بقوة عظيمة علىٰ الفجار وبين عبادة الأصنام، الذي سيأتي من

الجنوب بقوة وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام.

قالوا: يا معلم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عنه الذي سيأتي إلىٰ العالم، أجاب يسوع بابتهاج قلب: انه محمد رسول الله ومتى جاء إلىٰ العالم فسيكون ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر بالرحمة الغزيرة التي يأتي بها كما يجعل المطر الأرض تعطي ثمرا بعد انقطاع المطر زمنا فهو غمامة بيضاء ملأى برحمة الله وهي رحمة ينثرها الله رذاذا علىٰ المؤمنين كالغيب.

قالوا: لما تبشر بمعلم جديد وتجعل نفسك أعظم شأنا من (مسيا)

قال السيد المسيح: لست أحسب نفسي نظير الذي يقولون عنه، لأني لست أهلا ان أحد رباطات جرموق أو سيور حذاء رسول الله الذي يسمونه مسيا الذي خلق قبلي وسيأتي بعدي وسيأتي بكلام الحق ولا يكون لدينه نهاية فيحمل خلاصا ورحمة لأمم الأرض الذين يقبلون تعليمه، لأن هكذا وعد الله إبراهيم، صدقوني لأني أقول لكم الحق: أن العهد صنع باسماعيل لا باسحق، اني قد أتيت لاهيىء الطريق لرسول الله الذي سيأتي بخلاص العالم ولكن احذروا أن تغشوا لأنه سيأتي بعدي أنبياء كذبة كثيرون يأخذون كلامي ويبخسون انجيلي، انه لا يأتي في زمنكم بل يأتي بعدكم بعدة سنين حينما يبطل انجيلي ولا تكاد يوجد ثلاثون مؤمنا في ذلك الوقت».

هذه هي الصورة التي حجبها رؤساء الأديان وأبطلوها حتىٰ

يجعلوا من المسيحية دينا عالميا ــ بدلا من أن يكون ختام رسالات بني اسرائيل، وبشرى رسالة محمد ﷺ الخاتمة.

●●●

ومن هنا اختلف الطريق وبدا أن بين الإسلام (الذي جاء بالقرآن: بالنص الموثق الذي لم يدخله زيف والذي حفظه الله تبارك وتعالىٰ) وبين اليهودية والمسيحية خلافات عديدة لو سارت الحلقات بين الأديان السابقة للإسلام في طريقها الصحيح لوصلت إلىٰ المفهوم الرباني الأصيل الذي تقبله الفطرة ولكن لما وقع هذا الخلاف بتحول اليهودية والمسيحية في أكبر انحرافاتها إلىٰ جنس واستعلاء بالعنصر، عادت دعوة محمد ﷺ لترتبط مرة أخرىٰ بالأصل الثابت (دين إبراهيم = الحنيفية السمحاء)

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾

هذه الخلافات التي عاقت مسيرة الدين الرباني إلىٰ غاية، والتي كان لها أثرها البعيد المدى في حركة العلوم والفلسفات ومفاهيم المجتمعات والحضارة علىٰ النحو الذي انحرفت إليه المجتمعات الغربية والحضارة الغربية بما ارتفعت الصيحات تكشف عن فساده من مفكرين كبار علىٰ مدى العصور منذ برناردشو وخالد شلدريك ولورد هدلي وفي القريب اتيان دينية، وليوبولدفابس ثم في الأخير جارودي وبوكاي وموريسون.

وقد سجل القرآن علىٰ أهل الكتاب

(أولا) تحريف العقيدة وقطع رسالة موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام عن سياق الدين الرباني وجعلها دعوة عنصرية، الغرض منها تجاهل وحجب الاعتراف بالدين الخاتم

(ثانيــــا) تحريف الإنجيل والتوراة ورفع كل ما يتصل بنبوة النبي الخاتم.

(ثالثــــا) فصل رسالة المسيح عليه السلام عن سياقها في أديان بني اسرائيل والادعاء بانها دين عالمي.

(رابعــــا) تقديم نظريات جاءت بها الأديان الوثنية القديمة لم ترد في كلام الأنبياء كدعوى الاله الخاص (يهوه) عند اليهود ودعوى وعد الله لإبراهيم علىٰ انه وعد لاسحق ويعقوب (وليس لاسماعيل) ثم دعاوى الصلب والتثليث والخطيئة في المسيحية.

(خامسا) نسبة الدين في اليهودية إلىٰ الأقوام وفي المسيحية إلىٰ شخص النبي.

(سادسا) ظهور مفهوم الرهبانية وترك الدنيا.

هذه التحولات وغيرها التي خرجت باليهودية والمسيحية عن طريقها الطبيعي في سلسلة الأديان بوصفها مرسلة لبني اسرائيل فحسب، عندما انتقلت إلىٰ المجتمع الروماني الوثني، تشكلت مع مفاهيمه فاحدثت صراعا شديدا في الكيان النفسي وكان

أخطرها (الخطيئة) التي اقنعت الإنسان الغربي بان الإنسان في المسيحية مذنب بالولادة والفطرة مثقل بالمعاصي والذنوب الفطرية التي يئن تحت وطأتها، فضلا عن دعوته إلىٰ الاعتقاد قبل البحث والتفكير (اعتقد ثم فكر).

وقد جاء الإسلام ليصحح هذه الأخطاء ويكشف للإنسان وجهه الحقيقي في علاقته بالله تبارك وتعالىٰ وبالحياة وكيف أن له ارادته الخاصة ومسئولية الفردية التي يحاسب عنها. ولذلك فقد أنكر القرآن مسألة التجسيد المسيحي، ومسألة الاله الخاص باليهود، ومسائل التثليث والخطيئة والصلب ومسائل الأساطير والخوارق والخرافات وعبادة الكواكب ومواريث الباطنية والمجوسية والفلسفة اليونانية، كما حطم أكبر ركائز الحضارات الوثنية وهي مسألة العبودية والرد الذي عرفته حضارات فارس والروم والفراعنة والهنود التي تقول بعنصر سيد يجلس علىٰ القمة وعبيد ليست لهم حقوق، فقد الغى الإسلام عبودية الإنسان للإنسان وعبودية الإنسان للأوثان والأصنام.

وأعلن رسول الله ﷺ قاعدته الحاسمة:

﴿ لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم، ولا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إنما تصدقوا بباطل واما ان تكذبوا بحق وانه والله لو كان موسىٰ حيا بين أظهرهم ما حل له إلا أن تبعني، ولو كان موسىٰ وعيسىٰ حيين لما وسعهما الا اتباعي ﴾

فإذا ذهبنا نتعرف إلىٰ مفاهيم اليهودية والمسيحية في أمر (الحياة الدنيا) لوجدناهما يلتقيان في نقطة واحدة (علىٰ حد تعبير الدكتور كمال جعفر) هي أن الحياة في جملتها جاءت لتؤكد ملكوت الله ومملكته ولا اعتراض علىٰ هذا التصور اسلاميا، ولكن الاعتراض علىٰ تفسير هذا التصور ففي التصور اليهودي أن مملكة الله هي مملكة الشعب اليهودي، الذي استأثر — وحده — بفضل الله وإحسانه واستأثر بتمكين الله له في الأرض كما استأثر بتمثيل قوة الله وسلطانه، فغاية الحياة في نظرهم أن إقامة تلك المملكة التي يعين فيها الله (جل جلاله) ملكا فهم يطلبون من الله شيئا في سبيل أن يؤدوا إلىٰ الله شيئا والعجيب أن كتابهم يزعم أنه سماوي وهو يخلو من فكرة الآخرة كلية.

أما الملكوت في النصرانية فبدلا من أن يكون هذا الملكوت خاصا بالشعب اليهودي وسع بعض الشيء وطرد منه بعض الناس مما يسمىٰ (مملكة الله) هي هذا العالم الذي تمركزت فيه حادثة رئيسية هي حادثة حلول اللاهوت في المسيح، وما قبل هذا يعتبر تمهيد ومقدمة وفي الآخرة لن ينال هذا الملكوت إلا من شارك الدم النصراني باقامة الطقوس.

أما الإسلام فيقدم مفهوما مختلفاً تماما وكيف أن الله تبارك وتعالىٰ خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملا وهو يبلونا بالخير والشر فتنة واننا سنرد إليه واننا محل اختبار وان القرآن قد أشار إلىٰ حقيقة كبرى هي الميثاق الذي أخذ من بني آدم

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ ﴾

لا تجهم ولا تشاؤم في الإسلام، والحياة عبور وانتقال، والإسلام لم يرفض الحياة الدنيا.

●●●

كما قدم الإسلام مفهوما صحيحا سليما للحياة: حيث سمح للإنسان بكل متع الحياة وفق ضوابط محددة، حماية لنفسه وحماية للمجتمع ووفق بين مفاهيم الزهد والمتاع، والعقل والقلب، ورفض سلطة رؤساء الأديان وأعلن أنه لا يوجد ما يسمىٰ رجل دين، ولا لطائفة من الناس حق السيطرة وليس في الإسلام سر يعرفه أحد من الناس دون الناس جميعا، وليس هناك وساطة بين الإنسان وخالقه، وقد رفض الإسلام السحر المجهول (الكهانة) ورفض رسول الله التميز علىٰ أصحابه (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى إلي) وليست مهمة النبي علم الغيب (إنما الغيب لله) وليس القرآن من عنده لانه يحوي معانيه ولما انكشفت الشمس يوم وفاة ابنه إبراهيم أعلن أن الشمس والقمر من آيات الله لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته.

وأعلن الإسلام اختلاف الله عن الكون وانه ليس داخل فيه، ردا علىٰ دعاة الحلول ووحدة الوجود، وأعلن الإسلام مفهوم الثوابت والمتغيرات وأعلن ثبات القيم الأساسية ومنها الأخلاق،

والغى الرق ، وأعطى المرأة حقوقها ، والغى العصبية القبلية ، وأعلن الترابط بين عالمي الغيب والشهادة وأعلن أن الله تعالىٰ هو رب العالمين جميعا وأن دعوة محمد ﷺ عالمية ، وأحل الله البيع وحرم الربا ودعا إلىٰ حماية الضعفاء والفقراء وجعل الزكاة حقا معلوما للسائل والمحروم (التكافل) ودعا إلىٰ طيبات الحياة (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ودعا إلىٰ العدل ووحدة الانسانية والحرية الفكرية العاقلة ، واعطى الإسلام الحرية للعلماء أن يجتهدوا في وضع أحكام وفق الخطوط الرئيسية في النازلة التي لا يوجد فيها نص والمسلم يؤمن بكل كتب الله ورسله وملائكته واليوم الآخر .

وقد كرم الإسلام سيدنا عيسىٰ عليه السلام وأمه السيدة مريم ونفوا عنهما ما اثاره اليهود ، واعلنوا انه نبي مرسل وأعلن الإسلام أن لا إكراه في الدين

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

وأعلن حق أهل الذمة في كافة حقوق المجتمع المسلم ، وفي إقامة عباداتهم والمحافظة علىٰ كنائسهم وبيعهم ويعترف الإسلام بأصول دينهم الأولىٰ المنزلة ، وأقر الإسلام أن طعام أهل الكتاب حل للمسلمين .

●●●

يصور الأستاذ يعقوب ريمون الخلافات الجذرية بين الإسلام والمسيحية

الأول: هو أن المسيحية في الوقت الذي تقر فيه وتعترف بكافة الأنبياء السابقين تجرد (عيسىٰ) من النبوة وترفعه إلىٰ مرتبة الألوهية كما تنكر نبوة محمد عليه الصلاة والسلام بالكلية.

الثاني: هو أن المسيحية تنادي بالنظرية القائلة بأن عيسىٰ ابن الله وانه طرف في التثليث المقدس وبذلك يكون عيسىٰ في نظرها الها وابن الله في وقت واحد مما يتعذر فهمه كما أن هذه النظرية تناقض التعاليم التي نادى بها موسىٰ وإبراهيم فقد علما الناس أن يعبدوا الها واحدا لا شريك له.

الثالث: هو أن المسيحية تجعل الكنيسة وسيطا بين الناس وربهم فهي تقول لك اقترف ما شئت من الآثام والكنيسة تعفو عنك وتضمن لك الخلاص والنجاة ومن هنا فالخالق في تصور النصرانية ليس حراً يفعل ما يشاء بل لابد للكنيسة أن تقوده سبحانه يوم القيامة وقد وجدت تصحيحا وتصويبا لهذه الفكرة في الإسلام يبين له الله وحده لا شريك له هو الذي سيقضي يوم القيامة في الأعمال التي اكتسبها كل ذكر وأنثىٰ في حياتهم الدنيا دون أي تدخل أو نفوذ من أي جهة من الجهات.

الفصل الثالث
الفكر الغربي : من اللاهوت إلىٰ العلوم

كان تحول الفكر الغربي من الفلسفة المسيحية اليهودية (اليونانية الرومانية) إلىٰ العلوم بعد ظهور مفهوم العلم التجريبي الذي صنعه المسلمون عاملا هاما في الاضطراب والخلط والتمزق الذي أصاب الغرب من بعد فقد كان أكبر ما قام به الغرب هو :

أولا : الفصل بين النظرية والتطبيق .
الثاني : الفصل بين العلم الطبيعي وبين العامل الرباني .
الثالث : الفصل بين العلم والأخلاق .
الرابع : الفصل بين الدين والمجتمع .

وقد جاء هذا كله في مرحلة متقدمة عن عصر النهضة ، الذي بدأ حقيقة بانتقال مفهوم المنهج التجريبي الإسلامي إلىٰ الغرب ، منفصلا عن مقوماته في البعد الالهي للخلق والمجتمع والحضارة ، وبالتالي منفصلا عن البعد الأخلاقي والمسئولية الفردية والجزاء الأخروي .

وقد جاء هذا الفصل بين العلم وبين مفهوم البعد الالهي نتيجة للخلاف الذي وقع بين الكنيسة وبين علماء التجريب ، والذي وصل إلىٰ مرحلة خطيرة انتهت بالقضاء الكامل علىٰ العلاقة بين

العلم والدين ثم الانطلاق في الجانب الآخر وهو بناء تصور فلسفي لعلاقات المجتمع نشأ عنه مفهوم الفلسفة المادية والايدلوجيات الرأسمالية والاشتراكية.

إن الدور الذي قام به علماء الإسلام في وضع أحجار الأساس في بناء العلم التجريبي في العالم كله لم يعد خافيا علىٰ أحد وأن ظل بعض خصوم الإسلام يرددون دعاواهم الباطلة بانكار هذا الأثر الباهر بدعوى أن المسلمين لم يزيدوا عن أن نقلوا تراث اليونان إلىٰ اللغة العربية وهذه قضية حسمها كثير من العلماء المنصفين أمثال درابر، وسارتون، وهونكة وعشرات وقد أورد جورج سارتون في كتابه تاريخ العلوم مساحة ٣٥٠ سنة متواصلة للمسلمين من ٧٥٠ ــ ١١٠٠ م تبرز فيها أسماء جابر ابن حيان والخوارزمي والرازي والمسعودي والبيروني وابن سينا وابن الهيثم وبعد عام ١١٠٠ م بدأت تظهر أول الأسماء الغربية ولكن خلال قرنين ونصف يظل الشرف العلمي في الغرب شركة مع علماء مسلمين وقد جاء عطاء المسلمين العلمي في مختلف الفروع.

(١) العلوم الرياضية (وهو علم مستغن بنفسه وان الأرقام وفي مقدمتها الصفر تأتي في صميم هذا العلم).

وأول من استخدم الأرقام وأعطىٰ الصفر دلالته هو (الخوارزمي) وظل هذا الانجاز مفيدا ومستمرا حتىٰ يومنا هذا حتىٰ أن الحاسب الالكتروني يعتمد علىٰ رقمين: الصفر والواحد في أداء عمله.

(٢) علم الجبر ـــ وقد التصق أيضا بالخوارزمي وما سبق الجبر كان حلولا مفردة لقضايا معينة.

(٣) علم المثلثات: عرفه العرب بصورته الحالية (وكان اليونان يعرفون شيئا منه) وظل كتاب (النقوصى) مصدراً هاما حتىٰ القرن السابع عشر.

(٤) الفلك سبق العرب جاليلو إلىٰ كثير من أبحاثه.

(٥) علم الكيمياء (جابر بن حيان): تجربة ومشاهدة واستنتاج.

(٦) علم الطبيعة والبصريات (الحسن بن الهيثم) وظل كتابه (المنارة) من أشهر الكتب التي عرفت في أوربا وهو الذي صحح طبيعة الضوء ووضح كيفية عملية الأبصار.

(٧) علم الطب: وقد أجمع الأوربيون علىٰ ريادة المسلمين للطب.

•••

يقول الأستاذ عبدالمقصود حبيب ان المسلمين لم يأخذوا العلوم عن طريق الاقتباس أو دون مناقشة وتحقيق واضافة، لأنهم اعتمدوا علىٰ الموضوعية والدقة العلمية ولذلك نقدوا علوم الأولين وفندوها وقوموا أخطائها فتعدوا كتب ارسطوا وبطليموس وغيرهما وعلقوا واضافوا عليها وكانت الواقعية العلمية دافعهم إلىٰ ذلك،

ففي علم الفلك أسسوا قواعد جديدة علىٰ كل من سبقوهم فزاد الاعتناء بالمراصد وتطوير أجهزتها وجداول حساباتها الفلكية وهي الجداول التي أدخلها الغرب في مراصده ومن أهمها جداول الخوارزمي والبتاني وابن يونس وقد اعترف أحد أقطاب العلم الأوربي بذلك فقال (لقد توصل علماء الفلك في بغداد في نهاية القرن العاشر إلىٰ أقصىٰ ما يمكن أن يصل إليه الإنسان في رصد الكواكب والنجوم بالعين المجردة).

وقد قام (ابو العباس أحمد الفرغاني) صاحب كتاب (الكامل في الاسطرلاب وجوامع علم النجوم بقياسات طول خط الأرض المستقيم وكان أول من أدرك أن مدار الشمس والكواكب يجري علىٰ مر الزمن في اتجاه خلفي وتتلمذ علىٰ يديه علماء فلك آخرون قدموا كثيرا من التطورات في هذا المجال.

وابن الهيثم الذي أوجد طرقا جديدة لقياس عرض الأماكن منطلقا من نظريته الشهيرة في علم انعكاس الضوء وهو الذي صار معلما لاوربا في العصور الوسطىٰ بعد ترجمة كتابه علم المناظر الىٰ اللاتينية الذي يحتوي علىٰ نظريته في حركة الكواكب في طبقات من الجو غير مرئية وقد تأهل علىٰ نظريته من علماء الفلك الغربيين:

روجر بيكون ١٢٩٤ م ليونارد دافنشي ١٥١٩ جاليلو ١٦٤٢ الذين يعتبرون مؤسسو البحث العلمي الحديث.

وقد كان ابن الهيثم أول من أجرى تجارب بواسطة نوع من الة الثقب التي هي في الواقع صورة لآلة التصوير فيما بعد وهو صاحب علم سنن الكائنات وثبتت أستاذيته كعالم مجرب حول مسيرة الضوء وسيطرت نظرياته في الفيزياء والبصريات علىٰ علوم الغرب حتىٰ يومنا هذا.

ولا تزال المسألة الرياضية الطبيعية التي وضع ابن الهيثم حلها وعرفت باسم المسألة الهيثمية قائمة بذاتها في علم الغرب حتىٰ اليوم وهكذا نجد أن نظريات المسلمين والآتهم واكتشافاتهم التي توصلوا إليها ونقدهم للنظريات السابقة عليهم كان له أكبر الفضل علىٰ الحضارة الأوربية الحديثة.

ويمكن القول ان معطيات العلم التجريبي الإسلامي واجهت الوضع الآتي:

أولاً :هدمت نظرية أرسطو وأخرجت أوربا من التأمل النظري إلىٰ التجريب.

ثانيـــاً : أخرجت أوربا من عصر الرهبانية إلىٰ عصر العمران بفضل توجيه القرآن.

ثالثـــاً : لم تعلن أوربا في صراحة عن دور المسلمين وراوغت فيه وحاولت أن تنكره وأن تضع هذا النتاج العلمي كله موضع الصمت والاغضاء ما عدا قليل من الكتاب المنصفين خلال فترة تزيد علىٰ ثلاثة قرون.

رابعـــاً : تحولت أوربا من منهج الإسلام في العلم إلىٰ منهج اليونان القديم بان حملت معطيات العلم وصهرتها في بوتقة مفاهيم الاستعلاء العنصري الأوربي والروماني القديم وحاولت أن تحرر نفسها من الوجهة الصحيحة: أن يكون العلم لخدمة الناس جميعا وأن يكون اخلاقيا، وانشأت فكرة (الطبيعة) لتصغها بديلا لكلمة الصانع الحقيقي وهو الله تبارك وتعالىٰ وألغت الجانب الالهي تماما وأعلنت شأن الجانب المادي ونظرت إلىٰ العالم كأنه قديم وأبدى في مخالفة تامة لمفهوم الدين الحق الذي يقرر أن العالم حادث ومتناه وانشأت فكرة العلمانية نتيجة خلافها مع الكنيسة بما أدى إلىٰ عزل الدين كلية واستعلاء العلم ومحاولة الادعاء بانه قادر علىٰ قيادة البشرية وان كانت هذه النظرية سقطت تماما ولكن العلم التجريبي الذي استطاع أن يؤمن بالله، تولدت عنه بفعل قوى الالحاد والوثنية ومبعثي الفكر القديم المجوسي الباطني (وهم اليهود) تولدت عنه الفلسفات المادية التي حاولت أن تجعل لنفسها قوة العلم وقداسة بينما هي لم تزد عن أن تكون فروضا ونظريات بشرية تخطيء وتصيب وكان ميدان العلوم الاجتماعية والانسانية هو أخطر الميادين خروجا عن مفهوم العلم الصحيح الذي جاء به الإسلام.

وقد أشار كثيرون من الباحثين إلىٰ هذه الانحرافات التي دفعت لمسيرة العلم في الغرب ومنها خطأ الفكرة التي تبناها بعض العلماء مما أطلق عليه (حياد العلم الطبيعي) حيث يقول بعضهم بانه لا علاقة بين العلم الطبيعي وبين الدين والأخلاق ، أي انه لا يتأثر بالدين ولا بالأخلاق ، وقال بعضهم إذا ذكرت الاقتصاد فلا تذكر الدين وقد كانت قضية فصل الدين عن العلم ثم فصل الأخلاق عن العلم من المحاولات الخطيرة التي حمل لوائها دعاة (التنوير) اليهود في محاولة القضاء علىٰ مفاهيم الترابط القائم بين الروحية والمادية ومحاولة اعلاء ما يسمى بالعقلانية وصولاً إلىٰ الالحاد والإباحة .

ولقد رفضت أوربا مقاييس الإسلام في ضوابط العلم والحضارة جميعا التي تقوم علىٰ الاعتراف بفضل الآخرين ، والانصاف من النفس ، ونسبة المعطيات العلمية لاصحابها وتوجيه العلم في سبيل خدمة المجتمع لا في سبيل تدميره ، وان تكون منجزات العلم للبشرية كلها لا لطائفة منها ، وأن تكون الطبقات المختلفة قادرة علىٰ الانتفاع به ، ومن ذلك حماية الضعفاء والمرضىٰ والآباء والكبار علىٰ خلاف ما أرسيت تقاليد الغرب في القضاء علىٰ المرضىٰ والاستهانة بالكبار والعجزة والاستعلاء بالعنصر الأبيض صانع الحضارة علىٰ الأمم المختلفة وخاصة النامية والفقيرة التي أعطىٰ النفوذ الأجنبي نفسه مبررا فلسفيا لنزح ثرواتها وتدمير اقتصادها .

كان التحول الخطير ثمرة الصراع بين منجزات العلم وبين مفاهيم الدين وهو تحول لم يستطع حفظ التوازن أو الموائمة بين أصول الدين الأساسية وبين مفاهيم العلم فقد وقف العلم وقفة الحصون المعارضة لكل ما يتصل بالروح، بالمعنويات، بالغيب، وسيطر مفهوم المادية علىٰ العلوم الطبيعية ففرض أمرين خطيرين أشد الخطر هما أزلية المادة والطاقة ونسبة كل شيء في الكون إلىٰ الطبيعة وقوانينها وقبول مبدأ التطور المطلق ومبدأ النسبة بان كل شيء نسبي ونقل مفهوم التطور من خير العلوم البيلوجية إلىٰ العلوم الاجتماعية فانكر الاعتراف بمفهوم الثوابت، وبذلك اتصل الفكر الغربي من مفهوم الثبات التام الذي جاء به أرسطو إلىٰ مفهوم التحول الدائم والتطور المستمر الذي جاء به دارون وسبنسر وهيجل.

لقد كانت فكرة مناهضة العلوم الحديثة للدين مستمدة من مفهوم الدين المسيحي، وهي فكرة انتشرت في الغرب باعتبار أن الدين يناقض العلم ولقد كانت معارضة الدين في أوربا منصبة أساسا علىٰ المسيحية التي اغتصبت من الناس حرية الفكر والعمل، وكان الصراع بين المسيحية والعلم صراعا دمويا حيث سبقت أعداد لا تحصىٰ من البشر إلىٰ ساحات الاعدام بتهمة عدم تأييد الكنيسة.

ويقول جون وليم درابر في كتابه تاريخ النهضة الفكرية في أوربا (ج ١ م ١) أن محاكم التفتيش الكاثوليكية عاقبت خلال الفترة

من ١٤٨١ م ــ ١٨٠٨ حوالي ٣٤٠ ألف شخص اعدم من بينهم ٣٢ ألف شخص حرقا بتهمة البدع والخروج علىٰ تعاليم الكنيسة وهكذا أصبح الدين والعلم نقيضين في أوربا لا يجتمعان وقد حاول خصوم الإسلام نقل هذه الفكرة إلىٰ أفق الإسلام بتعميم كلمة الدين من المسيحية واليهودية إلىٰ الإسلام وجاء هذا الخطأ الفاحش نتيجة ترجمة كلمة (Relligion) الانجليزية إلىٰ كلمة دين والإسلام ليس دينا بهذا المفهوم (اللاهوتي) بل هو منهج حياة أيضا (Way of life) يشمل القضايا الروحية والمادية وليس دينا يقتصر علىٰ القضايا الروحية فقط أو المادية فقط بل يهتم بالدنيا والآخرة.

لقد حاول الغربيون والماديون واليهود ومن لف لفهم من اعداد الإسلام أن يلقوا بهذا الافتراء علىٰ الإسلام والإسلام يختلف فالإسلام في حقيقته لا يناقض العلم بل هو الذي فتح أمام العلم أفاقه الحقيقية التي مكنته من الوصول إلىٰ منهج التجريب أساس الحضارة الحديثة.

والقرآن هو المنبع الأصيل الذي خرجت منه نظرية المعرفة الإسلامية والمنهج التجريبي ومن القرآن استمد ابن الهيثم نظرية الضوء واستمد ابن خلدون قانون قيام الأمم والحضارات وسقوطها والقرآن هو الذي هدى الخليل بن أحمد إلىٰ قوانين اللغة والموسيقىٰ والشعر.

ولم يفرق الإسلام بين علم الدنيا وعلم الدين بل أوصىٰ بهما

جميعا حيث جمع علوم الكون في آية واحدة وحث عليها وجعل العلم بها سبيل خشيته وطريق معرفته

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾

إشارة إلىٰ الهيئة والفلك وارتباط السماء بالأرض ــ فاخرجنا به ثمرات مختلف ألوانها (وفي ذلك اشارة إلىٰ علم النبات) ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود (اشارة إلىٰ علم الجيولوجيا وادوارها واطوارها) ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك (وفيه اشارة إلىٰ علم البيولوجيا بكافة أنواعه).

ويعد الإسلام كل علم يحتاجه المسلمون فرض كفاية وفرض الكفاية أن توجد المجموعة التي تغطي احتياجات الأمة (حسن البنا) ويقول الإمام الغزالي حجة الإسلام: لو كان عند غير المسلمين علم أو اختراع ليس عند المسلمين أحسن منه وأفضل فإن المسلمين آثمون محاسبون علىٰ تقصيرهم.

ولابد لكي نفهم أخطار التحول الذي أصاب أوربا نتيجة عجزهم عن استيعاب مفهوم العلم الإسلامي وانحرافهم عنه ان نعرف الجو العام الذي نشأت فيه التجربة الإسلامية يقول ول ديورانت: ان الشائع في الفكر المسيحي المبكر هو أن الدمار

لابد أن يأت علىٰ الأرض قريبا وأن أرضا وسموات جديدة ستخلف الأرض التي نحن فيها، وأن علم الفلك باطل كغيره من العلوم الأخرىٰ التي أدانتها الكنيسة ولعنتها، وكانت النظرة إلىٰ علم الفلك عموما ان دراسته عقيمة ولا يرجىٰ منها نفع، إذ ماذا عسىٰ أن يكون جدوى دراسة نظام كوني ناقص سرعان ما يحل محله نظام أفضل منه وانفع.

ولعل القديس أوغسطين (٤٣٠ م) قد عبر عن هذا الرأي خير تعبير عندما رأى بانه سواء كانت الأرض مركز السماء أو كانت في هذا الجانب من السماء أو ذاك فإن ذلك لا يضير ولا يجدي نفعا وكانت نظرة رجال الدين إلىٰ أجرام السماء ونجومها مختلفة فمنهم من رأى انها كانت كائنات حية وقال اٰخرون انها موطن الملائكة ـــ وقال آخرون ان النجوم كائنات روحية تسيرها الملائكة وكانت تعاليم الدين عندهم تقول ان السماء قبة صلبة تحيط بالأرض وأن الأجسام السماوية مصابيح معلقة في الفضاء وكان هذا في جملته من التعاليم الدينية لرجال الكنيسة مندمجة في نظريات بطليموس، ومن أجل هذا عارضت الكنيسة نظرية كوبرنيكوس ومساندة جاليلو ١٦١٦ وكانت قراءة كوبر نيكوس تعرض صاحبها للعنة والمطاردة وكانت مفاهيم علماء الإسلام قد خالفت مفاهيم بطليموس حيث ثبت دوران الأرض والكواكب حول الشمس وهو ما يخالف تعاليم الكتاب المقدس، ولذلك فهو

كفر والحاد وتجديف وقد طاردوا كل من قال بصحة نظرية كوبر نيكوس وقبض علىٰ برونو عام ١٦٠٠ وأحرق وهو حي من أجل ذلك وكانوا يرون أن علم الهندسة من عمل الشيطان وأن الرياضيات حصيلة فكر الملحدين.

كما مثل جاليلو أمام محكمة التفتيش في روما مرتين من أجل بدعة حركة الأرض كانت ردة العقل العنيفة للعلم سببا في ظهور النظريات الالحادية خلال القرن التاسع عشر للانتقام من الدين حتى يقول بيكون أن الدين يعد سداً يمنع التقدم وقيدا يجب كسره، وقد مضى هذا الاتجاه صعدا حتى قال بعض الفلاسفة (هيوم، ميل، حوليان، هكسلي، برتراند) بانكار وجود الله سبحانه وتعالىٰ.

وقد وقعت حدة الخلاف بين العلماء والكنيسة إلىٰ فصل الدين فصلا تاما عن منهج الحياة، وقد جاء ذلك بعد أن بسطت نفوذها وكبلت الأقلام وعقلت الألسنة، مما دعى المفكرين إلىٰ التمرد علىٰ السلطة ورفض تلك الرقابة، ومن ثم انفصل التعليم عن الدين ونشأت العلمانية التي هي رد فعل للارهاب الديني ولتدخل الكنيسة في شئون الفكر والبحث العلمي وتربية الاطفال والشبان وتنشئتهم.

وهنا بدأ تحول النفوذ العلمي إلىٰ انشاء منهج فلسفي يحاول أن يقدم بديلا عن الدين، ومع الأسف كان هذا البديل ماديا خالصا.

الفصل الرابع
الفكر الغربي والمؤامرة علىٰ الفكر الإسلامي

قام الفكر الغربي المتحرر من سلطان المسيحية علىٰ مجموعة من النظريات التي نادى بها فلاسفة كانوا في الحقيقة ثمرة للصراع الذي دار بين الكنيسة وبين العلماء التجريبيين ومن ثم نشأت الفلسفة المادية التي حاولت ان تقيم منهجا للحياة والمجتمع والحضارة خارج نطاق الدين المسيحي وكان المسيطر على هذه الحركة التي أطلق عليها (حركة التنوير) مجموعة من الفلاسفة اليهود الذين كانوا يعملون أساسا علىٰ تدمير المسيحية مقدمة لتدمير الانسانية جميعا ولما كانت المسيحية مجموعة من الوصايا وليس لها منهج حياة ونظام مجتمع اصلا فإن الغرب الذي تقدم بواسطة المنهج التجريبي إلىٰ التقدم في مجال الكشوف الجغرافية واندفع للسيطرة علىٰ المناطق الإسلامية (بعد اخلاء المسلمين عن الأندلس) وفي سبيل القضاء علىٰ نفوذهم السياسي والاقتصادي كان العمل الأول هو السيطرة علىٰ الموانى والبحار بعد التقدم في هذا المجال عن طريق التجربة التي رسمها علماء المسلمين والذين كان بعضهم في خدمة غزواتهم للسيطرة علىٰ الخليج والوصول إلىٰ سواحل الهند وإلىٰ كانتون في الصين.

صاغ الفكر الغربي الاستعماري هذا منهجه من خلال

السيطرة علىٰ مناطق الخامات واقامة النظام الرأسمالي واستغلال النظريات المختلفة لخدمة هذا الهدف، هدف السيطرة علىٰ الأقطار الإسلامية ونهب مواردها ثم كانت تجربته مع البلاد الإسلامية التي وقعت في دائرة نفوذه الاستعماري السيطرة عليها عن طريق هدم مقومات فكرها واحتوائها داخل نطاق الفكر الغربي الليبرالي لتكون تابعة تبعية تامة له.

وكان القضاء علىٰ الإسلام هو الهدف الأساسي والذي اختفى وراء عمليات التقريب والغزو الثقافي والتبشير، في محاولة لتزييف مفهومه الأصيل وتفريغ الأجيال الجديدة من المسلمين من وجهته واغراء هذه الأجيال ببريق الحضارة الغربية ونفوذها وسلطانها.

وكانت أخطر الدعوات هي:

أولا: هدم الوحدة الإسلامية بإذاعة روح القوميات والاقليات.

ثانياً: فرض النفوذ الغربي علىٰ التعليم واخراجه من مفاهيم الإسلام.

ثالثاً: فرض المصرف الربوي وتحطيم الاقتصاد الإسلامي.

رابعاً: حجب الشريعة الإسلامية وفرض القانون الوضعي.

لقد قدم الغرب أيدلوجياته وعلومه التي طبقها في بيئة خلت من الدين كلية علىٰ أثر وقوع الخلاف بين قادة الفكر الغربي وبين المسيحية ممثلة في الكنيسة دون تقدير لنظرية أوسع إلىٰ

مفهوم الدين خارج نطاق المسيحية. ومن ثم كانت سيطرة المنهج الغربي المادي الذي تمثل في الفكر الليبرالي الرأسمالي ومن داخله ظهرت نظرية دارون ـــ في التطور البيلوجي ثم تحولت علىٰ أيدي سبنسر وغيره إلىٰ التطور الاجتماعي المطلق ـــ نظرية فرويد في النفس نظرية دوركايم في الاجتماع، نظرية ديوي في التربية، نظرية ميكافيلي في السياسة، نظرية البرجماتزم (   ) في الأخلاق، كما ظهرت نظرية المادية في تفسير الحياة (لا إله والحياة مادة) ونظرية التفسير المادي للتاريخ، وأصبح الدين أفيون الشعوب، وأصبحت القيم مجرد انعكاس للوضع الاقتصادي، والأخلاق متغيرة بتغير المجتمع الصناعي، والتربية والأخلاق قيم غير أصيلة في الحياة.

وقد قامت أيدلوجية الفكر الغربي (الرأسمالية) ورد فعلها (الماركسية) في سبيل هدف واحد هو سيطرة الحضارة علىٰ الأمم جميعا وفق مفهوم استعماري مختلف في تفصيلاته ويتفق في غايته، وكانت نظرية الاستعلاء بالجنس والعنصر واضحة في الغرب كله وفي المانيا وفي الصهيونية، كذلك فكرة عبادة القوة والغريزة، وكان للاندفاعية المعاكسة للرهبانية نحو ثورة الجنس أثرها في ظهور قضايا تاليه الإنسان، امبراطورية الربا وعبادة الذهب، انكار الآخرة والبعث، سقوط الغيرة ازاء المرأة، سقوط الرحمة ازاء الآباء والكبار وعبادة الأجساد والعرى ونظرية الجنس التي قدمها فرويد وشيوعية المال والنساء، مما يوحي بانه عودة إلىٰ مفاهيم

الامبراطورية الرومانية وجمهورية افلاطون وشرعية الرق مغلفة بأغلفة خادعة .

وكان دور كايم هو الذي نقل مفاهيم الماركسية من مباحث الاقتصاد والسياسة إلىٰ مباحث الاجتماع والأخلاق وخلاصة مذهبه أن الفرد لا قيمة له ولا معنى للتشبث بالحرية الفردية وانما القيمة كلها للمجتمع الذي يخلق الأديان والقيم الروحية والعقائد وكلها عبث لا قيمة له ما لم تكن نظاما من نظم الاجتماع (العقاد) .

لقد جاءت النظرية المادية الجدلية (هيجل) لتقضي النظرية الميتافيزيقية وترى أن الطبيعة في حالة تغير دائم وحركة مستمرة وتجدد متواصل وتطور لا ينتهي بعكس النظرية الميتافيزيقية وعن نظرية هيجل جاءت نظرية المادية التاريخية التي حمل لوائها ماركس وتجلت الموجة المادية الالحادية التي تنكر الأديان وتنكر الخالق وتحبس نظر الناس وتفكيرهم في مسائل العيش المادي وحدها ونزوة التفسير الديني للتاريخ وحركاته وتحمل الإنسان علىٰ أن يقنع من حياته علىٰ الأرض بان ينال حاجات الجسد كأي حيوان دون التطلع إلىٰ حل مشكلات الفكر والاعتقاد، وكانت شاراتهم هي ما تردده الماسونية مما قاله برنسو : أن عدونا الأول ليس الارستقراطية وليس الملك وليس الكنيسة ولكنه هو أولا الدين.

ومن ثم نرى تلك النزعة الإباحية في كتابات هافلوك اليس ونتيشة وفولتير ، وبيكاسو هذا الذي يسمونه روائع الفكر العالمي

ليس إلا مجموعة من قصص الجنس والاغتصاب مما كتبه البيركامو وسارتر وفرنسو ساجان سومرست موم وقصص ازهار الشر، وصورة دون جراي وعشيقة اللورد شترلي.

وجاءت دعوة الوجودية علىٰ يد سارتر ترمي إلىٰ التلبية المطلقة لرغبات النفس حتىٰ تنمحي من ضمائر الناس شعورهم بالاثم.

وكانت كتابات اليهود في مجال العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية في المراحل الأخيرة من أخطر محاولات تحقيق أهواء الماسونية واللهونـة في تدمير المجتمعات.

والشيء الخطير أن ذلك كله قد نقل إلىٰ أفق الفكر الإسلامي فكان له بريق خلاب، وقد تشكل له جيل يؤمن به ويدعو إليه ولكن سرعان ما كشفت حركة اليقظة الإسلامية فساد هذا المنهج كلية وكان لابد من مواجهته.

الفصل الخامس
تحفظات علىٰ منهج الغرب في البحث العلمي

في دعوى عريضة يحاول رجال الفكر الغربي الادعاء بأنهم منهجيون، ملتزمون بالعلمية والعقلانية في البعد عن أهواء الوجدان وعواطف البشر، يقدمون آرائهم في قالب من الموضوعية المحفوفة بكثير من النصوص والمراجع، ومع ذلك فإن منهج الغرب في البحث العلمي يقوم في حقيقة علىٰ الظن وهوى النفس ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾

ذلك لأنهم حين تركوا منهج الدين وأخلاقياته انفتح الطريق أمامهم إلىٰ أهواء البشرية، التي ربطت بينهم وبين الفكر اليوناني والروماني الوثني القديم القائم علىٰ طفولة البشرية وركام الفلسفات القديمة ولا أدل علىٰ ذلك من أن يعتمد عالم علىٰ أعلىٰ مستوىٰ في الموضوعية مثل فرويد علىٰ الأساطير القديمة ليقيم عليها نظرياته.

ولا ريب أن النظرية البشرية التي يقوم عليها الفكر الغربي تتمثل في ثلاث أسس ضرورية:

الأولىٰ: عدم القدرة علىٰ استيعاب العصور والبيئات والقصور الدائم علىٰ مرحلة من عصر أو بيئة.

الثـــاني: العجز عن العطاء المستمر فسرعان ما يصيب النظرية العطب نتيجة متغيرات الزمن والبيئة.

الثـالث: ظهور طابع الهوى والمطامع البشرية الخاصة.

وعند المقارنة بين الفكر الغربي البشري (الذي قدم منظومة القواعد والقيم والمقومات التي تضطرم بها آفاق المجتمع والسياسة والاقتصاد في الغرب وبين مفاهيم الفكر الإسلامي المستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة تجد فوارق واسعة وعميقة.

أولاً: قيام الفكر الغربي علىٰ مفهوم الخضوع لروح العصر.

ثانيـــاً: اخضاع العلوم الانسانية لمفاهيم المادة.

ثالثـــاً: الانشطارية، وتمزيق تكامل المفهوم الانساني الجامع بين الروح والمادة، وقيام الفلسفة المادية أساسا.

رابعـــاً: فكرة التطور المطلق وخضوع الأخلاق للتطور بينما يقوم مفهوم الإسلام علىٰ قاعدة الثوابت والمتغيرات.

خامساً: فكرة التقدم المادي وحده بينما يؤثر الإسلام مفهوما جامعا للتقدم: معنويا وماديا، ويقدم الجمالي علىٰ الأخلاقي في الفن.

سادساً: فكرة حرية الجنس والتحلل والترف بينما يقوم الفكر الإسلامي علىٰ الأخلاق والعفة والضوابط.

سابعـــاً: فكرة المسئولية الجماعية بينما يقوم الإسلام علىٰ أساس المسئولية الفردية.

ثامنـــاً: تناقض الفكر الغربي الواضح بين مذهبين احدهما

ينطلق من الارادة الانسانية حتىٰ يصل إلىٰ حد الادعاء بالارادة البشرية المطلقة للكون كله، والثاني ينطلق من الجبرية الاجتماعية حتى يصل إلىٰ الضياع والتمزق.

ولقد كان انخداع المسلمين بما يسمىٰ منهجية البحث العلمي في الغرب هو أخطر ما في الموضوع كله فقد كان الإسلام هو الذي وضع أساس البحث العلمي، ولذلك افاق علىٰ أساس نزيه بعيد عن الهوىٰ والظن، وكان أول قواعده الاعتراف بفضل من سبقوا في ميدان العلم وتقديرهم والتنويه بفضلهم غير أن الغرب حين نقل هذا المنهج حجب فكرة الانصاف والاعتراف بالفضل من ناحية ثم أخذ يحاكم الفكر الإسلامي إلىٰ مناهج مليئة بالتعصب والحقد وتجاهل القدر العادل في إيجابية العطاء الإسلامي والعض من قدره عن قصد واضح، يقوم علىٰ فكر مسبق، هو الخصومة والرغبة في تشويه الحقائق.

وقد كانت محاكمتهم للتاريخ الإسلامي والفكر الإسلامي وفق مناهجهم عملا يراد به تعليل قدر الدور الإسلامي الذي لا يمكن أن يدرس بمنهج مادي واطفاء ضوء التاريخ ونوره الذي يبعث في نفوس المسلمين الإيمان الحق، وفي هذا يقول اتيان دينيه: انه من المتعذر ان لم يكن من المستحيل أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة، وانهم لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبي والصحابة مبلغا تغشى علىٰ صورتها الحقيقة من شدة التحريف فيها وذلك رغم ما يزعمون من اتباعهم

لأساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمي الجاد.

إن الانحراف الذي وقع فيه الفكر الغربي نحو الفلسفة المادية كان خطيرا التفسير المادي للوجود، التفسير المادي للتاريخ، التفسير المادي للحياة،
وجد اتفاقا ومصادفة، معيار التجربة الحسية وحدها، لا مجال للفكر الذي يحاول تجاوز عالم الحس إلىٰ ما وراءه.

لقد كان أخطر ما أصاب الفكر الغربي هو ذلك الانفصام الحاد بين العقل والروح من جهة والانطلاق في اتجاه الشهوات وقد رده العلماء الغربيون أنفسهم ومنهم وليم جيمس إلىٰ انكار الفرد عقيدته الدينية أو ما سماه غريزته الدينية حقها وطبيعتها وتجاهله لأهميتها والدور الذي تقوم به في السلوك الإنساني.

ولقد أكد كثيرون أن الالحاد ينبعث من العقائد التي تضد الفطرة وتعارض العقل وتصادم طبائع الأشياء وان الالحاد في الفكر الغربي مصدره علىٰ رأي أكثر مفكري الغرب انما يرجع إلىٰ تعقد اللاهوت المسيحي واستحالة قبوله عقليا في مفهوم التثليث والصلب والخطيئة.

ولقد كان للنظرية المادية التي أوجدت التحليل النفسي القائم علىٰ الجنس أثرها في الأدب وفي القصة بالذات وفي اشاعة مفاهيم العرى والحيوانية.

وكان للمسيحية اثارها في النظرة الفردية إلىٰ الانسان التي نشأ

عليها المنهج الليبرالي والحرية الفردية والاقتصاد الرأسمالي، وكانت الخطيئة الأصلية مصدر الفكر الوجودي.

وقد جعل مفهوم التطور الغربي قيم الأخلاق والعقائد مجموعة من المبادىء النسبية أي انها لم تعد حقائق مطلقة حيث انها تتطور وتتطور إلىٰ مالا نهاية.

كذلك فقد عرف الباحثون (الوجوديات الحديثة) علىٰ أنها تعبير عن الفراغ النفسي المخيف الذي يجتاح الناس في الغرب كذلك فإن أخطر مقابل الفكر الغربي قصد الفصل بين المنهج والتطبيق.

الفصل السادس
منهج الإسلام في العلم والمعرفة

أما الإسلام فإن له منهجه الأصيل الجامع في مجال العلم والمعرفة المتميز عن منهج الغرب والمخالف له في عشرات المواضع.

وأبرز مميزاته شمول النظرة إلىٰ الإنسان بوصفه قبضة الطين ونفخة الروح وبغض النظر عن جنسه ولونه ودينه والتوفيق بين الفردية والجماعة وجمعه بين الالهي والبشري وذاته الخاصة التي تحول به دون الانصهار في الأديان والمناهج والأيديولوجيات.

والإسلام يفرق بين المعرفة والثقافة، فالمعرفة عالمية والثقافة خاصة لكل أمة ثقافتها، وليست الشورى هي الديمقراطية وليس العدل الاجتماعي هو الاشتراكية.

مفهوم التقدم في الإسلام: مفهوم جامع: مادي ومعنوي وليس تقدماً ماديا خالصا والنجاح المادي يقره الإسلام ويرتضيه ولكنه لا يراه غاية في ذاته، والإسلام لا يعارض التقدم بل يدفع إليه دفعا ولا يقر الإسلام العصبية الجنسية أو العصبية الاقليمية.

ولا يقر الإسلام فكرة التطور الدائم ولا التفسير المادي أو الاقتصادي أو الجنسي للإنسان ولا يقر الاستشهاد بعالم الحيوان في دراسة الإنسان.

.وقد رفض الإسلام فكرة الرهبانية والهروب من الحياة وتحرير الإسلام العلوم الانسانية من المقاييس المادية حيث أن ميدان النفوس لا يخضع لما تخضع له العلوم التجريبية.

ولا يطلب من الإسلام أن يبرر أوضاع المجتمعات والحضارة، بل يطلب إلىٰ المجتمعات الالتزام بالضوابط والحدود التي أقامها الإسلام وقد اعترف الإسلام بالرغائب البشرية وأباحها في اطار ضوابطها الشرعية والأخلاقية وقدر مدى الطاقة

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

وقرر الاعتراف بالخطأ والرجوع إلىٰ الحق متى تبين وحث علىٰ الاجتهاد وقرر أن للمخطىء أجران إذا أصاب وأجر إذا أخطأ ودعا إلىٰ عدم الانخداع بالأوهام أو قبول الظن ودعا إلىٰ استعمال العقل وسؤال أهل الذكر.

ودعا الإسلام إلىٰ البرهان والدليل ونهى عن تحكيم الهوى أو العصبية في الكشف عن الحقيقة، وأعطى العقل الانساني مهمته وحدوده وقدرته وجعله خاضعا للوحي، وأمر بعدم كتمان العلم ودعا إلىٰ اذاعته في الناس وجعل طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم ومسلمة وفرض علىٰ الأمة أن ترتب أقواما لتعليم الناس وفضل العلم علىٰ العبادة.

ويقرر الإسلام أن لكل قيمة وجهان متكاملان: مادي

ومعنوي ولا انفصال بينهما، وقرر أن العقل أداة تهدى بنور الوحي.

ويمكن تبيين الفرق بين منهج الإسلام والمنهج الغربي البشري في تميز الإسلام بطوابع: الربانية، والانسانية، والعالمية.
وفي الفرق بين التكامل الجامع في الإسلام وفي الانشطارية في الفكر الغربي وفي التفرقة بين الفلسفة والعلوم والتفرقة بين الأخلاق التي هي من قيم العقيدة وبين العادات والتقاليد التي هي من تحولات المجتمعات البشرية.

ويقيم الإسلام منهجه الاقتصادي بعيدا عن الربا والصراع الطبقي ويحدد وجوه التعامل بما تحفظ المجتمع من الفساد والإباحية ويبني الأجيال علىٰ أساس التماسك والقدرة علىٰ حماية الزمار ومقاومة الناصب والمرابطة في الثغور واقامة مفهوم الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن ذلك حماية الذاتية الإسلامية من الانصهار في الفكر الوافد والوقوف في وجه حضارة الغرب ورفض النموذج الغربي بشقيه وذلك بعد أن عجزت الحضارة الغربية عن حمل أمانة العدل والرحمة والاخاء البشري واستبدلت ذلك كله بان قذفت في نفوس الناس الخوف والجزع وجرت كل مجرى في سبيل تقديم منهج بشري في أيديولوجيات فردية وجماعية لم تحقق أشواق النفس وعجزت أن العطاء الحقيقي وقد كان علىٰ الفكر الإسلامي بعد أن طرح الفكر الغربي مفاهيمه وقيمه المضطربة في أفق المجتمع

الإسلامي أن يكشف هذا الزيف.

وأن يحدد تراث النبوة، وأن يدحض سموم القاديانية والبهائية والماسونية والمهاريش وغيرها من الدعوات الضالة.

وكان لابد ان يكون واضحا أن للفكر الإسلامي مقاييسه الخاصة في أمور الثقافة والبحث العلمي والتاريخ والتي تختلف اختلافا واضحا عن مفاهيم الفكر الغربي لانها مستمدة من القيم الأساسية للإسلام وهي القيم التي عرفتها أمتنا منذ أربعة عشر قرنا بينما هذه المفاهيم الوافدة قد اقتحمت آفاق فكرنا بالباطل وبقوة النفوذ الاجنبي وأولياته منذ مائة عام فقط وهي لم تجد قبولا ولا تقبلا.

إن مناهج الغرب هي وجهة نظر خاصة وقاصرة ومحدودة وهي فروض قابلة للخطأ والصواب مستمدة من ثقافة مختلطة وتجربة قليلة، لا يمكن أن تمثل فهما عالميا يمكن تقديمه للبشرية لحل مشاكلها لانها منحازة من ناحية وتغلبها الأهواء ومطامع الصهيونية التي كشفت عنها البروتوكولات في هدم القيم الانسانية للسيطرة علىٰ العالم.

ولا شيء أخطر في المنهج الغربي من افتقادة الربانية والإيمان بالله وهي أعظم مقومات مناهج الحياة وبناء المجتمعات والحضارات، وقد خلت منها الأيدلوجيات المعاصرة تماما ولا توجد عند أمة غير الأمة الإسلامية من خلال منهجها الرباني القرآني

المنزل وهذه هي علامة الأمة الوسط (والوسط في لغة العرب الخيار والأفضل والأكمل) وخيرية هذه الأمة في قدرتها علىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولقد استطاعت الأفكار الملحدة والاباحية أن تهزم كثيرا من الديانات والملل والنحل وأن تحويها ـــ كما فعلت الفلسفة اليونانية باليهودية والمسيحية ـــ وغزتها في عقر دارها ولكنها تعد حائرة أمام الإسلام الذي قد شكل جوهره علىٰ نحو يجعله قادراً علىٰ الابتعاث لتصحيح مساره وتحرير فكره عندما تحاول أن تحتويه الأممية العالمية، وأن محاولة الغرب اليوم في الافساد الأخلاقي المنظم وتقديم البدائل الفكرية ذات الولاء للوثنية الحديثة وخلق أجيال ذات ولاء لحمل لواء التوحيد، هذه المحاولة سوف تنهار بعد ان دخلت الأمة الإسلامية مرحلة الرشد الفكري وتكشفت لها مخططات الغزو الفكري والتعريب الذي تقوم به مؤسسات الاستشراق الغربي واليهودي والماركسي جميعا ولن تستطيع نظرية العلمانية أن تقوم بديلا للمنهج الإسلامي لأن الإسلام بطبيعته قد بنى علىٰ نظام جامع للدين والدولة معا.

ولقد تميز الفكر الغربي بميزتين أساسيتين في بناء قاعدته السياسية الميكافيلية ـــ العنصرية

وقد أعلن نابليون أن كتاب الأمير لميكافيلي هو الكتاب السياسي الوحيد الذي يستحق القراءة، أما العنصرية فهي قديمة قدم مفهوم الرومان (رومان سادة وما حولها عبيد).

وإذا كان الفكر الغربي قد أعلن مخالفة للفكر الروماني في شرعية الرق فإن ما حدث حين استرق الغرب هنود أمريكا، أو ثم نقل الأفارقة إلىٰ أمريكا في مؤامرة خطيرة، محيت منها شخصية الإنسان، فإن الفكر الإسلامي يختلف عن ذلك اختلافا كبيرا، يقول دكتور حامد ربيع: انه يرفض التقاليد الأوربية في تعصبها للفردية ويرفض الماركسية في تأكيدها لسيادة العنصر الاجتماعي والغاء الفرد ويرفض النازية أو الفاشية كنتيجة لمبالغتهما في تأكيد العنصرية ومن هنا فإن الفكر السياسي الإسلامي مؤهل لأن يؤدي وظيفة عامة للإنسانية في السنوات القادمة.

ومن قواعد العلم الإسلامي سد الثغرة بين العلم والأخلاق، والتوازن بين عنصري المادة والروح، وأخلاقية الحياة والعلوم وقد رفض المسلمون بعض الفروع العلمية منفصلة عما يعتقده الإسلام هدفا وتفسيرا لوجوده، فضلا عن أن معرفة الله تبارك وتعالىٰ هي الأساس الحقيقي لجميع العلوم والتجارب وفي منهج البحث العلمي تميز المسلمون بالتسامح مع الفئات المختلفة التي كانت تحيا في ظل المسلمين، فضلا عن الروح العلمية علىٰ قاعدة السعي وراء المعرفة من أجل المعرفة لا من أجل النفع المادي الذي يتحصل من ورائها.

كذلك فقد رفض الإسلام فكرة تجزئة الإنسان وتمزيقه إلىٰ وحدات معزول بعضها عن بعض، لأن ذلك يتناقض مع الفطرة

الانسانية إذ أن الإنسان في مفهوم الإسلام غير قابل للتجزىء والفصل وملكاته متعاونة متكاملة، كما رفض الإسلام مفهوم الجبرية التي تقول أن الإنسان ليست له إرادة ويقرر إرادة الإنسان الفعالة، كذلك فلا يقبل الإسلام مفهوم مسئولية المجتمع ويرفض الإسلام حرية الغريزة وانطلاق الشهوات وهو ينظم العامل مع اشواق الإنسان وفق ضوابط حاسمة لا تحرمه من رغباته ولكنها تحول دون تدمير نفسه أو مجتمعه.

ويقف الإسلام في قوة أمام ثبات:

(**أولاً**) الأخوة البشرية والعدل الاجتماعي.

(**ثانيـــاً**)الالتزام الأخلاقي والمسئولية الفردية.

(**ثالثـــاً**)ازاء تحريم الربا ومحرمات الخمر والقتل والميسر والزنا.

الفصل السابع
تراجع العلم بعد عجزه
عن تقديم الحقيقة الشكلية

خطران يجب التنبه إليهما في دراسة ظاهرة سيطرة العلم في الفكر الغربي

الأولىٰ: هي عجز العلم عن دعواه العريضة وتراجعه عن أطماعه في أن يحل محل الدين أو أن يقدم للحياة البشرية منهجا كاملا.

الثاني: هو عجزه عن تطبيق النظريات المادية علىٰ العلوم الانسانية وانكشاف الفوارق العميقة بين العلوم والفلسفات.

ولقد كان أخطر ما أصيب به العلم هو تمزقه بين الاتجاه العقلي والاتجاه التجريبي.

لقد غلب علىٰ الفكر الأوربي روح الغرور لتقدم العلوم المادية والصناعات في أوربا مما دفعه إلىٰ الاحساس بالتسلط والسيطرة علىٰ النحو الذي أدى إلىٰ ظهور مفهوم التعسر المادي الذي يقول انه ليس ثمة في العالم إلا المادة وقوانين تطويرها وان العقل هو اسمىٰ نتاج المادة والعالم لم يوجد إلا اتفاقا ومصادفة.

وكان الخطر الأكبر في اعتبار دعاة المادية الغلاة أن الفلسفات هي من نتاج العلم، وان في الامكان فرض المنهج التجريبي الجاف

علىٰ العلوم الانسانية والتاريخ وغيره.

كما كانت قد استغلت نظريات الصدفة والجبرية والحتمية، والحركة الدائمة والتطور المطلق والادعاء العريض بان الطبيعة صنعت وكل هذا كان انكاراً للمفهوم الرباني للعلاقات بين الكون والمجتمع والإنسان ومضادة للفطرة الانسانية ولطبيعة النظام المتداخل الجامع لهذه العوالم كلها.

ولكن سرعان ما تكشف العلم غروره وتبين أن ليس ثمة حقيقة في أي ميدان من ميادين العلم المادي أو الحيوي يمكن أن يفسر بها العالم كله،

وكان إنكار الله تبارك وتعالىٰ، واعلاء المادة والطبيعة دليلا علىٰ قصور شديد في الاحاطة بالمنظومة الكونية كلها، وكان لابد ان قوانين الفطرة المترابطة الكاملة الجامعة للإنسان والكون من أن تكشف فساد وجهة العلم وغروره في دعواه الكلية.

وكان لابد من التراجع أمام نظرية أن الرياضيات هي مفتاح الكون أو أن الفلسفة المادية قادرة علىٰ اعطاء منهج حياة ونظام مجتمع، أو أن الفصل بين القيم يمكن أن تسير معه الأمور سيرا طبيعيا. وكان هذا يعني الكفران بمنهج الله وانكاره (وما يزال الذين كفروا تصيبهم قارعة بما عملوا أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله)

ومن ثم أخذ رجال العلوم يعيدون حساباتهم علىٰ أساس أن

مهمتهم لا تتعدى حدود دراسة ظواهر الأشياء وان العلم عاجز عن حل لغز الحياة والوجود وأن هناك أسلوب آخر للمعرفة لن يتم فهم الحياة إلا بمعرفته وهو الدين = ليس الدين الذي عرفوه ولكنه الدين الحق بمصادره الصحيحة.

كما تحطمت فكرة أن الأسلوب العلمي هو الأسلوب الوحيد الناجع لاكتساب المعرفة عن الحقيقة، وأن هذا الأسلوب ــ أسلوب مرحلي لهذا العصر ــ ولكنه ليس أسلوبا عاما لكل العصور.

وكان هذا ضربة مسددة إلىٰ غرور الذين كانوا يدعون أن الأسلوب العلمي هو الأسلوب الوحيد الناجع لاكتساب المعرفة وانه لا حاجة بعد اليوم للدين، ولقد تبين بمزيد من الوضوح أن منهج الإسلام الجامع بين منهج العلم والعقل من ناحية ومنهج المعرفة والروح من ناحية أخرىٰ هو أصدق الأساليب.

وقد أعلن عشرات من العلماء البارزين بمنتهى الثقة حقيقة مؤداها أن العلم لا يقدم للناس سوى معرفة جزئية عن الحقيقة وأن علينا لذلك أن لا نغير وأن تغيير كل شيء يستطيع العلم تجاهله هو وهم من الأوهام، ولقد علت اليوم صيحة أن للعلم حدوداً وأن الحقيقة مؤداها أن العلم لا يقدم لنا سوى معرفة جزئية من الحقيقة الكبرى وبالمقابل فإن الأجزاء الأخرىٰ من الحقيقة تكشف بالضرورة عن عجز العلم عن الاحاطة وهنا تبدو القيمة الحقيقية للدين الحق.

لقد أعلن العلماء: «لقد انتهى العصر الذي اتخذ العلم فيه الها» عصر الوثنية العلمية التي مسخت الإنسان وأذلته وحولته إلىٰ مجرد تابع ذليل للقوانين والنظريات جاء هذا الاعلان بعد مضي ستون عاما منذ صرح تندل في بلفاست بان العلم وحده قادر علىٰ معالجة كل مشاكل الإنسان الأساسية، ولم تمض بعد عشرون سنة حتىٰ قال برتراند رسل: أن استقرار الإنسان لا يمكن أن يبنى من الآن فصاعدا إلا علىٰ أسس متينة لا يتطرق إليها الفساد) كل هذا قد تحطم، فإن الحقيقة الوحيدة التي كانوا يعتمدون عليها هي المادة والحركة، ولكن النظرية التي تقول بمحاولة تمثيل الطبيعة على انها مادة وحركة قد باءت بالفشل بعد ان تبين أن المادة تتحول إلىٰ طاقة والطاقة تتحول إلىٰ مادة.

كان العلم في نظر هؤلاء الأسماء اللوامع (مندل ورسل وداروين وماركس ودوركايم) هو بمثابة الصنم الذي يطوفون حوله.

ولكن بمرور عقود قليلة من الزمن تهاوت الاعتقادات القديمة وتعرت الحقائق وتبين أن العلم ليس هو كل شيء وأن مفتاح الكون كله ليس بيديه وانه ليس بمقدور أكبر رياضي العالم أن يقول لنا كيف يستطيع عقله أن يفاضل أو يكامل بين الأرقام».

لقد جاءت هذه الحقائق بعد أن اغشت الأكاذيب عيون الشباب أجيال وأجيال فتنتهم عن دينهم، وخدعتهم، هذا ما بينه (سوليفان) في كتابه الجديد: هذا الانحسار الشامل عن العلم والانطفاء غير المتوقع لوهجه بعد ان اعشى عيون أجيال وأجيال

وكيف أن العلم ليس حقائق نهائية لا تقبل نقضا ولا جدلا.

ويقول الدكتور عماد الدين خليل الذي ترجم هذه النصوص:

إن في الكون لطاقات مذخورة هائلة ليست الكهرباء والذرة سوى مؤشرين عليها فحسب، وان علىٰ الإنسان أن يحث خطاه إلىٰ مزيد من الكشف والتنقيب وان من يقرأ في القرآن الكريم الآيات الخاصة بتسخير الطاقات الطبيعية لسليمان عليه السلام يعرف كيف أن هذا التسخير كان بمثابة خدمة كبيرة جدا، وعرف أن كتاب الله جاء يفتح أعين الناس وعقولهم إلىٰ ما ينطوي عليه الكون من طاقات وقدرات وأن العلماء الكبار لا يزالون يقفون علىٰ الأعتاب لقد ألموا بجوانب من تأثيرات الكهرباء ومؤشرات عملها، أما كنهها، تركيبها، ماهيتها، فلا يدري أحد شيئا، لقد طأطأ العلم الرصين رأسه وسلم بالواقع بعد ان تجاوز مرحلة مراهقته العنيفة، سلم بان معرفة الأجسام الفيزيائية علىٰ حقيقتها ما هي إلا مجرد وهم من الأوهام».

هذا من ناحية العلم، أما القضية الأخرىٰ الأشد خطورة فهي اعتماد الفلاسفة إلىٰ هذه المعلومات الضئيلة التي قدمها العلم ليتحروا منها أساسا بينوا عليه فلسفة حياة وأيديولوجيات فقد كان ذلك غرورا شديدا، لأنه سرعان ما اعتورت هذه (الفروض العلمية) الأخطاء ومن ثم سقطت الأيدلوجيات والمناهج التي ظنوا انها ستكون خالدة.

ويصور هذا الدكتور عماد الدين خليل فيقول:

فلاسفة وأدباء حاولوا أن يتكئوا علىٰ معطيات العلم كحقائق مسلمة منزلة من السماء وأن يبنوا عليها فلسفاتهم ورؤاهم لكي يضفوا عليها صفة العلمية، ويتغير العلم، ويتغير الأساس فإذا نظرياتهم تتهاوىٰ الواحدة بعد الأخرىٰ.

هذا ما حدث بالكثير منها في حقول الاجتماع والاقتصاد والنفس وأن (المادية التاريخية) التي أقامت صرح نظريتها علىٰ معطيات العلم في القرن التاسع عشر والتي سميت بالعلمية، ما لبثت أن تعرضت في القرن التالي وبخاصة في العقود الأخيرة لكثير من الهزات العنيفة لأن الأساس الذي بنيت عليه أخذ يتأرجح ويتمايل وتتهاوىٰ بعض جوانبه وإذا كان أبناء المختبر والتعامل التجريبي مع المواد والظواهر والأجسام يعترفون بان أحكامهم ليست نهائية وان ما تمكنوا من قطعه لم يتجاوز بدء الطريق إلىٰ الحقيقة، فما لهؤلاء الأدباء والفلاسفة الذين لم يدخلوا مختبرا ولم يجربوا ظاهرة يدعون بنهائية أحكامهم وثباتها وديمومتها تلك دعوى المادية الديالكتيكية العريضة وأنها تعرف جوهر الأشياء وقوانين تطور العالم ــ أن هؤلاء أكثر غرورا من العلماء التجريبيين الذين عادوا إلىٰ القوانين الطبيعية التي تحكم الحرارة والحركة والضوء وكل ما في عالم المادة من كهارب وذرات فوجدوا أن لها قانونا واحداً هو: الخطأ والاهمال.

وها هو (هايزنبرج) صاحب نظرية الخطأ الاجتماعي في قوانين

الطبيعة يقول: ان تجربتين في أية قاعدة من قواعد العلم الطبيعي لا يحققان نتيجة واحدة بالغا ما بلغه المجرب من الدقة».

وهكذا تنقض الوقائع غرور العلم، أما دعاوى الفلاسفة الذين اتخذوا من العلم قاعدة لفكرهم المادي فستواجهه في فصل مستقل.

●●●

(٢) قضية الحتمية:

ظلت قاعدة السببية التامة تشكل قاعدة رئيسية في مجال العلم وقتا طويلا، هذه القاعدة الحتمية قد تصدعت اليوم لتأخذ مكانها قاعدة اللاحتمية فقد وصل العلم إلىٰ قاعدة انه لا مسلمات نهائية ان عصر الاتكاء الكلي علىٰ حقائق معينة قد انتهى وحل محله اعتقاد سائد أخذ يتسع شيئا فشيئا.

إن المادية الديالكتكية مثلا أقامت بنيانها في بعض جوانبه علىٰ أسس المعطيات العلمية للقرن التاسع عشر وقد تبدلت تلك الأسس وتغير الكثير من تلك المعطيات ومازال اتباع التفسير المادي يصفونه بالعلمية وما يقال عن التفسير المادي يمكن أن يقال عن معظم النظريات الفلسفية والنفسية والاجتماعية وجل الآداب والفنون نهضت علىٰ تلك الأسس المتغيرة والواضح أن الظاهرة الذرية تمردت علىٰ السببية التي اتكأ عليها العلماء في حقول الفيزياء والتي شكلت افتراضا أساسيا في العلوم.

إن نوعا من العلاقات الذرية أخذ يحل محل القاعدة الحتمية التي تعرضت للتصدع، وان كان التركيب المادي ـــ الذري نفسه يتجاوز الحتميات صوب الحرية فكيف يتسنىٰ لنا أن نخضع الحياة البشرية في صيغتها الفردية والجماعية لنوع من الحتمية الصماء، ومعنىٰ هذا التحول انه سيظهر نوع من التقارب بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، والحضور والغيب، والمادة والروح، والقدر والحرية وستلتقي معطيات العلم مع حقائق الدين في عناق حار وستنهار الحواجز المادية وتمتد الحرية إلىٰ صميم التركيب الذري وحيث يقف الإنسان سيد العالم وخليفة الله في الأرض حرًا في أن يتحكم في الطبيعة التي سخرت له، بدلا من أن تتحكم هي به كما صورت فلسفات الحتمية في القرن الماضي.

ويقول سولفيان: ان العلم قد بلغ المرحلة الخطيرة: المرحلة التي يلتقي فيها المادي بالروحي، في وفاق وانسجام ويتصالح الإنسان مع الطبيعة.

لقد انتقل العلم من الحسم إلىٰ الاحتمال في قضايا كثيرة مثل مادية العالم ورفض الغيب أو ما وراء المادة مثل قولهم (لقد أثبت العالم اثباتا قاطعا بانه لا وجود لعالم غير مادي، لعالم الغيب، للعالم الآخر، ومن غير الممكن أن يكون له وجود طالما ليس هناك أي شيء غير المادة) لقد سقط هذا فقد كشف العلم أن هناك عالما خفيا تذهب إليه الأشياء وتأتي منه بعد أن تحطمت نظرية المادة والطاقة وأصبحت المادة تتحول إلىٰ طاقة والطاقة إلىٰ مادة.

(٣) قضية إنحياز العلم وحياده

لقد عولجت هذه القضية في السنوات الأخيرة بما كشف انحياز العلم فالعلم الذي يقدمه الغرب هو علم غربي يتحرك في اطار مفهوم الرأسمالية وأيدلوجية الليبرالية أساسا وكذلك العلوم الاجتماعية الغربية تعمل علىٰ فرض مفاهيم تخدم الرأسمالية والنفوذ الاستعماري وكذلك استخدم علم النفس الفرويدي ونظرية دارون في سبيل هذا الهدف وكذلك نظرية الأجناس بما يريد الغرب أن يقول بان هناك أجناس سيادة وأجناس مسودة، وما يتصل بدعوى الجنس الأبيض صانع الحضارة وما يتصل بالسيطرة علىٰ المناطق الذاخرة بالمواد الأولية، ومفاهيم معاملة الملونين في استغلال بشع لنظريات دارون وجوبنيو وغيرهم.

وكذلك فإن ما يسمىٰ علم الأنثروبولوجيا أو علم الإنسان قد وضع علىٰ أساس خدمة النفوذ الأجنبي وكان لبعض خبراء الاستعمار دور تاريخي في توجيهه لاستغلال شعوب العالم الإسلامي وذلك تحت شعار التقدم وتبني قضايا الإنسان المقهور.

كذلك فقد أشار الباحثون إلىٰ تاريخ العلم نفسه يفجر أسطورة حيادة فالحقيقة العلمية ليست حقيقة مطلقة ولكنها حقيقة قائمة علىٰ افتراضات متغيرة ومعلومات متجددة، هذه الافتراضات العلمية نفسها لها ارتباطاتها بأولويات اجتماعية معينة، وأوليات متغيرة، في غضون الحرب العالمية الثانية تبرر الوظيفة

الاجتماعية للعلم فنجد علماء الفيزياء (العلوم الطبيعية) مرتبطون بشكل مباشر ببحوث التسليح ومشروع القنبلة الذرية في أمريكا وتفجيرها في هورشيما ونجازاكي يبرهن عدم حياد العلم وعلىٰ انحيازه وكذلك ارتباط البحوث العلمية في الدول الغربية بالمؤسسات الصناعية وأن أولويات البحث العلمي نفسه تحددها إلىٰ حد كبير المؤسسات الصناعية فالكسب المالي مرتبط بشكل مباشر بأولويات البحث. ان حاجة المجتمع هي التي تتحكم في توظيف العلم وهي التي تفرض أولويات البحث وإذا كان هذا في الغرب فإن في روسيا العلم أكثر تبعية للمذهب الماركسي وخدمة له.

وترى الماركسيين يهاجمون العلوم الاجتماعية وعلم النفس الغربي باعتبارها علوما رأسمالية والعكس يحدث أيضا بالنسبة للنظريات الماركسية، وقد تبين أن كلا المنهجين لا يقوم علىٰ عمل مستقل بل هو في خدمة هدف وكذلك منهج العلوم التجريبية نفسه فهو في الدول الرأسمالية تخدم هدفا وفي الدول الشيوعية تخدم هدف الشيوعية فالعلم أيضا منحاز، ولقد مضىٰ الوقت الذي كان يطلق علىٰ نظريات الفلاسفة علما وعلىٰ ما يتعلق بالإنسان علما بمعنى انه يخضع للمادة وتكشف أن العلوم الانسانية لا يمكن أن تخضع لمناهج المادة.

الفصل الثامن
سقوط النظريات

تكشفت متغيرات المجتمعات والحضارات الغربية عن انهيار وسقوط عديد من النظريات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي صنعها الفكر الغربي لبناء مجتمعه والتي حاول أن يفرضها علىٰ المجتمع الإسلامي.

لقد سقطت نظرية دارون بالأدلة العلمية في المؤتمر الدولي للاعجاز الطبي في القرآن وفي عشرات من المؤتمرات التي عقدها علماء البيولوجيا كاشفين عن قصور النظرية أصلا وعن وجود ما يسمى الحلقة الغائبة التي لم يستطع أن يكشفها دارون في فرضيته المغلوطة عن نشأة الإنسان من فصيلة القرود.

وقد سقطت في السنوات الأخيرة نظريتي الرأسمالية والاشتراكية ودوت صيحة الغرب في المطالبة بنظام اقتصادي جديد بعد أن فسد النظام القائم، كذلك فقد سقطت نظريات مدرسة العلوم الاجتماعية وتبين انها فلسفة زائفة تسن مقوماتها من التلمود، سواء في مجال الأخلاق، أو النفس، أو الاجتماع.

كذلك سقطت في أفق المجتمعات الإسلامية نظرية الاقليمية ونظرية القومية الغربية وتبين انها لم تكن إلا مؤامرات للقضاء علىٰ الوحدة الإسلامية الجامعة حتىٰ يمكن غرس هذا النبت.

●●●

إن نظرية دارون التي كانت منطلقا للفكر المادي قد كشف زيفها ، وأثبت العلم وكشفت الحفريات عن الجماجم والعظام التي دحضت نظرية الصلة بين الإنسان والقرد وعبرت الجماجم عن استقلالية كل عنصر خلقه الله عز وجل أن الإنسان مشى علىٰ الأرض بقامته المرتفعة منذ اليوم الأول.

كذلك سقطت نظرية دارون في النشوء والارتقاء التي كانت تقول أن أصل الحياة جاء من كتلة هلامية خرجت من البحر وأثبتت الأبحاث بالأدلة العلمية خطأ هذه النظرية التي ظلت مسيطرة علىٰ أفكار العالم لعشرات السنين.

ولم يكن في النظرية الدارونية مجال للإرادة الحرة التي قال بها (لامارك) ولذلك أيدها اليهود وأذاعوها لفرض الجبرية التي تمثل فكرهم ولم يكن في الفرويدية مجال للرغبة في التفوق الإنساني التي قال بها غيره وبذلك أيدها اليهود لفرض مفهوم فرويد في الجنس علىٰ علم النفس، ولم يكن في الماركسية مجال للعوامل الأخرىٰ التي تحكم مسيرة التاريخ ولذلك أيدها اليهود لفرض تفسيرهم المادي وقد تبين أن الجنس وحده ليس مصدر التصرفات البشرية وان هناك عوامل أخرىٰ.

وجاء تفجر الذرة مخطئا للنظريات المادية التي تنكر عالم الغيب فإن ما يقرره العلم التجريبي اليوم ان هناك عالم آخر غير مرئي يتصل بعالمنا.

وكذلك تبين فساد فكرة التطور المطلق التي امتدت مفاهيمها في نظريات دارون وسبنسر وما جاء به هيجل من القول بالتحول المطلق بعد نظرية الثبات المطلق التي قال بها أرسطو، وكلاهما مختلف عن مفهوم الإسلام الجامع بين الثوابت والمتغيرات.

●●●

إن نظرية دارون (التي ما تزال تدرس في المدارس والجامعات) قد تكشف فسادها بعد أن اثبتت التجارب والحفريات أنه لا علاقة بين الجنس البشري والأجناس الحيوانية وانه لا توجد علاقة مشتركة بين الجنسين وقد أعلن الدكتور رونالد جونسون استاذ علوم الأجناس البشرية عام ١٩٧٤ أن العلماء يستطيعون الآن أن يقولوا بعد دراسات وتجارب امتدت سنوات طويلة بنسبة ٩٩,٩ بالمائة من الدقة أن الإنسان سار منتصبا علىٰ قدميه منذ أن وجد علىٰ الأرض أي انه بدأ تاريخه الإنساني منذ أكثر من ثلاثة ملايين سنة بعد أن عثر علىٰ مجموعة من العظام يرجع تاريخها إلىٰ ثلاثة ملايين سنة، وكذلك ظهرت عظام ترجع إلىٰ خمسة ملايين سنة وكل هذا يشير إلىٰ أن الإنسان القديم كان يسير منتصب القامة منذ أكثر من ثلاثة ملايين سنة ويؤكد العالم الفرنسي جان بيفتو رئيس المجتمع العلمي الفرنسي سابقا بعد ان أوقف من عمره نصف قرن لدراسة أصل الإنسان: أن الإنسان ليست له علاقة تجانس بالقرد، وان كل المشابهات بين القرد والإنسان غير كافية لنجزم بوجود أصل واحد للإنسان والقرد وهو يرفض هذا

الافتراض لاعتقاده أن الإنسان لم يظهر علىٰ الأرض مجرد صدفة، بل انما كان هو الهدف الأخير من تنظيم الكون ولذلك جاء مركبا في أكمل تقويم أ.هـ.

يقول الدكتور محمد أحمد المسير: تقوم نظرية التطور علىٰ قانون الانتخاب الطبيعي القائل بأن الحياة نشأت بمحض الاتفاق والمصادفة البحتة (دارون) وأن ادعاء المصادفة في نشأة الحياة قول يبرأ منه العلم وتنفيه حقائق الكون فإن النظر في سمائه وأرضه وحيوانه وطيره وبحره وبره وثمره وزرعه كفيل بدحض هذا الافتراء (ذلك بان الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير).

وإذا كان الإنسان عناصر مادية فحسب وليس فيه روح من أمر الله فكيف فشلوا في تحضير الخلية الحية رغم معرفتهم بتكوينها العنصري الكيمائي.

●●●

وقد كشف العلماء أن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميا ولا سبيل إلىٰ اثباتها بالبرهان وأن الذين عارضوا نظرية دارون ونظرية فرويد لا تسلط عليهم الأضواء مع انهم علماء بارزون في هذا المجال قال جراهام كانون أستاذ الحيوان بالنسبة لدارون: ان نجاح كتاب (أصل الأنواع) كان من تلك الخلاب الفاتحة علىٰ نفسية الجماهير حيث يصبح كتاب بعينه بدعة رائجة لسبب

خفي غير واضح.

ويعرض الدكتور موريس بوكاي لقضية خلق الإنسان بين المسيحية والإسلام فيقول: استمد الغرب معلوماته عن أصل الإنسان من تعاليم الانجيل بينما نجد في العالم الإسلامي أن القرآن لم يحو قط ما جاء في الكتب السماوية الثلاث بل أضاف إليها تعاليم خاصة بالإنسان نفسه لا تجدها في الكتب السماوية الأخرىٰ، وعندما بدأ التقدم العلمي اعتمد الإنسان علىٰ المعلومات التي ذكرت في التوراة والانجيل ولكن بمجرد ما عرف الإنسان ما نسميه اليوم بالتفكير العلمي أو حتىٰ مبادئه الأولية نجده بدأ في الشك ومن هنا نجد أن من عرفوا في ذلك العهد بالفلاسفة لم يترددوا في وضع نظريات قامت مع أسس واهنة ضعيفة ففي الغرب ظهر لأول مرة تعارض ما جاء في الإنجيل عن ثبات وعدم تطور الأنواع خلال العصور المختلفة ومن هؤلاء موفون في فرنسا ولامارك بنظريته عن التحول (أوائل القرن ١٩) ولكن أهمها جميعا كان (دارون) الذي ظهر في بريطانيا في النصف الثاني من القرن ١٩ الذي ذكر في كتابه أصل الأنواع، والذي يعد لطمة للإنجيل، ويرجع هذا في رأيي إلىٰ أن آراء اتباعه أكبر مما يرجع للكتاب نفسه، فإن دارون نفسه لم يفلح في ذكر وشرح حالة تحول واحدة من نوع لنوع آخر وقد اعترف هو نفسه بذلك.

إن نظرية دارون التي تنقضها اليوم القواعد العالمية الثابتة.

والقوية كانت تأملات فلسفية أكثر منها علمية، ففي كتابي (ما هو أصل الإنسان) رد العلم والكتب المقدسة، بينت النواقص والعيوب في نظرية دارون واتباعه بما كتبوه عن نظرية التطور، ومنذ بدايتي لدراسة الطب ١٩٧ وأنا أتابع عن قرب كل ما جاء عن التقدم العلمي في أصل الإنسان حيث ان المرء يحتاج كمية كبيرة من المعلومات في موضوع يريد الحكم فيه والفلكيون من يمتلكون هذا، ومن أبرز المتخصصين في هذا المجال: البروفسور (ب حراس) من فرنسا ولدينا اليوم معلومات قيمة جديدة تقوم علىٰ بيولوجيات الحميات وبيلوجيات الجزئيات ولكن للاسف نجد أن بعض العلماء يضعون نظرياتهم تسندها الأسانيد العلمية فقط، ولكنها في الحقيقة تعكس فلسفتهم الخاصة.

ومن الخطأ الربط بين دارون ونظريته، وبين نظرية التطور عامة فقد يقبل المرء التطور في المملكة الحيوانية ولكنا نرفض الجوانب الأخرىٰ من نظرية دارون القديمة والحديثة، ولكن يجب ألا نرفض كل ما جاء من علماء التطور فهناك حقائق لا يمكن لأي رجل متعلم رفضها، فلقد تم تغيير في الشكل الإنساني علىٰ مر العصور ولكنها جميعا لا تعارض مفهوم خلق الله للإنسان كما جاء في الكتب السماوية الثلاثة بل العكس لقد ذكر القرآن هذا. لا يمكن لأي حجة علمية جحد ما قاله الخالق عن الخلق وحيث لا توجد عشوائية في الحياة، أو الصدفة، وحيث لا تطور في المملكة الحيوانية.

أما عمر الأرض فأربعة ملايين ونصف عام وعمر الإنسان فهو مليون عام (قال انجيل لوقا أن السيد المسيح يجييء بعد ٦٧ جيلا من سيدنا آدم عليه السلام وهذا غير معترف به اليوم).

وعلماء البيولوجيا يقولون أنه ظهر من أكثر من خمسة ملايين عام مخلوقات حية، وانسان جاوة اكتشف استعمال النار ويقدر الزمن من ٥٠٠ ألف إلىٰ ١٥٠ ألف عام مضىٰ.

إن التعديل الذي طرأ علىٰ الجنس البشري خلال العصور لم يعرف تحسنا في تكوين الأجناس بالمعنىٰ الدقيق بل ان كل ما تعلمناه من دراسة التطور في المملكة الحيوانية يمكن تفسيره بالتغاير الاحيائي العشوائي للجينات.

وبمراجعة كل الحقائق العلمية نجد:

- إن فكرة الله الخالق هي التي تقدم لنا التفسير السليم الشافي التي لا تتعارض مع المنطق كما جاء في الكتب السماوية الثلاث وعلىٰ العالم الموضوعي قبول هذه التعاليم.

ونحن نقبل من الانجيل الجزء الخاص بالخلق فقط، أما في القرآن فقد تأثرت كثيرا مما جاء في القرآن عن الإنسان وما جاء في القرآن عن أصل الإنسان قوله في سورة الأنبياء:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾

ومن لا يعلم اليوم أن أصل الحياة بدأ في البحر
ـــ ما أشار القرآن عن التطور العلمي للجنين: مرحلة اعطاء الله للإنسان شكله.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا جدوا فَسَجَدُوا ﴾ (سورة الأعراف)

﴿ الذي خلقك فسواك فعدلك ﴾ (سورة الانفطار)
﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (سورة التين)

وارجع هنا إلىٰ كلمة (أطوار) كما جاءت في سورة نوح وأرى انها تفصل وتشرح ما يعرفه دارسو علم الأجنة ومراحله المختلفة أي أطواره المختلفة.

وما جاء في سورة الدهر

﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾

وسورة الأنعام ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾

إن هاتين الصورتين لتؤكدان أن احتفاء بعض الجماعات واحلال بعض آخر مكانها بمشيئة الله عز وجل وما أكثر الأدلة والبراهين علىٰ عظمة الله عز وجل وعلىٰ المجاز القرآني وسيادته في كل زمان ومكان.

الفصل التاسع

الفكر الغربي: من العلوم إلىٰ الفلسفات

فرق الباحثون بين العلم والفلسفة، وقد قصر مفهوم العلم علىٰ العلم التجريبي المتصل بالطبيعيات والرياضيات والفلك وغيرها، أما معطيات العقول الغربية في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية فقد أطلق عليه اسم الفلسفة أو العلوم الفلسفية تجاوزا، لأمرين لاتصاله بالعلم ونظرياته من ناحية ولأنه يقوم علىٰ أساس المنهج العلمي في البحث.

ولكن عندما ترجمت هذه الفلسفات ونقلت إلىٰ أفق الفكر الإسلامي ادعى مترجموها انها علوم، لها صفة العلم من حيث القول المضلل بانها حقائق لا تقبل المراجعة وكان هذا هو الخطر الأكبر الذي خدع به قومنا زمنا طويلا حتىٰ تكشف لهم عمق الفوارق بين العلوم والفلسفات وان العلوم الإنسانية لا يمكن أن تخضع لمقياس العلوم المادية والمعروف أن اليهود هم الذين حملوا في العقود الأخيرة لواء العلوم الاجتماعية والانسانية والأنثربولوجيا وغيرها وربطوها بنظرية دارون من أجل تحقيق أهدافهم في الادعاء بحيوانية الإنسان ومن خلال هذه الوجهة استطاعوا تثبت نظرية ماركس في حيوانية الإنسان من ناحية الطعام ونظرية فرويد في حيوانية الإنسان من حيث الغرائز والشهوات.

ولكن ذلك كله تكشف من بعد، كما تكشف فساد الوجهة في العلوم نفسها ـــ وفي الفلسفات ايضا.

وقد كشف العلماء حقائق كثيرة تدعو العلوم والفلسفات إلىٰ التراجع عن غرورها ودعواها الباطن، وخاض من يتعلق بمفهوم التطور المطلق والنسبة والجبرية والحتمية والعقلانية والمادية والتفسير المادي والحركة الدائمة وأخطاء ديكارت في فصل بين العلوم العقلية والتجريبية وفصل فرويد بين العقل والجسم وبين العلوم البيلوجية والسيكولوجية.

وقد تأكد اليوم أن العلم لا يقدم لناسوى معرفة جزئية عن الحقيقة، وبالمقابل فإن الأجزاء الأخرىٰ من الحقيقة يقدمها قطاع آخر من المعرفة لا ننس انه هو الدين.

لقد نشأ في ظل توهج العلم وغروره كتاب وادباء ومفكرون وفلاسفة اتخذوا من معطيات العلم وفروضه قاعدة بنوا عليها فلسفاتهم لكي يصبغوا عليها صبغة العلمية، فقدموا النظريات المختلفة في حقول الاجتماع والنفس والاقتصاد غير أن [المادية التاريخية] ما لبثت أن تعرضت في هذا القرن لهزات عنيفة، وأخذ الأساس الذي بنيت عليه يتأرجح ويتمايل ويتهاوى.

إن المذهب المادي الذي قامت عليه الفلسفات المعاصرة قد أصيب بشرخ كبير، باكتشاف العلم أمور غير مادية تحول المادة إلىٰ طاقة والطاقة إلىٰ مادة، ومن ثم فإن كل الفلسفات التي

قامت علىٰ قاعدته قد تهاوت .

يقول عماد الدين خليل في التعليق علىٰ كتاب سوليفان : ان الفلسفة والاداب أقامت صرحها علىٰ العلم وكانت أسيرة اعتقاد أشد خطأ يقوم علىٰ افتراض أن كل ما يجهله العلم أو يتجاهله لا وجود له علىٰ الاطلاق وهو موقف ساذج لايزال يتشبث به كثيرون من أدعياء العلمية في بلادنا ، أولئك الذين أخذوا علىٰ عاتقهم مهمة اعلان الحرب علىٰ الغيبيات ، دون أن يدركوا أن المواقع الأخيرة لمسيرة العلم الجاد قد كشفت عن حقيقة أن المادة نفسها تحمل في تراكيبها بعدا غيبيا» .

●●●

أخطر ما قدمته الفلسفات الغربية يرتبط بمنهج الحياة والمجتمعات ، وقضية الإنسان ، والعقل ، وفصل الدين عن الدولة وقد كانت نظرية دارون هي منطلق الفكر الغربي أساسا وهي نظرية ثبت فشلها وسقوطها ولكنها أقامت دعائم هذا الفكر علىٰ أساس :

١ ــ المفهوم المادي للإنسان (وهو مفهوم تطور بعد ذلك إلىٰ تصور الإنسان كحيوان ناطق خاضع لغريزتي الطعام والجنس .

٢ ــ مفهوم التطور المطلق ، الذي يرىٰ أن العصر الحالي أكثر تقدما من العصر السابق .

٣ ــ نسبية الأخلاق وارتباطها بالبيئات وتحولها مع تغير الأوضاع .

٤ ــالانفصال المطلق عن البعد الرباني واحلال مفهوم الطبيعة بدلا من كلمة (الله تبارك وتعالىٰ) والإيمان بأزلية المادة وخلود نظام الكون إلىٰ مالا نهاية.

٥ ــالتفسير المادي للتاريخ وهو قاسم مشترك بين الأيديولوجيين.

٦ ــظهور النظرية الماركسة نتيجة الغلو الذي أصيبت به المجتمعات من تسلط النظرية الرأسمالية.

لقد كانت أطروحات الفلاسفة ناقصة ومضطربة (بل لقد كانت أطروحة العلماء ممثلة في نظرية دارون ناقصة أيضا) أما ديكارت فقد وصف خطأه الأساسي بانه هو احلال الاقطار محل الحقائق وقد نتج عن ذلك تبديد الأفكار لقيم الحقائق، فخطيئة ديكارت الماورانية هي اذن في اعتقاده أن عمليات الذهن تتطابق مع قوانين العالم لقول روبير ادون: لقد خلف ديكارت أثرا عميقا في عقلياتنا جميعا وأخطر اثاره فينا ما أدعوه بخطيئة الميتافيزيقية (الماورانية) أو خطيئة الأخلاقية وهي الممثلة بشكل في تجريد الإيمان وبالتنكب عن الابداع نتيجة للوقوع في الوهم الخادع الذي تتركه الاثارة العقلية.

كذلك فقد أخطأ أوجست كونت في قانون المراحل: (الديني ــ الميتافيزيقي ــ الوضعي) حيث اعتبر المرحلة الدينية هي المرحلة الخرافية وقد وقف حائراً أمام الظواهر الطبيعية فوصف ظاهرة البرق المصحوب بالرعد بإنها أصوات الالهة عندما تغضب

وتتصارع وكان من خطأه دعواه بان الإسلام دعوة مرحلية أدت دورها وانتهت وقد كان أوجست كونت مصابا باختلال في عقله وحاول أن ينتحر غرقا في نهر السين.

ومن العجب أن ماكتبهِ أوجست كونت لمحاربة الكنيسة الكاثوليكية حمله اتباعه لمحاربة الإسلام به، في الوقت الذي يبدو فيه عمق الفوارق بين مناهج الغرب المسيحية وبين مفاهيم الإسلام في مختلف مجالات الفكر والحياة والاجتماع.

أما نيتشه فإن فلسفته تقوم علىٰ الحقد والكراهية كأساس لبناء السوبرمان أو الإنسان المتفوق، فلكي نصل إلىٰ خلق الإنسان المتفوق لابد من أن نحطم كل شيء، وندمره، لكي نخلق الخلق الجديد الذي نريده، ولكن كيف يمكن أن نحطم وندمر دون أن نكره ونحقد، فعلينا أن نكره ونحقد أولا ثم تدفعنا الكراهية والحقد إلىٰ التحطيم والتدمير ويرى نيتشه أن البر والتقوى والمحبة والخير هي أخلاق الضعفاء وقد أمضى نيتشه نحوا من عشرين عاما وهو في جنون يكاد يكون مطبقا إذ كان في الدور الأخير من السلفس وهو مرض لم يقعد جسمه فقد بل أمات ذهنه وقد مات مغمورا لم ترثه جريدة ولم تذكره جامعة ولكن بعد موته ابتعث اليهود فلسفته الهدامة.

(٢)
نظرية المادية الجدلية

كان أخطر ما حملته نظرية المادية الجدلية (الديالكتيك) التي قدمها هيجل وبنى عليها ماركس نظريته انها تنقض النظرة الميتافيزيقية (المقرة بوجود الغيب) فهي ترى أن الطبيعة في حالة تغير دائم وتجدد متواصل وتطور لا ينتهي بعكس النظرية الميتافيزيقية.

وهذه النظرية معارضة لمفهوم الإسلام الجامع بين الثوابت والمتغيرات ويرى أرنولد توينبي أن هذه المادية التاريخية هي بدعة المادية تقهقرت إليها المسيحية علىٰ يد ماركس نبي الشيوعية الفاشل، وهي حركة ثورية هدامة لا تصلح بمجموع قيمها اقامة فلسفة حياة الإنسان الحر المتكامل في كيان المجتمعات الحرة المتكاملة.

«ويطلع توينبي بتفسيره المضاد والذي يبدو انه رد فعل عنيف للمادية فيفسر التاريخ تفسيرا اخلاقيا متأثرا إلىٰ أكبر الحدود بتعاليم المسيحية حتى أن بعض المؤرخين يسميه (التفسير المسيحي للتاريخ) ويغالي بعض النقاد فيستبعد منهجه من المناهج العلمية في تفسير التاريخ نظراً لغلبة الروح الميتافيزيقية الصوفية المسيحية عليه ونظراً لغلبة الروح اللاهوتية التي لا يمكن اعتبارها

علمية بالمعنىٰ التجريبي لمنهج البحث والقوانين التي تقررها.

ويقول الباحث الذي نقلنا عنه هذا النص:

لقد اعتقد هيجل أن أزمة الإنسان في التاريخ سياسة.

واعتقد ماركس أن أزمة الإنسان في التاريخ اقتصاد.

واعتقد توينبي أن أزمة الإنسان روحية».

ونحن المسلمون نرى أن الخروج عن منهج الله وتجاوز المصدر الأول لحركة الكون والمجتمع والإنسان وهو الله تبارك وتعالىٰ، ووصف ذلك بانه (الطبيعة) هو مصدر الأزمة الحقيقي في فهم معضلات العصر،

إن معظم الأزمات التي حاقت بموكب الإنسانية انما نجحت من تجاوز العامل الأول، فضلا عن فصل العقل عن الروح الأخلاقية المسيرة له.

لقد بدأ هؤلاء الفلاسفة دعوتهم برأي مسبق حاولوا في سبيل اقراره انتزاع بعض الوقائع المهمة من التاريخ متجاهلين حقائق أخرى أكثر أهمية لإنسان ما يذهبون إليه، كما انه لم تتوفر لهم النظرة الشاملة لكل جوانب الإنسانية بل انطلقوا من زوايا محددة متجاهليـن سرد علل أخرىٰ وصدق الله العظيم

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾

لقد اصطنعوا الأسلوب العلمي في سبيل اقرار مالا يقبل التوازن، وما يدعو إلىٰ ترجيح كفة باطل علىٰ حق مجهل، والا فكيف تستعلي المادية علىٰ التوازن الجامع بين الروح والمادة، وكيف يقر أمر الحركة الدائمة لتستعلي علىٰ التكامل بين الثوابت والمتغيرات، وكيف يستعلي التطور علىٰ الثبات، وكيف تكون القيم الأساسية التي قررها الدين كالأخلاق مثلا قيم نسبية تتغير بتغير المجتمعات والأزمنة وكيف يقرر ما يسمى الصدفة وكل شيء في هذا الكون بحساب دقيق لا وجه فيه لصدفة أو شيء يقع فجأة، وإذا كنا لا نرى القوانين التي تحكم هذا الغيب فليس معنى هذا انه ليس هناك قوانين تحكمها.

إن الخطأ كله في اقرار الفلسفة المادية بالإضافة إلىٰ الأخطاء الأخرىٰ لقد اعتمدت (المادية الجدلية) في اقامة بنيانها علىٰ أسس المعطيات العلمية للقرن التاسع عشر، وقد تبدلت تلك الأسس وتغير كثير من المعطيات مما هز أسس النظرية وكذلك كان الأمر بالنسبة للوجودية (سارتر) والفرويدية، وآراء مدرسة العلوم الاجتماعية (دوركايم) ونظريات النقد الأدبي ومذاهبه (الرومانسية والكلاسيكية والواقعية الاجتماعية) الخ.

بل لقد تبين أن المادية الجدلية تذهب في مقولاتها إلىٰ عكس معطيات العلم التجريبي نفسه، ذلك انه لا يمكن ادراك العالم إلا بواسطة أعضاء الحواس (النظر، السمع، اللمس).

كذلك فإن الإنسان ليس في العالم بمثابة متفرج انما هو فاعل وصانع وتعرف المادية الجدلية بانها تبني هيكلها علىٰ المقولات الفلسفية، وان الفلسفة ــ لا العلم ــ هي التي تصوغ المفاهيم العامة.

وهي مقولات تنشأ وتتخلق لدى كل فيلسوف بصيغة قد تختلف عن الفيلسوف الآخر وقد تكون نقيضة لها تماما ومن ثم فإن ادعاء احتكار المعرفة الفلسفية لواحد من هؤلاء الفلاسفة ووصفها بالعلمية وانكار هذا الحق علىٰ الآخرين هو من التجاوزات الكبيرة هذا خطأ والخطأ الآخر: تلك الصيغة الانتقائية التي تعترف (المادية الجدلية) باعتمادها ازاء منجزات العقل البشري لكي تتلاءم ومصالح طبقة محدودة من الناس».

فإذا ذهبنا ننظر إلىٰ المادية الجدلية في تكوينها للماركسية وجدنا مجموعة أخرىٰ من الحقائق الهامة.

إن ماركس وانجلز قد طرحا مقولاتهما الفلسفية قبل عصر الفيزياء الذرية بما يقرب بقرن من الزمان.

ولقد استوعب ماركس وانجلز كل ما هو تقدمي وثمين مما كان العالم قد توصل إليه قبلهما، ولكنهما لم يقوما بمجرد استيعاب منجزات العقل البشري بل صاغا بصورة انتقادية مكتسبات الفكر البشري الطليعي طبقا لمصالح وأهداف (البروليتاريا) وسائر الشغيلة، ولما كانا ثوريين عظيمين فقد أحرزا مأثرة علمية لا نظير لها فقاما بانقلاب ثوري في العلم وفي الفلسفة وفي الاقتصاد

السياسي والمذهب الاشتراكي وأوجدا علما ثوريا جديدا هو «الماركسية» .

وكان أخطر ما دعت إليه الماركسية هو الكشف عن القوانين النهائية التي تتحكم بحركة العالم وتاريخه وهو قول باطل لأن العالم لم يكن لينتظر حتى تظهر هذه القوانين ليثور المظلومون علىٰ بلادهم ويربحوا المعركة، والا فكيف نفسر تاريخ البشرية الملىء بالثورات والانتفاضات وعشرات ومئات الانتصارات التي حققها المستضعفون من جلاديهم ومضطهديهم قبل أن تظهر قوانين الماركسية .

كذلك فإن ماركس في مقولاته الاقتصادية فيما يسمىٰ علم الاقتصاد الماركسي لم يكن علىٰ تمام الالمام بتاريخ الاقتصاد البشري وقد اعتمد علىٰ مساحات واسعة منه علىٰ معطيات تخمينية وظنية وانه انتقى ما يصلح له ويؤيد فرضيته المسبقة واخفى ما يتعارض معها (نقلا عن سوليفان : في كتابه حدود العلم وتعليقات الدكتور عماد الدين خليل) .

ولقد أعلن الإسلام رفض المنهجية الجدلية والمنهجية الجدلية الماركسية جميعا التي تصور الحياة الإنسانية في صراع تراه أساس الحركة والتغيير والتطور .

ويقول الدكتور محمود عثمان في كتابه المستفيض (الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه) أن مبدأ هيجل والذي تابعه عليه

الماركسيون وهو مبدأ التناقض في الأشياء وفي العقل مبدأ ساقط وان مبدأ عدم التناقض في الوجود وفي العقل مبدأ صحيح فنظرية الجدل ساقطة من اساسها وعليه فما يترتب علىٰ مبدأ التناقض باطل ببطلان هذا المبدأ .

(٣)
العقل والوحي

إن الفكر الغربي قد توصل إلىٰ هدفين بعد انكار الوحي: النظرة العقلانية، والنظرة إلىٰ المحسوس.

أما العقلانية فكانت ترمي إلىٰ انكار الوحي أما نظرة المحسوس فكانت ترمي إلىٰ انكار الغيب وكلا النظرتين مستمد من النظرية المادية وقد واجه علماء المسلمين الشبهتين وكشفا عن عجز النظرة العقلية وحدها في تقديم مفهوم حقيقي للأمور، وقد كان استعلاء مفهوم العقل والعقلانية يرمي إلىٰ انكار الأساطير والخرافات والنصوص التي حملتها بعض الكتب المقدسة والتي لا تتفق مع حقائق العلم أو حقائق العقل.

ولكن الأمور لم تتوقف عند حد محدود، وحاولت النزعة العقلانية ان تفرض نفسها كأساس كامل ووحيد للمعرفة وهذا هو ما يخالف مفهوم الإسلام الجامع بين العقل والوحي. وقد ارتبط ظهور مفهوم العقلانية بتأكيد (سقراط) أن العقل هو أهم ما يميز الكائن الإنساني وانه يتكون من مجموعة من المعايير التي يستخلصها عن طريق الحواس من المعرفة التي يتم التحقق من صحتها علىٰ أساس التجربة والخبرة، أما الإسلام فقد جعل العقل أساس التكليف ولكنه جعله جهازا يتلقى مفاهيمه من الوحي.

قال الماوردي: ان تسمية العقل تشبه بعقل الناقة لأن العقل يمنع الإنسان من الاقدام علىٰ شهواته كما يعقل الناقة عن الشرود عقالها (إذا عقلك عقلك عما لا ينبغي فانت عاقل) كذلك قرر علماء الإسلام عدم تناقض صحيح المعقول مع صريح المنقول.

فالعقل أساس التكليف فإذا تعرض العقل لما يحول بينه وبين أداء وطيفته كالمرض أو النوم سقط التكليف عن صاحبه بالأمور الشرعية وقد قرر العلماء المسلمون

أولاً :أن العقل وحده لا يكفي ولا بد من مصدر ديني للمعرفة يمنح العقل البشري القدرة علىٰ العمل الشامل المتوازن الحر الواعي. ولا بد من قيم كبرى ربانية تتميز بالشمول والاستشراف والالتزامات الأخلاقية.

ثانيـــاً: إن الغاية لا تتحقق إلا بمجيء الدين الخاتم وان كل الدعوات والنبوات التي سبقت كانت مقدمات لهذا الدين الخاتم.

ثالثـــاً: أن تزويد الله تبارك وتعالىٰ الإنسان بالعقل لم يمنعه من الخطيئة ولم يمكنه من الفصل في الصراع بينه وبين أهوائه مدى الحياة.

رابعـــاً: العقل موجود بالإنسان ولكنه ليس عاصما من الخطأ وقد أبانت تجربة آدم عليه السلام في الجنة، عدم قدرة العقل البشري علىٰ عصمة الإنسان ومن هنا جاءت رسالة الرسل تحمل المساعدة للعقل البشري ليقوم

بدوره في حماية الإنسان من الخطأ والاتصال بالطاعات.

وقد اثيرت من جديد في العصر الحديث قضية العقلانية بعد ان ظهرت نظرية (هوبهلوس) البريطاني الذي جعل العقلانية عاملا عضويا في التطور الإنساني يتم علىٰ أساسه التنسيق بين جوانب الحياة الفردية والاجتماعية وقد وسع (ماكس فيبر الألماني) استخدام مصطلح العقلانية في علم الاجتماع وقسم الافعال العملية إلىٰ أربعة أقسام:

(١) حسب التزامها بالدافع العقلاني أو بعدها عنه.
(٢) حسب نوعيتها عملية أو قيمة، تقليدية أو عاطفية.
(٣) علىٰ المستوىٰ الاجتماعي.

وجملة قوله أن المجتمع يكون عقلانياً إذا قام ومارس حياته اعتماداً علىٰ مؤسسات مستقرة مع اخضاع الوسائل للغايات ويرى أن عقلانية المجتمع مرتبطة بالديمقراطية.

وواضح أن هناك فارقا واسعا بين تصور العقلانية في مجتمع يقوم علىٰ أساس النظرة الإسلامية الجامعة وبين مجتمع يعادي كل ما يتصل بالروحيات والمعنويات والغيبيات.

«إن الدين حقيقة أصيلة مركوزة في أعماق بني آدم وليست كما توهم ماركس وانجلز عرضا برجوازيا مرحليا وبالمقابل فإن العقلانية الشيوعية أخذت تتعرض بشكل متزايد للاهتزاز تحت

ضربات ما هو دائم أصيل في الفطرة البشرية وتراجع في اكثر من موقع أمام زحفها المحتوم» .

إن محاولة جعل العقل بمثابة الاله المعبود ، من شأنه أن يقضي علىٰ عامل الرقيب النفسي الذي يحققه الدين، وهي خطة مادية ترمي إلىٰ تحليل ما حرم الله واباحة المحرمات .

(٤)
العلمانية

العلمانية في كلمة: هي فصل الدين عن المجتمع والدولة وقصره علىٰ العلاقة بين الإنسان والله (تبارك وتعالىٰ) وهو ما يعرف بالمفهوم اللاهوتي المسيحي وبعض الأديان هي كذلك ولكن الإسلام يختلف فهو جامع بين العلاقتين علاقة الإنسان بالله وبالناس والإسلام منهج حياة ونظام مجتمع ولقد ظهرت فكرة العلمانية في الغرب نتيجة عدة عوامل أهمها موقف رجال الدين من النهضة، ومعارضتهم للكشوف العلمية ومنها هدف اليهود من القضاء علىٰ سلطان المسيحية في المجتمع الغربي حتىٰ تتاح لهم السيطرة السياسية والنفوذ العسكري، ومن هنا يبدو ذلك البعض الشديد للدين في فلسفات عديد من الفلاسفة أمثال نيتشه وماركس وفرويد.

وقد عمد النفوذ الأجنبي إلىٰ نقل هذه القضية إلىٰ أفق المجتمعات الإسلامية بعد سيطرته علىٰ مناهج التربية والتعليم، وماتزال الفكرة قلقة لا تجد تقبلا حقيقيا في مجتمع قام علىٰ أساس نظام جامع للدين والدولة.

أما المسيحية فقد كانت مجموعة من الوصايا لأنها تابعة في شريعتها للدين الموسوي فلما انفصلت ارادت أن تنشئ نظام مجتمع، فانشأت مفهوما بشريا ضاق عن الاحاطة بنظام الله

تبارك وتعالىٰ الجامع ومن هذه النقطة بدأت أزمات الحضارة والفكر الغربي.

والإسلام حين يرفض (العلمانية) التي تنادي بفصل الدين عن الدولة فهو أيضا يرفض بالمثل (الدولة الدينية) الثيوقراطية التي تنادي بسيطرة رجال الدين علىٰ الدولة.

والمعروف ان دعوات الفلاسفة الماديين قد تركزت علىٰ التخلص من قيود الدين تطبيقا لاهداف الماسونية التي وضعت الخطط لنشر مذاهب الالحاد، وجاءت الماركسية تدعو إلىٰ انكار الدين جملة وهدمه، واقامة دين جديد هو [صراع الطبقات] كمقدمة ضرورية نحو عالم أفضل يكون فيه الإنسان سيد نفسه وهي دعوى باطلة لم تتحقق وعلت في الغرب الدعوة إلىٰ الغاء سلطة الدين وسلطة الأخلاق واستبدالهما بالحزب وقد دعت محافل الماسونية (التي استبدلت أخيرا بمحافل الليونز والروتاري) إلىٰ الحرية المطلقة والاختلاط بين الجنسين واقامة مدن العراة وتشجيع الرحلات والنوادي الرياضية وعدم الإيمان بالوطن أو الدين أو الارومة».

●●●

ويقرر بعض الباحثين أن مصدر هذه الفكرة العلمانية Seealarism هو الخلاف بين الدين والعلم، تلك القضية التي نشأت نتيجة الصراع بين الكنيسة ودوائر البحث العلمي، (وانه

ما كان لهذه الفكرة أن تنقل إلىٰ أجواء الإسلام فإن الإسلام نشأ حليفا للعلم حاثا عليه) فهي تضع العلم المرتبط بالعالم وبما هو واقعي ومدني ــ مقابلا ونقيضا للدين وذلك لنشأتها وتبلورها في بنية حضارية شهدت صراعا مريرا بين الدين كما قدمه اللاهوت الكنسي الكاثوليكي في أوربا وكما يصوره الرأي الرسمي للكنيسة الكاثوليكية وبين العلم الذي تأسست علىٰ قواعده النهضة الأوربية الحديثة وتصرف النظر عن الموقف الجوهري للديانة المسيحية وعن الظلم الذي الحقته التفسيرات الكنسية برأي المسيحية الحقة في العلم، فالأمر الذي لا شك فيه أن عداء الدين للعلم والصراع بينهما هو (خاصية كاثوليكية ــ أوربية) ولا وجه للشبه بين المقدمات والملابسات التي أثمرت هذا العداء وهذا الصراع وبين واقع الإسلام وموقفه ورأي أغلب تيارات الفكر الإسلامي ومذاهبه في هذا الموضوع، فالإسلام لا يمد نطاق علوم الوحي والشرع إلىٰ كل الميادين الدنيوية التي ترك الفصل فيها والتفسير علوم العقل والتجربة الإنسانية ومن ثم فقد تآخى فيه العلم والدين والعقل والنقل والحكمة والشريعة والدنيا والآخرة عن طريق تحديد المبادئ لكل نمط فكري لانشاء نظرة متكاملة لتهذيب الإنسان وتطوير حياته باعتبار هذا التهذيب وذلك التغيير غير ممكنين دون الاستعانة بالأقطاب المتعددة في ظواهر الفكر والحياة وليست لقطب واحد من الظاهرة الواحدة ويتأكد اختصاص العلمانية بالواقع الأوربي وما استقرت عليه المسيحية من نظام الكهانة والكهنوت ذلك النظام الذي يجعل بين الإنسان

العادي وبين ربه وسيطا هو رجل الدين والكاهن، الأمر الذي جعل هناك طبقة أو فئة احتكرت الرأي الرسمي للدين بل وحق الحديث باسم السماء وما استتبع ذلك من اضفاء القداسة والقدسية علىٰ هؤلاء الرجال والمؤسسات التي أقاموها لهذا الدين، وتلك أمور لم يعرفها الإسلام بل هو ينكرها ويشن عليها حربا شعواء.

وحيث تضع العلمانية العلم المرتبط بالعالم وبما هو واقعي ومدني في مقابل الدين يضع الإسلام كل العلوم المدنية والدينية في دائرة نظامه الجامع ولا ريب ان تكامل الإسلام ونظرته الجامعة تحول دون قيام هذا المفهوم الذي نشأ في ظل التمزق الذي أحدثه الفلاسفة والمفكرون الغربيين بين اللاهوت وبين العلم التجريبي فالإسلام كما يقول الدكتور عبدالصبور شاهين جامع بين عالمي المادة والروح حيث تلتقي جميع القيم في تواؤم وانسجام.

ويرىٰ الدكتور شاهين: ان العلمانية في كل أحوالها مفهوم سياسي (لا حضاري) يستهدف اما فصل الدين عن الحياة، واما القضاء التام عليه وكلا المفهومين مرفوض من وجهة النظر الإسلامية.

والمعروف أن العلمانية مصطلح لم يوجد إلا في ظروف الصراع بين الكنيسة والدولة حول السلطة، فرأى المفكرون انذاك أن الحل يكمن في ابعاد الكنيسة عن السلطة واطلقوا علىٰ الوضع الناشيء عن هذا الابعاد وصف العلمانية، ثم تطور هذا المفهوم حتىٰ جاء

ماركس ومدرسته وتطور المفهوم عندهم إلىٰ معنىٰ القضاء علىٰ الدين تماما لتحقيق العلمانية الحقة واطلق عليه اسم (العلمانية المتطرفة).

ويرى الاستاذ فتحي رضوان: ان العلمانية هي رد فعل للارهاب الديني ولتدخل الكنيسة في شئون الفكر والبحث العلمي وتربية الأطفال والشباب وتنشئتهم.

ولما كان الإسلام لم يعرف في حياته منذ بعث محمد ﷺ ٥٧٠ ميلادية بدين الإسلام حتىٰ اليوم كهنوتا ولا باباوية ولا سلطة دينية تصدع عقول الناس وتشكل أفكارهم فقد استحال أن تنشأ في بلاد الإسلام (علمانية) ولكن المبشرين وبعض المسيحيين الذين تعلموا في أوربا اعتبروا (العلمانية) سبيل التقدم وضمان الحضارة في بلاد المسلمين، كما انها كذلك في بلاد المسيحيين، فقد بشروا بهذه العلمانية في بلادنا بغرض آخر هو أن يفرضوا حصاراً علىٰ الإسلام لينشأ الطفل المسلم بعيداً عن روح الإسلام ورعايته.

ولقد حقق الإسلام ما سعت إليه علمانية أوربا باحسن السبل ووصل إلىٰ أفضل الغايات فالوالي بحكم دينه عليه أن يوفر لغير المسلمين من مسيحيين ويهود من أصحاب الأديان السماوية أن يعبدوا ربهم بالطريق الذي يختارونه بلا قهر ولا قسر في المعابد التي يقيمونها بملء حريتهم وأن يقرعوا أجراسهم ويطبعوا كتبهم ومؤلفاتهم ويشرحون فيها عقائدهم ويربون أولادهم وينشئونهم بملء الحرية علىٰ

الوجه الذي يطيب لهم ولم يذكر المؤرخون أن ولاة المسلمين حرموا بحثا في العلم ولا رأيا في الدين ولا طريقة في التماس المعرفة ودستور ١٩٢٣ ينص صراحة علىٰ ما يتحدى العلمانية وينكرها تماما إذ نص علىٰ أن الإسلام هو دين الدولة في حين أن الدولة العلمانية لا دين لها ولا مذهب.

الفصل العاشر
العلوم الإنسانية والاجتماعية

بعد أن خدع دعاة العلمانية والمادية المسلمين في كل مكان بأن ما تقوله الفلسفات في مجال الأخلاق والاجتماع والنفس هو من العلم الذي يمثل الحقيقة انهار ذلك كله بعد أن كشف العلماء المنصفون أن الفلسفة والاقتصاد وعلم النفس والاجتماع ليست علوما بالمعنىٰ الحقيقي.

قال سوليفان في كتابه (حدود العلم): ان علم النفس لا يمكن اعتباره علما حتىٰ الآن وللمعارف الأخرىٰ مثل علم الاجتماع والاقتصاد وما إلىٰ ذلك من النواحي التي لا تعتبر مرضية من وجهة النظر العلمي والعلم أقوى ما يكون عليه عندما يتناول العالم المادي أما مقولاته في الموضوعات الأخرىٰ فتعتبر نسبيا ضعيفة ومتلجلجة.

والحقيقة التي لا بد أن تقال في هذا المجال هو أن اليهودية العالمية في مخططها الصهيوني لتدمير البشرية قد جعلت العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية مدخلها إلىٰ تصور يحتقر الإنسان ويجعله حيوانا خاضعا لمطامع المعدة والجنس (علىٰ أن النحو الذي أعلنه اليهوديان: ماركس وفرويد) ثم كان لدور كايم دوره الخطير في هدم مفهوم الاجتماع البشري.

يقول الأستاذ إسماعيل الفاروقي: لقد قامت العلوم الاجتماعية علىٰ مبدأ الشك في تأكيداته ومنفياته معتقدة أن المرغوب اطلاقا هو المرغوب فيه فعلا وان السبيل إلىٰ المعرفة الطبيعية (هي استقراء المحسوس) أما المحسوس فهو الرغبات الكافية في تحركات الانسانية المرئية الخاضعة للقياس الكمي، أما العلوم الإنسانية فلا حقيقة لها أصلا فهي ليست علوما بل آدابا.

●●●

«فالعلوم الاجتماعية الحديثة معتمدة شطراً من الحقيقة وهو المحسوس الكمي مفضية عن الشطر الآخر الغير محسوس، سواء أكان أمراً الهيا أو قيمة مطلقة في حد ذاتها، وهي تقوم علىٰ دعوة الممارسة الحرة، التي لا تخضع لمبدأ أو قانون بل تصدر عن الإرادة الشخصية مجردة، فنيتشه في دعوته إلىٰ القوة والسيطرة، الوجودية العدمية علىٰ لسان سارتر، كلها تمجد الممارسة الحرة وقالوا: ان تعارض الممارسات الشخصية لا يقلل من قيمتها وان أدىٰ إلىٰ المجابهة والتعدي علىٰ الغير وإلىٰ تمادي النفس في استهوائها لنفسها وهبوطها إلىٰ العدم وهكذا تدهورت الأخلاق في الغرب تدهوراً فظيعاً منذ ان عمت النظرية وتبناها العالم وغير العالم وأخذ الفرد يؤمن أن كل ما يرغبه مبرور وبما أن رغبتي المال والجنس هي أقوى الرغبات الإنسانية فقد انحدرت الحياة في الغرب إلىٰ المستوى الذي تشهده اليوم».

وقد اثرت هذه المفاهيم علىٰ نظرية التربية وعلىٰ المستوى الجماعي وجدت العصبية القومية حجتها لتبرير استكبارها علىٰ شعوب الدنيا واستعمارها للضعيف منها.

وبعد الحرب العالمية الثانية ظهرت فكرة أن كل ما وراء قوى الطبيعة خرافة واسطورة وان علىٰ الدين أن يتخلص من كل عنصر ما ورائي مطلق إذ يكمن الشر والاستبداد في الماورانية والاطلاق بالذات وظهرت نظرية أن المسيحية ليست دين سلام واستسلام لعنصر وان الجماعة المسيحية لها ان تحارب وتدمر كيف تشاء دون وازع (تبرير الحرب النووية التي شنتها امريكا علىٰ اليابان).

(٢)
دوركايم ونظريته

إن نظرية دوركايم في العلوم الاجتماعية مشتقة من مفهوم الماركسية والنظرية المادية الجدلية أساسا وهي تلغي وجود الفرد تماما وتلغي إرادته ومسئوليته، وتعتبر الجماعة مصدر القيم والثقافة وتقرر أن الأحداث والتغيرات الاجتماعية ليست نتاجا لمعادلات فردية، وان الأفراد في اطار تفاعلهم مع الجماعة يخلقون ويبدعون ويحدثون أعمالا لا يكون لها تأثيرها إلا بذلك التفاعل مع الجماعة.

ومعنى وجهة دوركايم الدعوة إلى الجبرية الكاملة للفرد في اطار المجتمع واقراره بعجز الإنسان عن تغير المجتمع وضرورة خضوعه له وقوله أن العامل الفعال الذي يؤثر في المجتمع هو البيئة الاجتماعية وهو الغاء كامل لدور الفرد وهذا هو مفهوم مدرسة العلوم الاجتماعية شهد له الباحثون بالتناقض والخلط وترك كثيرا من التساؤلات بلا إجابات وأبلغ خطاه أسبقية المجتمع على الفرد وخضوعه لفكرة البرجماتية (فلسفة الذرائع) والتبعية.

وتسير كتاباته المنوعة في مسار تأكيد ضرورة انصياع الإنسان لما هو قائم وما هو محيط، فالظاهرة الاجتماعية إجبارية والزامية ولقد كشف الباحثون عن اخطائه ومعارضته للفطرة وأكدوا ان دراساته وآرائه يعوزها الكثير من الصدق العلمي، ويرون انه حاول أن

يفهم المجتمع (ولكن برأي مسبق مشتق من مفهوم اليهودية الراغبة في تدمير المجتمعات) وقد أخذ من سان بيجون وأوجست كونت وماركس.

وقد أخذ دوركايم يعمل بمعاول هدامة في كل القيم والمفاهيم الدينية والأخلاقية وأخذ تلميذه الأكبر اليهودي (ليفي بريل) ينهج نهجه ويسير علىٰ طريقه القائم علىٰ منهج التشكيك في القيم والمثل والعقائد والأخلاق والقاعدة التي يقوم عليها فكره: ان كل الظواهر والمظاهر نسبية متغيرة متبدلة لا تثبت علىٰ حال ولا تستقر علىٰ وضع لأنها في كل يوم تتبدل الحال بحال ونسمع هذا في علم الاجتماع والنفس ومادة الأخلاق وتاريخ الأديان، وهم يستخدمون هذا المنهج لافساد المجتمعات وتحللها أخلاقيا ودينيا والهدف هو ان يكون المجتمع شاكا مليئا بالفتن، وذلك سبيلهم إلىٰ الهدم ومن أجل هدفهم تكاتفوا لتكون لهم الكلمة الأولىٰ في الجامعات وفي العلوم الانسانية (دكتور عبدالحليم محمود).

وإذا كانت الأخلاق نسبية فهل سيأتي الزمن الذي تعتقد فيه أن الصدق رذيلة وأن الشهامة شر، وأن الشجاعة سوء أو أن العفة جريمة وفي مجال العقائد هل سيأتي اليوم الذي لا يقول فيه بوحدانية الله (تبارك وتعالىٰ أو لا يقول بارادته وعلمه.

لقد اعتبر دوركايم الفطرة هي الجريمة وان العلاقات الخارجة عن الأسرة هي الفطرة، وان المجتمع هو الذي انشأ العقيدة الدينية وانه هو المسئول عن أخطاء الفرد.

وقد فرض دوركايم ومدرسة العلوم الاجتماعية تحويل علم الاجتماع إلىٰ دراسة الظواهر دون أن يكون له أثر في التوجيه أو تغيير المجتمع في محاولة أن يكون علم الاجتماع علما وضعيا له نفس طابع العلوم الطبيعية المادية مما رفضه المفكرون كلية لأن النفس الإنسانية لا يمكن أن تخضع لمقاييس العلوم المادية.

•••

ولقد تابع هذه المفاهيم الضالة مجموعة من التعربيين في بلادنا نقلوا هذه الأفكار إلىٰ مجتمعنا ودعوا إليها واثاروا الشكوك والشبهات حول حقائق الإسلام في مفهوم الاجتماع وكان هذا عاملا من عوامل الصيحة القوية التي علت منذ مطالع القرن الخامس عشر إلىٰ أسلحة العلوم وصياغة العلوم الاجتماعية صياغة اسلامية وفي مقدمة من دعا إلىٰ هذا الطيب الذكر الدكتور اسماعيل الفاروقي وجماعته.

ومن هنا كانت العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية المطروحة الآن من أخطر العلوم علىٰ العقيدة الإسلامية فإن أكثرها بنى علىٰ افتراضات ومسلمات لها أهداف فاسدة أبرزها الشك في الأديان والغاء الأخلاق واعتبارها مجرد ظواهر نفسية واجتماعية.

والإنسان في مناهج الغرب بين قضيتين خطيرتين: قضية تقديس الفرد إلىٰ حد أن تتفكك الدولة أو تقديس الدولة إلىٰ حد أن يسحق الفرد أما منهج الله فإنه لا يؤدي إلىٰ هذا الصراع.

(٣)
النظريات النفسية وهي علوم أو فروض

علم النفس الفرويدي: هو علم الجنس اليهودي وتدمير الإنسان الجويم (من غير اليهود) وهو دعوة إلىٰ الجبرية وفصل العلم عن التطبيق، ولا يختلف علم النفس الفرويدي مع مفهوم الإسلام فحسب بل يختلف مع مفاهيم الفطرة والعقل والمعرفة الإنسانية جميعا.

ويرىٰ سولفيان: أن العلم الذي يتناول العقل هو علم النفس مازال في الوقت الحاضر في مرحلة بدائية جدا، بل ان البعض ينكر وجود أي علم من هذا القبيل، وليس هناك بالتأكيد نظام من المعارف النفسية الثابتة التي جرى اقرارها بصورة عامة بل هناك عدد من النظريات لكل منها مجال محدود للتطبيق.

ولما كان هناك نظريتان في علم النفس ازاء كل ظاهرة من الظواهر فكيف يحكم علىٰ صدق المنهج النفسي وعلميته، معنىٰ هذا أن علم النفس لا يتكئ علىٰ دعائم ثابتة كما يحدث في الفيزياء والكيمياء.

وأغلب النظريات في علم النفس تعتمد التعميم، والتعميم هو الضربة القاتلة لمناهج البحث العلمي الرصين.

هناك نظريتان: النظرة السلوكية ونظرية التحليل النفسي.

فالنظرية السلوكية يقوم معناها علىٰ القول بان ما ندعوه عمليات عقلية ما هو في الحقيقة إلا حركات جسمية.

أما مسألة الارجاع الشرطية التي سميت الانعكاس الشرطي فهي في الحقيقة نظرية السخف الطائش فقد اندفع إليها السلوكيون إلىٰ مدى بعيد فوقعوا في الخطأ لأنهم أرادوا تعميم استنتاجاتهم المبنية علىٰ عدد محدود من التجارب والخبرات علىٰ سلوكية العقل البشري في افاقة كافة.

ومن الخطأ البين أن نصف العقل علىٰ انه مبني بشكل كامل من انعكاسات شرطية.

أما نظرية التحليل النفسي التي وضع فرويد أساسها فالأهمية الرئيسية لها كنظرية عامة في علم النفس تتركز في (افتراضاتها).

الافتراض الرئيسي: هو وجود ما جرت تسميته باللاشعور فعلينا أن نفترض انه إلىٰ جانب العمليات العقلية التي نعيها هناك عمليات عقلية نشطة أخرىٰ لا نعيها مطلقا، بعض هذه العمليات والأحداث تجري في اللاشعور يمكن استحضاره إلىٰ مجال الشعور بمجهود ارادي وبعضها لا يمكن استحضاره إلا باستخدام الفن الخاص بالتحليل النفسي.

ومعطيات نظرية التحليل النفسي بصدد (اللاشعور، الصراع، الكبت، الطاقة الجنسية (اللبيدو) لا يمكن ان تعد بحال مسلمة نهائية تحل اللغز المتعلق بعمل العقل وانعكاسه علىٰ السيكولوجية

البشرية، فالحلم الذي يعتبر تفسيره أحد أعمدة النظرية ينبثق من مصادر متعددة جدا للخبرة تجعل من الصعب الاعتقاد بأي تفسير للاحلام، ويمكن لمحللين نفسانيين مختلفين أن يقدموا تفسيرات مختلفة تماما للحلم الواحد.

فرويد يجد في الحلم مجموعة من الرموز الجنسية.
أدلر يجد في الحلم تعبيرا عن الرغبة في القوة.
يونج يحتمل أن يقدم تفسيرا آخر.

ومن المستحيل القول بان أيا من هذه التفسيرات أكثر معقولية عن التفسيرات الأخرىٰ، وهو أمر مخيب للآمال إذا كان يراد لتفسير الأحلام أن يعتبر علما، وهذا الجزء من تعاليم فرويد قد اثار الكثير من الشك ويركز فرويد علىٰ الرغبات الجنسية المكبوتة، بينما يركز علماء كثيرون علىٰ دوافع ورغبات أخرىٰ، ومن هنا فلا يصح مطلقا القول بان معطيات التحليل النفسي قد لاقت اقراراً عاما من قبل علماء النفس، ان النظرية في حقيقة الأمر: [تركيب شديد التعقيد]

وقد قللت وفرة الفرضيات التي انطوت عليها هذه النظرية الكثير من قيمتها ودرجة الثقة بها في أعين المفكرين.

ويمدّ فرويد (اللبيدو) = طاقة الحب الجنسي) إلىٰ كل فاعلية وكل اتجاه في حياة الإنسان من يوم أن يولد حتىٰ وفاته، وان كل عمل جزئي أو هدف سام هو بمثابة تعبير مباشر أو غير مباشر في

هذه الطاقة الجنسية المكبوتة في معظم الأحيان.

أما اللبيدو عند (يونج) فهو قوة حياتية أساسية ثابتة منها يشتق أو تنبع كل الغرائز.

أما أدلر فيرى أن المحرك الذي يسير حياة الفرد يتمثل في الحافز الذي يدفعه لاكتساب القوة والتفوق علىٰ من حوله، وهناك طوائف مختلفة في التحليل النفسي.

وبالجملة فليس في نظريات علم النفس شيء من شأنه أن يعبر جديا في قناعتنا بان هذا العلم لا يمكن اعتباره علما حتىٰ الآن» ا.هـ.

أعلن جفري ماسون أحد المحللين النفسانيين والمتخصص في علم النفس في مكتبة الكونجرس الأمريكي، في كتاب جديد طرح في السوق حديثا أن فرويد لجأ إلىٰ الكذب والغش في التحليلات التي وصل إليها خاصة نظرية: (الدافع الجنسي) عند الاطفال والتي توصل إليها عام ١٨٩٦.

ويقول ماسون: ان معظم الأطفال الذين استعان بهم فرويد في تحقيق نظريته كذبوا عليه ولم يقدموا له معلومات حقيقية.

وقد اكتشف فرويد هذه الأخطاء ولكنه لم يصححها وقد طرد (ماسون) من وظيفته نتيجة لهذه التصريحات.

وقال ماسون: ان انصار فرويد يخافون من تدمير نظريات التحليل النفسي بفضح هذه الأخطاء وقال: انهم محقون في تخوفهم، وقال إذا كانوا علىٰ استعداد لتأكيد صحة تحليلات

فرويد فعليهم إعادة استجواب المرضىٰ الذين خضعوا لتحليلاته منذ عام ١٩٠١ وطالبت ابنة فرويد إلىٰ ماسون أن يعيد (٤٠٠ وثيقة) من رسائل والدها يحتجزها عنده. وتعتبر شهادة جفري ماسون من أقسىٰ الضربات الموجهة للفرويدية خاصة، وقد كشف من قبل أن فرويد كان علىٰ علاقة جنسية مع شقيقة زوجته فضلا عما ذكر من انه كان يتعاطىٰ الحشيش والمخدر.

وقد أشارت معظم الأبحاث الصادرة في السنوات الأخيرة عن ما أطلق عليه (سرقات فرويد) حيث تعرض بالهجوم العنيف من جانب أكثر من مدرسة من مدارس علم النفس والعلوم الانسانية وأهمها كتاب (حركة التحليل النفسي) (رشت جيلنز) وكتاب (اضمحلال وسقوط الامبراطورية الفرويدية) (ايزبنك).

وهما يعتمدان علىٰ مقولة واحدة أن الجديد الذي جاء به فرويد يخلو من الصواب، والصواب الذي قال به لم يكن جديدا ومما أخذ عليه مذهب التداعي للافكار الذي زعم فرويد انه ابتكره كوسيلة للعلاج النفسي يجعل المصالح يطلق العنان لذكرياته دون تدقيق، لم يكن من ابتكاره بل كان من ابتكار (سيرفراستس جالتون) قبل فرويد بأكثر من ربع قرن، واشار (جبلنز) إلىٰ أن فرويد سرق من نيتشه فكرته الأساسية عن ارتباط دوافع الإنسان ورغباته وتصرفاته بدوافع الغريزة الباطنة وغير الواعية.

وقد أشار يونج أن الدافع الجنسي الذي اعتمد عليه فرويد

اعتماداً كليا ليس إلا دافع واحد من دوافع كثيرة ومتعددة .

وقد أثبت يونج ومكدوجل أن العقل الباطن (الذي ابتكره فرويد) ما هو إلا خرافة وقد نوقش فرويد في مسألة العقل الباطن وعقدة أوديب فأنكرهما أخيرا واراؤه في التحليل النفسي والأرواح والرؤى كانت مثار اضطرابات حتىٰ في نفسه هو .

والمعروف أن القوى الهدامة العالمية كانت حريصة علىٰ اذاعة آراء فرويد وحمايتها في سبيل هدم المجتمعات واثارة روح الإباحة وتبريرها وما يتصل باباحة الاجهاض وصناعة موانع الحمل من أجل افساد الأجيال .

(٤)

فساد الفلسفات الوجودية

كانت الفلسفة الوجودية إحدى ثمار المادية والإباحية والوثنية التي تشكل منها الفكر الغربي بعد ان حطم قاعدة الدين التي هي أساس الكيان الاجتماعي الحقيقي للمجتمعات، والفلسفة الوجودية قد قطعت مرحلة واسعة نحو انكار وجود الخالق وحرية الإنسان في التصرف علىٰ نحو الحرية الإباحية المنطلقة من كل قيد أخلاقي واجتماعي وديني، ووجدت الوجودية الالحادية التي تبناها سارتر قبولا من المجتمعات المنهارة والشباب المنهزم أمام أهواء الحضارة، فنفثت سمومها الفتاكة القاتلة في المجتمعات الإنسانية وخاصة المجتمعات الغربية حيث ترى أن الوجود الإنساني مجرد عبث وقد نشأت وذاعت بعد الحرب العالمية الثانية كرد فعل للهزائم التي عانت منها المجتمعات الأوربية وهي تشيع الآن شيوعا واسعا عن طريق الكتابات المسرحية في أوربا.

وهي لا تقدم أي فكرة من الأفكار البناءة الناهضة التي توفر الخير والسعادة لابناء الإنسانية وهي تجعل — كما يقول مصطفىٰ غالب — من الالحاد والزندقة والهرطقة مرتكزات هامة تبني عليها فلسفتها الإباحية، وتبدد هرطقة سارتر في بذائة الألفاظ الهجومية القدرة التي تتناول بها مختلف القضايا وهي ليست فلسفة بالمعنىٰ

الواضح لهذه الكلمة بل هي ارهاصات تمثل النزعة المادية في التفكير.

●●●

وقد نشرت جريدة الهيرالد تربيون موجز الندوة التي تحدث فيها العديد من المفكرين الفرنسيين الذين يمثلون المرحلة التي تلت (سارتر) وقالوا ان سارتر كان لا يناقش أفكاره مع أحد، وان ماركسية سارتر لم تكن أبدا مؤثرة، وانه لم يكن يهتم بالناس ولقد سقطت أفكار سارتر اليوم وظهرت معارضات واسعة للفكر الوجودي والفرويدي وعلى المنهج الحالي في علم النفس، لقد عاش سارتر في برج عاجي ولم يعش في العالم الحقيقي.

وفي مراجعة لكتاب ريمون ارون المفكر الفرنسي زميل سارتر ومنافسه على صدارة الحياة الثقافية الفرنسية طوال ربع قرن (خمسون عاما من الفكر السياسي).

قال: ماذا قدمت الفلسفات الغربية المختلفة من خدمة دفاعا عن لبيرالية الغرب ضد خصوم الليبرالية إلى اليمين (الفاشية) وإلى اليسار (الاشتراكية والشيوعية) لا شيء، والكتاب ادانة صريحة لكل هذه الفلسفات، الوجودية، والوضعية المنطقة، التطورية المادية، التطورية الروحية، النفعية الأخلاقية، فإنها جميعا ما استطاعت أن تدافع عن تراث أوربا الليبرالي (هكذا).. ان أخطر ما في الوجودية انها رد فعل فكرة الخطيئة الأصلية المسيحية ومن

هنا كان موقفها الخطير من الموت والخوف من نهاية الحياة ولعل أبرز مظاهر الفكر الغربي اليوم هو الفزع من الموت نتيجة الخلط بين الرؤية المسيحية التي تقول باستغلال النفس عن الجسم أو ان العذاب في الآخرة معنوي وبروز ظاهرة الانتحار في أرقى دول الغرب ثروة .

الفصل الحادي عشر

سموم = (روائع) الأدب الغربي

كانت هناك دعوى عريضة تتحدث عن روائع الأدب الغربي في دعوة ملحة إلىٰ ترجمة هذه الروائع إلىٰ الأدب العربي ولم تكن هذه الروائع في حقيقتها إلا ذلك القصص الجنسي المكشوف الذي يصور أدق خلجات الغريزة وتبدو معه الحياة وكأنها لحظة جنس مسعور تزين الفاحشة وتقدمها في صورة جميلة وتعرض نقائص الإنسان علىٰ انها حقيقة الإنسان الأصيلة العميقة، مع انه لا يمكن أن تكون لحظات الضعف في حياة الإنسان هي أعظم اللحظات ولا هي كل اللحظات ولا هي المطلوبة دائما لتصويرها بالتفاصيل الدقيقة، وما كان الإنسان ـــ كما تصوره روائع الأدب الغربي ـــ حيوان جنسي علىٰ هذا النحو ولا يمكن أن تتخذ من لحظة الضعف صورة بطولة وتهمل الواقع الكبير الممتد الذي تتسع له مختلف العواطف والمشاعر الكريمة.

كذلك فإن روائع الأدب الغربي تقدم للناس صوراً مزدراة من طفولة البشرية بإحياء الأساطير والخرافات التي تمثل المشاعر الوثنية مع خضوع هذه الروائع للمفاهيم الماركسية والوجودية والفرويدية التي تعتبر الإنسان حيوانا، وعلىٰ هذا تنطلق القصة الغربية بما تحمل من مفاهيم وقيم وأخلاق تختلف عن مفهوم

الإنسان السوي الذي دعته الأديان إلىٰ الأخلاق والفضيلة.

وهكذا نجد ذلك الأدب يعارض الأخلاق بمفهومها الصحيح ومن خلال مفاهيم الرومانتيكية والكلاسيكية والوجودية يقدم لنا نماذج مطبوعة بطابع الانانية والانطواء علىٰ النفس الذي يورث الهم القاتل لكل همه حيث تجد النفوس السقيمة لذتها في الشكوى والبكاء في أن تحيا كالبوم، والخفافيش في الظلام والذي يورث القلوب أحاسيس الشهوات والأهواء.

وباسم الواقعة والتحليل النفسي ظهرت الوان من الأدب ومن القصص خاصة تخوض في أوحال الرزيلة وتعرض خفايا العورات وتجرح كثيرا من الفضائل تورث الكبت وتبرر كثيرا من الرزائل باسم التنفيس وتسقط التبعة في كثير من الجرائم بزعم أن أصحابها مصابون بأمراض نفسية وباسم التحرر واستقلال الشخصية شاعت دعوة إلىٰ إعادة النظر في موارثينا الخلقية ومعاييرنا الاجتماعية وإلىٰ الخروج عن كل ما هو ثابت مقرر فما توقره التقاليد ويقدسه الدين، والدعوة إلىٰ أن يتبنى كل فرد لنفسه عالما مستقلا من القيم تصبح معه مقاييس الخير والشر فردية فلا يكون هناك خير عام، هو خير عند كل الناس ولا شر هو شر عام عند كل الناس وعندئذ لا يصبح هناك مجتمع لان الروح الجماعية هي أساس كل تماسك اجتماعي وظاهرة أخرى في الأدب الغربي هي القسوة: حيث جفت ينابيع السخاء البشري عند كتاب أمثال نيتشه وغيره في محاولتهم القضاء علىٰ الضعفاء

وقتل العجزة أو تركهم يموتون دون أن نعمل علىٰ علاجهم وذلك استمداداً من مفهوم غربي روماني قديم هو أن يكون العدل للسادة وأن يكون الطب للارستقراطيين وحدهم أما الإسلام فإن عدله للجميع وطبه للفقراء، وهم قد وضعوا من خلال قلوب قاسية وحضارة قامت علىٰ النهب والاغتصاب يقولون: لماذا يبقى الزنوج أحياء ما دامت هناك شعوب أرقىٰ منهم، أو يقول مونسليكو: هل يمكن أن يكون الله قد خلق في هذه الأجسام السوداء نفوسا حية. وكان هذا القول تسويغا للاستعمار والاستغلال لأن الأقوياء هم الذين يستعمرون ونيتشة كان يدعو إلىٰ إبادة الضعفاء وكان دارون يقول يتنازع البقاء فانتقل قوله إلىٰ أن الضعفاء هم الشعوب الملونة.

ولقد يتساءل البعض: لماذا يحمل الأدب الغربي طابع التشاؤم والانهزامية واليأس، حيث تعرض المواقف في ظلام شديد ونفور ومرجع ذلك إلىٰ فكرة الخطيئة التي تسيطر علىٰ الفكر الغربي كله: فلسفاته وآدابه، أما الإسلام فلا يعرف فكرة الخطيئة الأصلية ولا يقرها ولذلك فإنه مطبوع دائما بطابع الايجابية والتفاؤل.

﴿ قل لعبادي الذين اسرفوا علىٰ أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾

ومن العجب أن تصدر هذه الاثار المنحرفة من أدباء مرضىٰ

ثم لا يفكر ناقد منصف في أن هؤلاء لا يستحقون متابعتهم، ولقد كان خمسة من عمالقة الفكر الفرنسي الانساني في فرنسا مرضى موباسان، فولبير، بودلير، دوريه.

فولبير: الذي يحمل عاطفة الكراهية الشديدة من الناس والحياة نتيجة مرض نفسي عضال.

بودلير الذي أولع بتعذيب الآخرين نتيجة مرض الماسوشية الذي كان يعاني منه.

موباسان: الذي دعا أن يعيش الناس كما تعيش الكلاب.

اليوت، ولورنس، وروبرت لويل كانوا فريسة لأمراض عضوية ونفسية متعددة.

نيتشة: كانت حياته مليئة بالتعاسة وكان الحزن والعزلة يضربان حصاراً قويا انتهى به إلىٰ الجنون ومات وهو يعاني مرض الزهري.

هؤلاء الذين كتبوا روائع الأدب الغربي التي مازال كتابنا يترجمونها ويدعوننا إلىٰ اعتبارها المثل الأعلىٰ للقصة العالمية.

فإذا راجعنا هذا الأدب الرفيع، وجدنا جميع أبطال دستوفسكي شواذ ومرضىٰ، وجميع أبطال فرويد منحرفون، وتجربة برتراندرسل الذي يشيدون به تجربة قذرة وهافلوك اليس كان ضعيفا جنسيا وكان يحاول بكتاباته اعطاء نفسه شخصية الرجل القادر.

وهكذا نجد أن هذا النتاج كله بالاضافة إلىٰ شعر هوجو

وموسيه وروستان وغيرهم لا يمثل إلا أهواء النفس وغليان الشهوات في الأجساد وأحقاد الناس.

وقد جاء ذلك نتيجة الفصل بين العقل والوجدان، وبين الجسم والنفس وبين الفكر والعاطفة، وذلك التناقض الخطير بين الدعوة إلىٰ العلم والعقل وبين استشراء الأساطير والخرافات.

ويحمل الأدب الغربي طابع الاستعلاء باللون الأبيض في مواجهة عبودية الشعوب الملونة، علىٰ نفس الطريق الذي رسمه ارسطو وافلاطون اللذين يريا أن العبودية أمر عادل تفرضه الطبيعة.

إن الدعوة إلىٰ طرح هذا الأدب في أفق الفكر الإسلامي هو أخطر محاولة لتدمير مجتمعنا وقيمنا فإن هذا الأدب قد قام فعلا علىٰ مقولة المدرسة الاجتماعية التي تقول بان الأخلاق ليست قيمة ذاتية ولا هي ثابتة علىٰ وضع معين وانها تأخذ صورتها من المجتمع الذي توجد فيه وان المجتمع هو الأصل في كل الظواهر الاجتماعية، وليس الإنسان، ولا ريب ان طرح هذه المفاهيم ومداومة بثها عن طريق الصحافة وأدوات الاعلام وتطعيمها القصص والمسرحيات والافلام السينمائية هي من أخطر المحاولات التي ترمي إلىٰ جعلها مسلمات في نظر الشباب المسلم وفي نظر الذين لم يحصلوا بعد علىٰ ثقافة اسلامية كاملة أو أصيلة والهدف هو نفي القداسة عن الدين والأخلاق والتشكيك في قيمهما ولهذا

أثره الهدام للمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي وهو ما قدمته فلسفات دارون ونيتشه وماركس وسارتر وفرويد ودوركايم.

●●●

إن هذا الاتجاه في الغرب لا يبدو غريبا فإنه لمّا منعت رواية لورنس (عشيق اللورد تشارلي) أعلن الناشر الامريكي أن التوراة صورة من الشذوذ الجنسي وان في القصص العارية في الكتاب المقدس ما هو أبشع وادعى للاشمئزاز مما كتبه لورنس وغيره ولا ريب أن روائع الأدب الغربي التي يتحدثون عنها لا تحمل إلا وجهة واحدة هي النزوع الجنسي العنيف وثورة الجنس والدعوة إلىٰ اعطاء الشهوة منطلقها دون النظر إلىٰ حد ما أو ضابط ما أو خلق ما وان كل الروايات الخالدة تمثل هذا الاتجاه.

وهكذا تقترن موجة الانحلال في الأدب الغربي بموجة الالحاد في الفكر الغربي تحت اسم العلم وحرية البحث.

إن الآداب العالمية لا تعالج إلا أربع قضايا: الحب بمعنىٰ الجنس والموت والاغتصاب، عبادة الجسد وتقديس الشهوة وهي مأخوذة من الفن اليوناني الاغريقي القديم.

والحوار في القصة أو المسرحية يتحرك بين عوامل، الحقد، اليأس، القنوط، التشاؤم، الإباحية.

والمعروف أن ٩٠ في المائة من هذه القصص والمسرحيات قد

ترجم إلىٰ الادب العربي تحت أسماء مختلفة، بهدف تدمير اخلاقنا ومنها ما ترجم طه حسن والزيات وعنان وفيلكس فارس، وإذا كان لنا أن نتساءل: هذه أعطت هذه المترجمات حقيقة صورة النفس الإنسانية إلا في اسوأ حالاتها في مرحلة سيطرة نظرية فرويد علىٰ الادب.

●●●

وقد أشار الدكتور المهدي بن عبود في محاضرة له عن كتاب أوربي اسمه (قرن الاكتئاب والضجر والهم) عبارة عن روايات ومسرحيات واشعار وجدانية، يرسم الأساس النفسي للتفكير في الغرب وينم عن صورة مبلبلة قائمة، نخشىٰ علىٰ أجيالنا الصاعدة أن تغرهم وتجرفهم إلىٰ هاويات يصعب الخروج منها بعد الوقوع فيها.

ويقول: ان طابع الأدب الغربي هو التشاؤم والتشاؤم طبع وليس بموقف عقلي وهو مزاج وليس بحصيلة علم، واشهر المتشائمين في الفلسفة الغربية هو شوبنهور أخذ هذا من الفلسفة الهندية التي تقول ان الإنسان دائما وراء الشهوات.

أما الإسلام فلا يقر اليأس ولا القنوط من روح الله وكل كتاب التشاؤم يهود: بيكيت، كافكا، هنري ميلر (في الغالب).

وقد عرف بيكيت ككاتب لليأس والمأساة الأبدية وهو صاحب مسرح العبث أو اللامعقول، وهو كاتب مأسوي فاجع

تملؤه المعاناة وابطاله يعيشون في أرض خراب علىٰ تخوم الأبدية ويحسون الفناء، تمتلئ أعماله باللوعة والعذاب وشطحات الخيال المنحطة.

أما كافكا فبسبب تكوينه النفسي المعقد، اضافة إلىٰ احساسه المفرط بيهوديته فهو كانما يشن عدوانا مستمراً علىٰ العالم وينسج كتاباته من خيوط احباطاته وعقده، يعيش في عالمه الموحش (العدم).

أما (هنري ميلر) فهو الذي أدخل إلىٰ الأدب الكلمات ذات الحروف الأربعة، التي تشير إلىٰ الاعضاء التناسلية، ادخلها في تعبيره الأدبي لكي يكسر حدود الحياء ويتحدى القيم، كتاباته تمثل حياة المغامرات العارية، تماما حيث تتصارع الغرائز مع قوى الطبيعة وهو يتابع بيكيت ولورنس ويوصف بانه زعيم من زعماء ثورة الجنس.

هذا هو الادب الغربي الذي يوصف بادب الروائع فهل نحن في حاجة إليه حقا!

الباب الثالث
المواجهة مع الفكر الغربي

الفصل الأول
الكشف عن محاولات الاحتواء

من متابعة الفكر الغربي في مراحله الثلاث: يونانيا، ومسيحيا، وماديا نجد انه لم يقم إلا علىٰ أهواء البشرية في محاولة لطرح مفهوم اجتماعي منفصل عن الوجهة الربانية التي تعترف بعطاء الله تبارك وتعالىٰ ووجهه بل ومتعارض مع هذه الوجهة تحت اسم الخصومة مع الدين والكنيسة وفي محاولة لإقامة نظام بشري من خلال الأيدلوجيات والفلسفات التي عجزت عن العطاء واضطربت وجهتها لا تقوم علىٰ الظن وما تهوى الأنفس فعاش الغرب خلال هذه القرون الخمسة الماضية في صراع متصل يستبطن التمزق والغربة والقلق ويظهر الاستعلاء بدعوى الاستغناء عن عطاء الدين.

وقد كانت اداة الغرب الماكرة في سبيل سيطرته علىٰ مصادر الثروة في عالم الاسلام هي طرح هذا الفكر المختلط المضطرب: ركام الزيف وطفولة البشر في أفق الإسلام لاحتوائه وصرفه عن وجهته الأصيلة والسيطرة عليه وقد وقع المسلمون في الشرك حينا

تحت تأثير الانبهار بحضارة الغرب وبريقه وبخداع دعاوى المنهج العلمي ثم تنبهوا واستيقظوا حيث توالت الأحداث فاقنعتهم بفساد هذه الوجهة ودفعهم إيمانهم بالإسلام إلىٰ التحرر من التبعية والعودة إلىٰ المنابع ثم كانت خطوتهم التالية في مواجهة هذا الفكر المادي الاباحي الوثني وكشف زيفه، وكان للإسلام موقف واضح من كل قضية، بالكشف عن فساد ما تحمله النظرية الغربية من خلال عجزها عن الارتباط بمنهج الله من ناحية ومن حيث انشطارها وبشريتها وسيطرة الفلسفة المادية عليها.

وكان أول علامات المواجهة كشف تلك المسلمة الخاطئة التي كانت تدعى علىٰ أيدي طه حسين وزكي نجيب محمود ولويس عوض وعلي عبدالرازق ومحمود عزمي وغيرهم قدرة المنهج العلمي الغربي، علىٰ العطاء المجرد بحيث يمكن القول بان هذه النظريات ليست إلا حقائق علمية، وكان أخطر ما قال هؤلاء هو أن النظريات الفلسفية ــ التي هي نتاج عقول بشرية في مجال تحديات مجتمعاتها ــ وفي ظروف مختلفة عن ظروف المجتمع الإسلامي هي علوم كما فعل ذلك بالنسبة للفرويدية والوجودية والماركسية والرأسمالية ــ ثم كشفت الأيام فساد هذه الدعوة المدعاة إذ اعتمدت هذه المناهج الفلسفة علىٰ بعض المعطيات العلمية المادية التي ما لبثت أن تغيرت فاهترت نتائجها.

وقد توالت الأحداث والمتغيرات فكشفت عن عجز المنهج العلمي الغربي عن العطاء وما يحوطه من ثغرات في مجالات كثيرة

خاصة في العلوم الإنسانية التي اعتمدت علىٰ منهج العلوم المادية متجاهلة الفوارق العميقة بين العلوم المتصلة بالمادة وبين ما يتصل بالنفس الإنسانية ومن ثم كشفت متغيرات المجتمعات عن انهيار وسقوط عدد من النظريات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي طالما تغنى بها دعاة التعريب.

وقد تبين للمسلمين أنه لا يمكن أن تؤخذ العلوم من الغرب علىٰ انها التطبيق الوحيد، وانما ما يؤخذ من الغرب يجب أن يكون بمثابة مواد خام يشكلها المسلمون في دائرة مفهومهم للعلم.

فالمسلمون لا يريدون أن يحتووا في دائرة التكنولوجيا العالمية بحيث ينصهرون فيها ويصبحون جزءاً من هذا النظام العالمي الذي يدخل دائرة المحاق والانبهار ذلك لأن لنا في الإسلام مفهوما مختلفا بعيدا عن مفاهيم الاقتصاد العالمي من الاحتكار والربا والعنصرية والصراع الطبقي واعلاء شأن الجنس الأبيض والسيطرة علىٰ الآخرين.

إننا ندعو إلىٰ ترجمة العلوم إلىٰ اللغة العربية أولا ثم نشكلها في دائرة فكرنا واطار مفهومنا للعلوم، ليس فيها استعلاء ولا تسلط ولا تحيز لجنس أو طائفة وانما هي في مفهوم الإسلام ملك للبشرية جميعا.

وهي ليست وسيلة لتهديد البشرية أو تدميرها ولكنها للامان والبناء والخير، ان هناك محاولات لاحتوائنا في دائرة العلوم الحديثة

والتكنولوجيا حتى لا تكون لنا حضارتنا المستقلة فإذا قبلنا ذلك في ظرف الضعف الذي نمر به الآن ضاعت ذاتيتنا وانصهرنا في بوتقة حضارة نلفظ أنفاسها الأخيرة.

●●●

كما ان المفهوم الإسلامي للعلم والثقافة لا يقر النظرة الغربية التي تعتمد على القياس المنطقي وتعتبره أساسا واحدا للنظر مع أن القياس المنطقي ليس وحده كافيا في إقامة النظريات خاصة إذا تعارضت مع واقع التاريخ، كذلك فإن الاستشهاد بوقائع غامضة من التاريخ هو أيضا تضليل علمي ومحاولة لاستغلال النصوص لتأييد وجهة نظر مسبقة لأنه يقدم جزءاً من الحقيقة ويتجاهل أجزاء أخرى وهذا القياس هو القياس الفاسد الذي لا تؤيده حقيقة علمية.

إن القياس المنطقي (الذي قامت عليه الماركسية والمادية الجدلية والوجودية) ليس كافيا في اقامة النظريات والمذاهب خاصة إذا تعارضت مع وقائع التاريخ.

إن الدعاة إلى منهج الغرب في العلم والعقلانية إنما يريدون في الحقيقة فرض النظريات الفلسفية (وليس العلم التجريبي الذي أصبح يعترف الآن بوجود عالم الغيب) ولكن بادعاء باطل بان الفلسفة علم وما من واحد يستطيع أن يستقرئ تاريخ الصراع بين علماء أوربا وبين الكنيسة والمسيحية إلا ويعلم أن الفلسفات هي

محاولة لسد الفراغ بتقديم ما يسمىٰ دين البشرية بعد الحملة الشديدة التي شنها العلماء علىٰ المسيحية حين قالوا: ان الأوربي لم يتمكن من الخلق والابتكار إلا بعد ان تحرر من قيود تعاليم المسيحية الصارمة في الروحية وانطلق في جو الثقافة اليونانية، وهو الذي انهى تأخر المسيحية طوال القرون العشرة التي اعقبت اعتناقهم لها وقال آخرون: ان اوربا لم ترتق إلا بعد الانفصال عن الدين بينما أن العلم لم يظهر في الإسلام إلا نتيجة لدعوة الدين نفسه

﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾

ولقد كشف علماء الغرب عن تناقض الكتب المقدسة في مصادرها وتواريخها وما أظهرت الأبحاث العلمية الحديثة عن فساد تقديراتها في حساب الزمن وخلق الكون وغيرها فضلا عن الخلاف والتناقض بين العهدين القديم والجديد.

وقد جرت محاولات التقريبيين: طه حسن، وعلي عبدالرازق، ولطفي السيد، وسلامة موسىٰ أن ينقلوا هذه المعركة في أفق الإسلام فجرى الحديث حول التشكيك في القرآن والسنة تشبها بمعركة الغرب مع الكتب المقدسة.

ثم كانت الدعوة إلىٰ العلمانية والعقلانية بمثابة محاولات للتشكيك في الوحي ورسالات السماء بل واستغلال مفاهيم

المعتزلة التي تعلي من شأن العقل علىٰ النقل (أي الوحي)، كذلك فقد جرت الدعوة إلىٰ ما يسمىٰ التشكيك في القديم، واعادة النظر فيه، وما القديم إلا الدين (وهناك من كتب خرافة الميتافيزيقا (أي خرافة الغيب) ومن دعا إلىٰ ان الدين لم ينزل من السماء وانما خرج من الأرض كما خرجت الحياة نفسها (نقلها طه حسين عن دوركايم) وهناك دعاوى الحكومة الدينية في الإسلام (مع أن الإسلام لم يعرف هذه الحكومة في تاريخه كله) وهناك انكار الوحي، والهجوم علىٰ الصحابة ووصفهم بانهم سياسيون محترفون، وهناك احياء أساطير الفكر الوثني القديم ودعوة علي عبدالرازق واتخاذه هونر وميكافيلي أساسا لتحليل الفكر السياسي الإسلامي في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) وهناك الدعوة الموجهة للعرب بعد نكسة ١٩٦٧ بضرورة الخروج من الماضي كله.

هؤلاء كتابنا اللامعون الذين تأثروا بالفكر الغربي (الوثني المادي الإباحي) في مواجهة الإسلام النقي: دعوة التوحيد والرحمة والاخاء البشري كل هؤلاء ارتكبوا خطأً فاحشا هو الحكم بان نقد الغربي للدين المسيحي وأثره في الحضارة الغربية يمكن أن ينطبق علىٰ الإسلام وما أبعد الفارق وأعمقه، بين الفكر الديني المسيحي القائم علىٰ اللاهوت وبين الإسلام الذي هو منهج حياة ونظام مجتمع، قدم للبشرية حضارة التوحيد الخالص وحرر البشرية من عبودية الوثن وعبودية الإنسان للإنسان.

ولقد واجهت حركة اليقظة الإسلامية كتابات هؤلاء التعربيين ودحضت مفاهيمهم المضطربة ولكن بعضا منهم مازال مصراً علىٰ محاولاته بالرغم من جفاف أسلوبه وكراهية الناس له، وبالرغم من اعطاء الصحافة العلمانية له من الأهمية والمكانة في التركيز عليه وحجب ردود المعترضين يزيدها قوة أن جذور هذه النظريات الفلسفية الضالة ماتزال تدرس في جامعاتنا ومعاهدنا علىٰ انها علوم لا تقبل النقيض وخاصة مذهب دارون ونظريات فرويد وماركس دوركايم وسارتر الخ.

ولقد كان من الضروري اعادة النظر في كتابات هذه الأجيال التي توصف بالريادة وتسمىٰ بالقمم الشوامخ منذ الطهطاوي إلىٰ طه حسين ولطفي السيد وغيرهم مما يخدعون به الناس اليوم ليستبقوا تلك المفاهيم المضللة.

●●●

كذلك ماتزال الكتب المترجمة عن الغرب والتي حرضوا علىٰ فرضها علىٰ المسلمين قائمة

العقد الاجماعي لروسو.
أصل الأنواع لدارون.
رأس المال لكارل ماركس.
تفاوت العناصر البشرية لجوبنيو.
العبقري للمبروزو.
الأمراض النفسية في الحياة اليومية لفرويد.

الأمير ميكافيلي.
البرجمائية: وليم جيمس.
ثروة الأمم: روبرت أوين.
نظرية ديوي.
جمهورية أفلاطون.

هذه الكتب التي ترجمت وقدمت من خلال أبحاث هذه الأسماء اللامعة من المفكرين التعربيين: وقد آن الأوان لكشف زيف هذه الكتب وتقديم أولئك الاعلام: ماركس وفرويد ودوركايم ولورنس وسارتر وفولتير ورودولسون وماركوز وماكس نوردو ومندل وبونسكو وبكيت وسانت نيف وسارتر إلىٰ القارئ المسلم بصورته الحقيقية بعد ان زيفته أقلام ومجلات عربية كثيرة صدرة بتوجيه زكي نجيب محمود وفؤاد زكريا ولطفي الخولي.

إن كتابنا التعربيون ينقسمون إلىٰ دعاة للرأسمالية ودعاة للشيوعية، ولكن حركة اليقظة تنكر الرأسمالية والشيوعية جميعا ولقد خضع الفكر المسمىٰ بالعربي الذي قدمه كتاب لهم ولاء معروف طوال هذه السنوات الثلاثين لهذه التيارات، تيارات الولاء للغرب الرأسمالي أو الماركسية المسماة بالاشتراكية واليسار وعشرات الأسماء المضللة.

يقول الأستاذ عبدالقادر الادريسي: ان ما جره هذا الفكر علىٰ الحياة العربية من أزمات ومشاكل مستفيضة طيلة ثلاثين عاما يقدم دليلا علىٰ فشله وتهافته وبطلانه وعدم صلاحيته،

ويتعلق الأمر بصفة خاصة في السياسات المصيرية المرتبطة بقضية فلسطين حيث ثبت للجميع أن الفكر الذي قاد معارك العرب والمسلمين مع اسرائيل والصهيونية والاستعمار كان متواطئا بكيفية أو بأخرى مع العدو في تصوراته ومطامعه وأخلاقه.

●●●

وحتىٰ لا يظن ظان اننا نتجنى علىٰ الغرب فإن علما من كبار اعلامهم هو جون ستورت مل (١٨٧٣) صاحب المذهب النفعي من الأخلاق وأحد أصحاب النزعة الليبرالية الكبار يأخذ علىٰ النظريات الاوربية ضيق أفقها الذي أفضىٰ بها إلىٰ فهم جزء من الحقيقة علىٰ انها الحقيقة كلها لقد اعترفت بالجانب المادي أو الاقتصادي أو الاجتماعي في حياة الإنسان ولكنها انكرت الجوانب الأخرىٰ، ان جانبا واحدا من جوانب الحياة الإنسانية ينتزع من سياقه الصحيح ويبالغ في أهميته مبالغة تتجاوز كل الحدود المعقولة هو مصدر الخلل الأساسي في الموقف الأوربي، انه خلل ثقافي في قلب الثقافة وجوهرها الا هو النظرة إلىٰ الإنسان.

هذه هي البضاعة الفاسدة التي باعوها للمسلمين.

نعم: لقد عجزت الماركسية والديمقراطية جميعا أن تعدا للمسلمين منهجا صالحا للتطبيق، وقد لقيت صعابا شديدة في القبول في مواجهة الفكر الإسلامي الذي استمد مضمونه من منهج محكم رباني تعجز أي المناهج البشرية أن تقتحمه أو تسيطر عليه، وان هذه المناهج حين طرحت نفسها في أفق الفكر

الإسلامي فإنها سرعان ما كشفت عن نقصها وعجزها عن العطاء الذي كانت تتطلع إليه النفس الإسلامية العربية من خلال مفهومها الجامع المحكم الذي أمدها به الإسلام منذ أربعة عشر قرنا والذي مهما نحى عنها فإنه قائم في أعماقها ولقد صدق ابن خلدون حين قال: ان العرب لا يقادون ولا يخضعون ولا يتحضرون إلا بنبوة أو ولاية دينية أو استمداداً منها، وقد عجزت محاولات الغزو في اجتياحهم أو اخضاعهم لانهم لا يقادون في أي نهضة أو اصلاح في أي مجال من مجالات حياتهم إلا في ظل الدين الالهي الصحيح الذي كان دائما أعظم قوى الدفع لحركاتهم التاريخية والحضارية الكبرىٰ علىٰ مدى العصور.

ولقد كان الإسلام في مرحلة الأزمات قادراً علىٰ الانبعاث من الداخل وتحدي محاولات الغزو والتغريب التي يراد فرضها عليه.

وفي مجال الفلسفة كانت المؤامرة واضحة فقد جاءت الترجمات للفلاسفة الغربيين (كانت سيبونزا — لينتز، هيجل، وليم جيمس، برتراندرسل) كلها فلسفات فضفاضة قائمة علىٰ تعظيم الشخصيات ومحاولة اقناع القارئ باهوائها وخلطها، ودون تقديم فكرة حقيقية عن «عصر» الفيلسوف وتحديات مجتمعه وما يمكن أن نستفيد منه نحن كمسلمون وعرب.

وكذلك كانت ترجمة التراث اليوناني أو التصوف الفلسفي، في خلط عجيب بين الفلسفات المثالية والتجريبية، والعقلانية، والعبثية وكذلك تقديم شخصيات مضطربة من الفكر الإسلامي

الفلسفي، ابن عربي، مسكويه، ابن رشد، ملخص كتابات ارسطو، افلاطون، افلوطين.

وكان محمود قاسم، وعبدالرحمن بدوي والاهواني وعلي عبدالواحد وافي وابو العلا عفيفي قناطر لترجمة الفكر الغربي دون القاء الضوء علىٰ ما يكشف أمام القارئ المسلم حقائق العلاقات واختلاف المفاهيم بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي إلا قليلا مما كتبه الحضري وتوثيق الطويل وعبدالهادي أبو ريدة.

وكان اسراف التعربيين في فرض المفاهيم الوافدة، حيث تخصص زكي نجيب محمود في (تحكيم العقل وحده دون المفهوم الجامع للإنسان).

أما عبدالرحمن بدوي فقد عنى بالشخصيات الموصومة والمنحرفين أمثال الحلاج والسهروردي وتخصص إبراهيم بيومي مدكور في احياء ابن سينا علىٰ الرغم من كل ما وجه إليه من اتهامات بانه من أولياء الباطنية القرمطية.

وجاء بعد ذلك زكريا ابراهيم وفؤاد زكريا علىٰ طريق السامعين واعيد احياء المدرسة المختلطة: الفارابي وابن سينا وابن رشد والكندي حتىٰ جاء مصطفىٰ عبدالرازق وتلميذه الأثير علي سامي النشار ليضعون هذه القضية في وضعها الصحيح.

وفي ضوء هذا التحول الواضح تبين مفهوم الفلسفة الغربي علىٰ حقيقته وهو كما وصفه الدكتور التفتازاني: انها الفكر

العقلاني الحر الذي يسير في طريقه مستقلا عن الوحي وتعاليمه مخالفا أيضا للإسلام فإن العقل في الإسلام مقيد بالوحي وإذا كان العقل يخطئ ويصيب فإن النبي ﷺ كما جاءنا من عقائد وأحكام عن طريق الوحي معصوم من الخطأ ولهذا يجب دائما تصحيح ما يصل إليه العقل علىٰ أساس ما جاء به الوحي، ولا ريب كانت دعوة التشكيك في المنقول محاولة للتشكيك في الوحي وما جاءنا من رسول الله من قرآن وسنة.

أما دعوة الإسلام فهي استعمال العقل في النظر والاعتبار (فاعتبروا ياأولي الأبصار) ولا يعني هذا أن العقل يتقدم الشرع لأن ملكات الإنسان ومنها العقل الاستدلالي محدودة، ولأن العقل لا يكون في كل حالاته بمعزل عن الهوى أو العاطفة.

ولم يحد الفكر الإسلامي في مختلف عصوره عن الاتجاه الذي يربط بين نظر العقل وأحكام الوحي فكان علماء التوحيد حريصين علىٰ اثبات ما جاء به الوحي من عقائد بواسطة النظر العقلي.

وقد بين ابن تيمية (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) ولا ينبغي أن يتطرق إلىٰ الذهن أن ما جاء به الإسلام من عقائد وأحكام يتعارض مع العقل وكيف يتعارض، وقد عرض القرآن عقائد الإسلام علىٰ العقل ودعاه أن يناقشها ليميز الحق من الباطل ودلل عليها بالحجة الواضحة كما ذكر العقائد المخالفة ذكر بالحجة عليها.

أما مفاهيم العلوم الغربية فهي مناقضة للإسلام لانها تنطلق من الالحاد وأغلب مذاهب الفلسفة الأوربية الحديثة والمعاصرة تسير في غير اتجاه الدين، ان انطلاق العقل في أوربا في اتجاه معاد للدين هو رد فعل لاضطهاد الكنيسة للمفكرين الغربيين.

وان الربط بين الوحي والعقل أول قاعدة اسلامية.

●●●

وإذ حس الغرب أن المسلمين بدأو يواجهون سمومه ويكشفون خططه بدأ يعيد ترتيب أوراقه علىٰ نحو أشد خطورة.

أولاً :المناهج في الغرب تحمل الحقد للإسلام ولا تعترف بفضله علىٰ الحضارة وانما تنتمي لحضارة اليونان والرومان ولا تعتبر الإسلامَ إلا ناقل لها.

ثانيـــاً : غرس بذور الحقد في مناهج التعليم الأوربية وتخشى أن يثبت ذلك في أذهان أهل الغرب فهي تنقله إلىٰ أذهان أهل الإسلام في برامج تدرس في البلاد الإسلامية.

ثالثـــاً : تعليمه لابناء المسلمين القادمين إليها في بعثات ليكونوا سنادها في بثه في المسلمين مرة أخرىٰ فتجد طه حسين يقول:

(لا تصدقوا أهل الغرب في قولهم عن أنفسهم كذا وكذا ...

الشخصيات التي نالت تعليمها في الغرب وعادت لقيادة الحركة التعليمية والثقافية في بلادها.

رابعـــاً: ضرب الموجة الجديدة التي تعترف بالإسلام في الغرب والتشويش عليها والعمل علىٰ الحصول من المسلمين علىٰ شهادات بانه لا فارق حقيقي بين الإسلام والمسيحية.

خامساً: ظهور الاسرائيليات المعاصرة التي تطعن في الاعلام والعلماء الذين كانوا رواد الحضارة الإسلامية وعمدها ورسلها وانكار الدور الإسلامي نهائيا.

سادساً: ظهور موجة جديدة من السيطرة والتدمير والتخريب عن طريق الانتفاع بالتكنولوجيا الحديثة لجماعة تدعي حقا في أرض الإسلام وتفصل المشرق عن المغرب وتؤخر التقدم.

سابعـــاً: اعتبار الإسلام مصدراً للتأخر والجمود والعداء للنهضة بقولهم ان الإسلام دين عبادي لا علاقة له بالقانون والاقتصاد والسياسة.

ثامنـــاً: اجراء محاولات ضد الأمة بواسطة بعض ابنائها عن طريق احتواء الأقليات والعناصر الكارهة للعروبة والإسلام وهذه هي الشعوبية الحديثة والعمل علىٰ ضرب الإسلام من داخله.

●●●

إن هذه الخطة التي رسمها النفوذ الغربي لاحتواء المسلمين تتعرض اليوم لخطر جسيم فقد تكشف للمسلمين فساد منهج

الغرب أصلا، وجرم اتخاذه منهجا لهم ولذلك فهم يعودون مرة أخرىٰ إلىٰ منهجهم الأصيل.

ويتجلى خوف الغرب من عودة المسلمين إلىٰ تاريخهم وتراثهم وماضيهم في فزع يدفعهم إلىٰ اطلاق صيحات مفزعة، فقد كانوا رسموا للمسلمين والعرب خطة تحول وخطة احتواء ومضوا فيها قدما بتقدمها المدفعية الاستشراقية والتبشيرية وتحوطها قوى التغريبيين وتسيطر علىٰ المناهج الدراسية في الجامعات والمعاهد، فضلا عن السيطرة علىٰ الصحافة والثقافة وقد خرّجت العشرات من المؤمنين بها والعاملين لها فإذا وجذت اليوم أن العالم الإسلامي يفقد ثقته في هذا كله ويكتشف انه كان مخدوعا وانه استيقظ الآن وان هذه التجربة المريرة لم تحقق أكثر من تخلف وتبعية لمدة مائة عام من اليوم الذي كان مطلوبا فيه من المسلمين العودة إلىٰ المنابع والتماس الأصالة، هنا فقد التغريبيون واتباعهم اتزانهم العلمي المصطنع، وبدأوا يهاجمونَ في عنف.

لقد تبين للمسلمين ان هذا المنهج العلمي الغربي (بشقيه) مغلوط وكاذب ومضلل ومتى انكشف هذا الخطر فقد تصدع هذا البناء وبدأ ينهار وبقى علىٰ المسلمين التماس منهجهم الأصيل.

إنها ليست عودة إلىٰ الماضي ولكنها عودة إلىٰ الأصل الأصيل الذي حذف وحجب التعريب والغزو الفكري نفوذه الأصيل، ان الغرب قد يظن ان المسلم قبل هذا الوضع العصري بارادته ورضاه وهذا غير صحيح، لأنه انما فرض عليه بالخداع والتضليل

والاغراء وهو مجاف في الحقيقة لمنهج فكره الرباني الأصيل.

لقد أخذ الغرب من المسلمين وانكر ولا يزال ينكر ويستعلي بمفاهيم أخذها من علوم المسلمين ثم حرف خططها وحجب أصولها حتى لا يعود المسلمين إلىٰ منابعهم.

هذه هي حقيقة رؤية الغرب لنضاله ضد الإسلام خلال أكثر من قرن من الزمان.

إن عشرات من المفاهيم والمصطلحات يختلف فيها الإسلام عن الغرب عند المسيحية، عن العلمانية، عن الفلسفة المادية (الله ـــ الدين ـــ الأخلاق، الأسرة، الدولة، الحكم، الحضارة) فضلا عن اختلاف مفهوم العلم والحضارة والاجتماع والتربية مع الاعتذار لفضيلة رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي وغيرهما الذين ظنوا ان ما يرونه في الغرب مأخوذ من الإسلام ولذلك فإن اعادته لا بأس به، ذلك أن هؤلاء لم يتعمقوا عظم الخلاف الذي طرأ علىٰ المفاهيم التي أخذها الغرب من المسلمين وكيف عجت بالوثنيات اليونانية والعبودية الرومانية.

إن الخطة الجديدة هي محاولة احتواء الإسلام وأصله تحت عنوان آخر هو (الحوار بين الشرق والغرب) أو بين شواطئ البحر المتوسط، بهدف الحصول علىٰ تنازلات جديدة، والخدعة الجديدة تهدف إلىٰ تسمية الاستشراق (الدراسات الشرقية) أو اعتراف ضمني من أجل المحافظة علىٰ البترول وأسواق الصادرات

والسيولة النقدية ولكن هذا يقابل بالتصميم علىٰ حقيقة أساسية:

وهي أن المسلمين لا ينقلون نظما وان ما ينقلونه انما هو بمثابة مواد خام يشكلونها في دائرة فكرهم علىٰ النحو الذي يرونه مناسبا مع مفهوم التوحيد الخالص.

الفصل الثاني
صيحة التصحيح بعد المواجهة

كان أول ما كشفت عنه حركة اليقظة الإسلامية في مواجهة المنهج الغربي الوافد تأصيل منهج البحث عند المسلمين علىٰ النحو الذي يفهمه المسلمون وليس علىٰ الصورة الزائفة التي يدعونها المغربون وسادتهم من اقرام المستشرقين والمبشرين الذين يلبسون لباس العلماء فقد كان من الضروري أن يعرف الشباب المسلم المثقف أن المسلمين قد وضعوا منهجا في البحث يختلف عن المنهج الغربي المستمد من المنهج اليوناني، حيث يستمد المنهج أصوله من روح الفكرة فالفكرة القرآنية الإسلامية القائمة علىٰ التوحيد لا يمكن أن يكون منهجها مشابها أو متلاقيا مع منهج اليونان القائم علىٰ العبودية وشرعة الرق وعلم الأصنام.

ويقوم منهج الإسلام علىٰ نبذ التقليد والاعتماد علىٰ ما صح بالبرهان والدليل والنظر في الكون، واجراء التجربة وتكامل القيم: الروحي به والثابت والالهي البشري هذا الذي يبدو في نظر الغرب متعارضا.

فالمنهجية العلمية بمفهومها الإسلامي تجمع بين الوحي والعقل ويقوم علىٰ الربانية دين الإنسان وربه والاخوة الإنسانية والتكامل بين الكون والإنسان والاعتراف بالتعدد داخل اطار الوحدة

الإسلامية وبالخلاف الفرعي في الفروع.

وأبرز ما يميز المنهج الإسلامي هو الترابط بين النظرية والتطبيق وبين المنهج والسلوك وبين العقيدة والعمل وهو ما يختلف تماما عن مفهوم الغرب القائم علىٰ الانفصال بين العقيدة والعمل والمادة والروح يقول دكتور كارل في كتابه تجديد الإنسان: لقد فصل ديكارت الأشياء المادية عن الأشياء الروحية فأصبحت مظاهر العقل بعد هذا التفريق مما لا يمكن تفسيره، وهذا بناء الجسم وطريقة قيامه بوظائفه المختلفة في نظرهم أشد ثبوتا من الفكرة والنشوة والحزن والجمال، هذا الخطأ حول الحضارة إلىٰ الطريق الذي أفضت إلىٰ انتصار العلم وانحطاط الإنسان وان منقذي العالم يجب أن يتوفروا علىٰ دراسة الإنسان من ناحيته الكمية والنوعية معا.

هذا أعظم وجوه الخلاف بين الإسلام صاحب المنهج الجامع بين القول والعمل علىٰ نحو يقرع فيه القرآن من يفصل بينهما.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾

لقد انتقل الفكر الغربي من الثبات المطلق (ارسطو) إلىٰ التطور المطلق (هيجل) ولم يعرف التكامل بين القيم أو الالتقاء بين الأجيال، فهناك الصراع الذي يقود إلىٰ التمزق بينما يقيم

الإسلام فكره علىٰ التكامل والالتقاء.

●●●

وفي مواجهة مغالطات شديدة واتهامات خطيرة ومحاولات لانتقاض مفهوم الطريقة العلمية في البحث عند المسلمين كان لابد من ان تعلو الصيحة لاعادة كتابة تاريخ العلوم الإسلامية حتىٰ نضع بين أيدي شبابنا المسلم هذه الحقائق في مجالين مترابطين: (أولا) في وجه التجاهل الخطير الذي تقوم به دراسات العلوم في الجامعات من حيث تبدأ بالمرحلة الغربية ويتجاهل تماما الدور الذي قام به المسلمون في بناء هذا المنهج (ثانيا) في تجاهل وجهة نظر الإسلام تماما في مختلف العلوم الإنسانية كالاجماع والأخلاق والاقتصاد والسياسة.

فالمسلمون هم أول من وضع الأسس الصحيح للبحث العلمي، يظهر ذلك في أبحاث الحسن بن الهيثم والبيروني: ان الإسلام هو العامل الرئيسي — كما يقول دكتور يوسف محمود — الذي اثار الأبصار وحث علىٰ النظر والتفكير في المحسوسات وعلىٰ البحث عن الدليل والبرهان في الآراء والافكار وهو الذي بين أن ظواهر الكون تخضع لقانون السببية وأكد علىٰ عالمية العلم سواء في الأخذ أو العطاء، كما ربط الجغرافيون المسلمون بين عقيدتهم الإسلامية ومنهجهم المتبع وحققوا الموضوعية بما توافر لديهم من رحلات وتجارة وبيانات.

ويمتاز المنهج العلمي الإسلامي ـــ كما يقول دكتور حسن الشرقاوي ـــ بشمول قواعده وانسحابها علىٰ كل شيء في هذا الكون فلا يدرس الباحث موضوعا واحدًا بعينه يصل به إلىٰ نتائج كما تفعل المناهج الوضعية دون أن تربط هذا الموضوع ربطا محكما بالناموس الكوني والقانون الالهي، ومنهج القرآن يربط التعاليم الخلقية بالنظام الكوني فيدعو إلىٰ الاستقامة واتباع الخير في الوقت الذي تشير فيه الآيات القرآنية إلىٰ بديع خلق السموات والأرض وما سخر للناس من أنهار وبحار ودواب وجبال فالقرآن لا يدرس التاريخ كما يدرسه المؤرخون ولا يدرس الطبيعة كما يدرسها الطبيعيون، ولا يعرض الألفاظ بحيث تحمل أكثر من معنىٰ ولا تتناقض المعاني بعضها مع بعض كما يظهر في الدراسات النظرية والتجريبية والقرآن لا يحلل الأحداث ويفصلها عن حقائقها كما يفعل المؤرخون عندما يجعلون من واقعة معينة سببا لثورة من الثورات وانما يراد بالقصص القرآني: التأمل والتعقل والاستنارة، والقرآن لا يستخدم أسلوب علماء التاريخ عندما يعرض للقصص القرآني أو يستخدم ألفاظ الفلاسفة أو مصطلحات العلماء الطبيعيين عندما تتعرض لموضوعات الكون والطبيعة ويمتاز بالشمولية والعمومية والوضوح، لأنه يخاطب الناس جميعا علىٰ اختلاف مستوياتهم وأحوالهم وأزمانهم ولكن المتخصصين مع ذلك يستفيدون كل في دائرة تخصصه بآيات الكون والقصص القرآني، ويهتم المنهج الإسلامي بمخاطبة الناس جميعا، مؤمنهم وكافرهم، عالمهم وجاهلهم، وخطاب الله للناس

معجز في اسلوبه وبلاغته ومعانيه حتىٰ يشعر القارئ أو السامع انه موجه إليه وحده وأبرز معالم المنهج الإسلامي: الشمول: ان المناهج الوضعية والقوانين البشرية يعوزها الثبات سواء كانت عقلانية أو روحية أو حسية أو تجريبية إذ ما تلبث أن تظهر بين الحين والحين نظريات جديدة يدحض حجمها ويتبين ضالة صدقها وتظهر وجهات نظر جديدة تهدم المناهج القديمة وتلغي قواعدها.

وحتىٰ نفهم جوهر منهج الإسلام في مجال العلم تقدم هذه الأصول التي كتبها الدكتور زغلول النجار:

أولاً: التصور الإسلامي لقصد العلم:

إن التصور الإسلامي لقصد العلم يختلف عن التصور الغربي الأوربي، حيث تتلقى العلم اليوم من خلال فلسفته وقد حمل العالم الإسلامي تراث البشرية من المعارف في الحضارات السابقة والمعاصرة لبعثه محمد (ﷺ) حضارة الفرس والروم والهند والصين ومصر القديمة، جمع كل ذلك وصفاه بمنطق النظرة الإسلامية الصحيحة وأضاف إليه اضافات أصيلة وحين أخذته عنه أوربا عن طريق المدارس الإسلامية في الأندلس وجنوبي أوربا بصفة عامة (صقلية وجنوبي ايطاليا) ظهر الفارق واضحا، فالمسلمون لم يجدوا في تعاليم الإسلام وأصوله ما يمكن أن يقف حائلاً دون نشاطهم العلمي بل وجدوا في القرآن وأحاديث الرسول ﷺ ما

يدفعهم إلىٰ ذلك دفعا بينما كان الموقف مختلف تماما في عصر النهضة عندما بدأت أوربا تأخذ بالأسباب انطلاقا من القاعدة التي علمتها لهم الأمة الإسلامية ومدارسها في شمالي افريقيا وجنوبي أوربا .

ثانياً : أدرك المسلمون حينما تربوا علىٰ الإسلام أن قضية الاهتمام بالناحية العلمية هي قضية تعبدية بالدرجة الأولىٰ وليست مجرد الحصول علىٰ شئ من القوة أو الغلبة أو التسلط في هذه الدنيا ، فحين يتعرف المسلم علىٰ بديع صنع الله تبارك وتعالىٰ في هذا الكون فهو يتعرف علىٰ خالقه .

لقد أحصيت عدد الآيات القرآنية التي تحضّ الإنسان علىٰ النظر في الكون فوجدت تفوق ٧٥٠ آية إلىٰ جانب أن القضية لابد منها للقيام باعباء الاستخلاف الإنساني وتسخير الكون كما أراد الله . حيث لم يفرق الجيل الأول من المسلمين (وهو الجيل القدوة) بين العلم التجريبي وبين العلوم الشرعية من الفقه والتفسير فكان المسلم فلكيا ومفسرا وطبيبا وفقيها .

ثالثاً : أقام الإسلام النظرة الكاملة والإنسانية للعلم بما يختلف مع قضية التنقيب في المعارف التي اعتنقها الغرب عن طريق التخصص الدقيق مما جعل الناس ينحصرون في دوائر ضيقة

فجاءت نظريتهم للحياة نظرية جزئية جدا، ونظرة غير انسانية لانها غير متكاملة فالنظرة المتكاملة هي التي يستطيع الإنسان من خلالها التعرف علىٰ قوانين الله في الكون والقيام بواجبات الخلافة في الأرض علىٰ أحسن وجه فكلما تعرف علىٰ قوانين أكثر كانت قضية عمران الحياة علىٰ الأرض أيسر.

رابعاً: ان رؤية الإسلام الوسطية جعلت الإسلام قادر علىٰ أن يقدم الحلول للمشاكل المعقدة التي وصل إليها التقدم العلمي والتقني بتجاهله أخلاقه العلم، ذلك لأن الإسلام منهج وسط لا يميل إلىٰ أي جانب من الجوانب المتطرفة وانه النظام الروحي الوحيد الذي يستطيع إيقاظ ضمير الإنسان ويجعل من نفسه علىٰ نفسه رقيبا.

خامساً: إن فهم المسلم لطبيعة مهمته في الحياة (عبادة الله والاستخلاف في الأرض) مهم وأساسي لأن كلا الجانبين في مهمته مكمل للآخر، ان فهم رسالة الإنسان في هذا النطاق يحقق مفهوم الإسلام في التعبد لله تبارك وتعالىٰ والسعي وراء الرزق في نطاق الإيمان بالله والسعي في كسب العلم في اطار من الإيمان كالعبادة.

ويشرح الدكتور زغلول النجار هذه القضية شرحا وافيا فيقول:

كذلك فإن علينا أن نواجه واقع معاهدنا التي تدرس العلم

الغربي الذي ينكر الله تبارك وتعالىٰ، والفلسفة التي ترفض الاعتراف بوجود الله والعلوم الاجتماعية التي تنكر الخالق ونحن لا نستطيع أن نعد رجالا يؤمنون بالله ورسوله ومعاهدنا تدرس العلم الذي ينكر الله.

إن الأساتذة الذين يدرسون العلم في معاهدنا يبذرون بذور الشبهات في قلوب الشباب حول الإسلام ويواصلون جهودهم في اقناعهم بان الإسلام دين ليست له حضارة وليست له مدنية وليست له مبادئ سياسة وليس له نظام اقتصادي وإذا كان فلا يلائم مقتضيات العصر الحاضر، والقوانين الإسلامية لا تصلح للعصر المتحضر.

إن أحد الأسباب الرئيسية لتخلف جامعاتنا في العالم الإسلامي علىٰ كثرتها ووفرة امكانياتها انها لم تنطلق من منطلق إسلامي وليس لديها التزام أخلاقي فهي جامعات أسست علىٰ نظم غربية وفكر غربي، أو جامعات غربية في أرض اسلامية وهذا بدوره أدىٰ إلىٰ نوع من الازدواجية عند الطالب المسلم بثقافته الإسلامية المحدودة.

والمشكلة ليست في العلم فقط ولكن في خلق العلم وهدفه المفقود في الفلسفة الغربية وليست في المعرفة بقدر ما هي في أخلاق المعرفة ذلك أن النظام التعليمي الغربي علىٰ الرغم من

تفوقه الملحوظ في بناء قواعد تعليمية وتقنية جيدة وفي بناء متخصصين في القضايا المختلفة علىٰ مستوىٰ جيد إلا انه ينهار من ناحية بناء الإنسان وقد قرر مؤتمر استوكهلم ١٩٨١ المنعقد تحت عنوان: (العلم والتقنية في الحضارة الغربية وفي الإسلام) إلىٰ قرار: هو ان التقدم العلمي والتقني الحالي يهدد البشرية بمصير لا يعلم مداه إلا الله سبحانه وتعالىٰ، نتيجة لحجم المخزون من الأسلحة النووية والكيمائية والجرثومية لدىٰ الطرفين المتنازعين (روسيا وامريكا) أكبر مما يحتاجه تدمير الحضارة المعاصرة عدة مرات والناس حيال ذلك في الغرب يقفون موفقين: أما التسليم بالأمر الواقع حيث يقولون: هذا قدر البشرية وعليها أن تسير فيه إلىٰ النهاية أو موقف الرفض العام علىٰ أساس أن هذا بلاء جاء نتيجة التقدم العلمي وعلينا أن ننبذه ونعود مرة أخرىٰ إلىٰ حياة الطبيعة.

كذلك فإن العالم الغربي حين كتب هذه العلوم (التي تدرسها جامعاتنا في أرض الإسلام، كان قد كتبها من منطلق الحادي صرف ولا ديني من خلال الصورة التي انتهىٰ إليها، ثم نقل ذلك إلىٰ العالم الإسلامي، الأمر الذي أدىٰ إلىٰ موقف خطير فالمسلمون عندما بدأوا يقرأون هذه الكتابات العلمية رأو فيها الحادا ونفروا منها ومن ذلك الأزهر ـــ حيث كان في الأزهر جغرافيون ورياضيون وفلكيون ثم تقوقع الأزهر علىٰ الدراسات العربية الإسلامية فقط لأنه وجد أن سبيل المعرفة الذي يأتي إلىٰ

العالم الإسلامي الحادي صرف فواجهه بالانغلاق ، وكانت النتيجة آما من ذلك التيار الالحادي صدا كاملا باهماله وتركه أو مجاراته وقبوله ظنا أن هذه هي وسيلة الأخذ بالأسباب ونحن الآن واقعون في المشكلة بسبب التخلف عن الوظيفة الإسلامية لعمارة الأرض نتيجة التخلف من الثقافة الإسلامية بأبعادها الحقيقية والانفصال العلمي الذي يمارسه المسلم بين الدين والحياة .

من هنا فلابد من بناء مدارسنا العلمية بأيدينا حتىٰ لا نمكن للاجنبي أن يبني قاعدة علمية في بلد مسلم ، وقضية الانبعاث للخارج قضية تهدم مبدأ التقدم العلمي والتقني من أساسه ، لأن أي شاب بغض النظر عن تعرضه لعملية غزو فكري رهيبة فإنه يتعرض لتصيد من الكنيسة ومن اليهودية وعملائها ومن الحركات الاستخبارية الغربية ، هذه كلها عوامل نفسية تحول دون النمو العلمي والتقني للشباب ، هذا بالإضافة إلىٰ أنه أصبح اليوم لدى كثير من الجامعات الغربية اعتقاد أن المسلم ليس ضروريا أن يتعلم جيدا ويمكن أن يعطى الشهادة التي يحتاجها ولكن حين أقوم ببناء قاعدة علمية في بلدي فالشباب هو الذي يصمم الجهاز الذي يريد أن يعمل عليه والقاعدة العلمية كالشجرة تحتاج لامداد جذورها إلىٰ الأعماق حتىٰ تؤتي ثمرها .

وبعض الناس في عالمنا الإسلامي يعتقد انه من المستحيل علىٰ المسلمين اللحاق بالركب العلمي والتقني الذي وصلت إليه أوربا وامريكا لأن عملية الاختصار لفترة التخلف أصبحت بعيدة المنال

والواقع أن العلم والتقنية من القضايا المنطقية بمعنىٰ انها ليست طلاسم وليست الغازا بحيث لا يستطيع العقل الإسلامي أن يستوعبها وأن يفهمها ويمكن الذي يبدأ في معالجتها بموضوعية أن يصل فيها إلىٰ أقصىٰ ما وصلت إليه المجتمعات الأخرىٰ لأنه سيأخذ آخر ما وصلوا إليه ويتعلق به ولذلك فإن محاولة رأب هذه الفجوة ليست مستحيلة علىٰ الاطلاق بشرط أن تأخذ بالأسباب ونبدأ في بناء معاهدنا العلمية. أ.هـ.

(٢)
أسلمة العلوم الاجتماعية

ارتفعت الدعوة إلىٰ تحرير العلوم الاجتماعية والانسانية من الخضوع لمفاهيم العلوم المادية وقوانين التجريب، كما تبين خطأ العلماء الاجتماعيون في أن أبحاثهم تتسم بالموضوعية وان استنتاجاتهم غير مكتملة. ومن هنا فإن العلوم الاجتماعية تعد ناقصة، ومن ثم فهي غير ذات جدوى بالنسبة لطالب العلم المسلم. هذا ما قرره العلماء الاجتماعيون المسلمون وفي مقدمتهم الدكتور اسماعيل الفاروقي رحمه الله الذي كشف عن أن الإسلام يؤكد أن وصايا الله تبارك وتعالىٰ أو الأمر الأخلاقي يعد بالضرورة خاصا بالمجتمع، وانه بالضرورة يتصل بالنظام الاجتماعي في الأمة ولا يمكن أن تسود الأمة إلا بها، وقد تجاوز الإسلام لحدود الفضيلة المسيحية في حين أن المسيحية عرفت الخلاص في اطار النية ــ أي الشعور الشخصي في لحظة معينة ــ فإن الإسلام قد عرفه عن طريق العمل (الحياة العامة في اطار الزمان والمكان) ولقد صاغ الإسلام الإيمان بالآخرة من أجل تدعيم ذلك الصرح التاريخي من الأفكار والقيم والقوانين والمؤسسات. وان القيم الدينية والأخلاقية ليست فردية ولكنها في اطار الأمة.

والخلاف بين مفهوم الإسلام ومفهوم الغرب يرجع إلىٰ فصل المجتمع الغربي بين العلوم والقيم الجوهرية تحت اسم مبدأ (الواقعية)

مما أدىٰ إلىٰ التدهور الأخلاقي والحتمي للمجتمع، لقد كان من نتيجة البحث الجنسي المحرر الذي أجراه (كينزي) هو تحول الانتباه عن الزنا وتركيزه علىٰ منع الحمل.

ولا ريب ان أزمة الفكر الغربي كلها تتركز في الفصل بين القيم، الفصل بين النظرية والتطبيق، الفصل بين العلوم والأخلاق، الفصل بين العلوم وبين الالتزام الفردي (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) وغلبة مفهوم نظرية (الجماعية).

ومن هنا فقد اتجهت حركة اليقظة إلىٰ صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية (العلوم الاجتماعية هي علم الاجتماع، علم الإنسان، العلوم السياسية، علم الاقتصاد، التاريخ، الجغرافيا وعلم النفس).

وهي علوم تختلف عن العلوم الضيقة التي تتركز علىٰ تحقيق السيطرة علىٰ الكون وقد كانت الرؤية العلمية مصدراً لاطلاق طاقات هائلة لاستكشاف الطبيعة واستغلالها.

يقول دكتور اسماعيل الفاروقي: لابد من اضفاء الصفة الإسلامية علىٰ العلوم الاجتماعية، سواء كانت تتصل بالفرد أو الجماعة، بالإنسان أو الطبيعة، بالدين أو العلم، وأن تعيد نفسها تحت لواء التوحيد الخالص:

(الله الخالق مسبب الأسباب وهدف وغاية كل شيء في الوجود) وان توجه المعرفة للالتزام بأمره، الالتزام بالنمط الالهي

الذي أوحى به حتىٰ تجلب السعادة والهناء للبشر.

ويجب أن تعنى دراسة العلوم التاريخية الإنسانية باستخلاف الله تبارك وتعالىٰ للإنسان علىٰ الأرض وترفض الدراسة الإسلامية الاعتراف بتشعب العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية بل انها تتطلب اعادة تصنيف فروع الدراسة وتقسيمها إلىٰ العلوم الطبيعية والعلوم الخاصة بالأمة التي تتناول الإنسان والمجتمع..

فالعلوم الطبيعية تعمل علىٰ استكشاف النمط الالهي في نطاق الأشياء المادية والآخر (المعرفة الإنسانية أو العلوم الإنسانية) في نطاق الشئون البشرية.

ولا ريب ان اضفاء الصفة الإسلامية علىٰ العلوم الاجتماعية يجب أن يعمل علىٰ اظهار علاقة الحقيقة مع النمط الالهي المتصلة به، فالنمط الالهي يعد المعيار الذي يجب أن تعمل الحقيقة علىٰ احلاله فإن تحليل الأمر الواقع لا يجب أبدا أن يغفل ما يجب أن تكون عليه الأشياء.

لا بد أن ترسم النمط الالهي في الشئون الإنسانية وتحقيق ارادة الله في المجتمع وأخلاقه العمل الإنساني.

هذا هو معنىٰ اضفاء الصفة الإسلامية علىٰ العلوم الاجتماعية.

●●●

ويقول الدكتور أبو بكر أحمد باقادر

إن نجاح وفعالية العلوم الاجتماعية في الدول الصناعية، اثار في ذهن بعض المفكرين بان هناك تلازما عضويا بين التصنيع والانماء وبين تطوير العلوم الاجتماعية والاقتصادية.

وقد انقسمت مدارس العلوم الاجتماعية والباحثين العرب فيها إلىٰ فئتين:

فئة اعتنقت الماركسية ومنهاجها وفئة اعتنقت المدرسة الليبرالية وهي تقوم علىٰ فرضيات ونظريات لم تنشأ في الوسط الثقافي للبيئة المحلية وقد تركز اهتمام البحاث العرب إلىٰ نقل مدارس العلوم الاجتماعية نقلا حرفيا في قوالب مؤلفات مدرسية منقطعة عن المواضيع والمشاكل التي يفرضها الواقع العربي الذي يعيشه الباحث ولا توجد اسهامات علمية في مجال دراسات اجماع الأديان أو وسائل تأثير الاتصال بالجماهير هذا في نفس الوقت الذي لا يوجد تيار ثقافي ملتزم يأخذ في تحليله قيم ومثل المجتمع العربي الإسلامي.

ولقد كانت الدراسات الغربية فيما يتعلق بالعلوم الاجتماعية في مجال الإسلام مضطربة، فإن ماكس فيبر ــ في دراسته للإسلام ــ لم يتحامل فقط علىٰ الإسلام بل انه تنكر لبعض ركائز طريقته في التحليل الاجتماعي، بينما المعتقد أن الإسلام لعب ويلعب دوراً رئيسيا بارزا في معظم الأحداث التي يتفاعل معها العالم الإسلامي بل وان تأثير الإسلام علىٰ تكوين القطاعين الواعي واللاواعي في

التركيب الشخصاني للمسلمين عميق الجذور، فالإسلام في عقائده وشريعته ومذاهبه وتاريخه وعلومه وأمجاده وما يعانيه المسلمون من ضعف وسكون وقوة وتفتح دور كبير وبارز فيها وفي فهم وشرح ما تمر به المجتمعات الإسلامية.

ذلك أن هناك عوامل اقتصادية وثقافية واجتماعية وسياسية وغيرها تؤثر تأثيرا كبيرا علىٰ التحولات والتغيرات التي تحدث في العالم الإسلامي ومفتاح فهمها هو معرفة الصلة بين هذه العوامل المتعددة والاطار الإسلامي الذي يضمها.

فالمسلم العادي (الذي يمثل الغالبية من سكان البلاد العربية) متعلق بالإسلام وتصوغ مفاهيم الإسلام نظرية في التفاعل مع البيئة الاجتماعية التي يعيشها علىٰ حساب فهمه لهذه المفاهيم.

ولذلك فإن فهم الاطار الإسلامي الذي يعيش في ظله الإنسان المسلم ضروري لدراسة المجتمعات الإسلامية التي تمثل معظم دول العالم الثالث والباحث المسلم ينبغي أن لا يكون محصوراً بين الماركسية والليبرالية فالإسلام في نظرته الشاملة لجميع جوانب الحياة الفردية والاجتماعية يشكل نسقا فكريا يمكن اعتباره أيديولوجية ثالثة.

وأبرز ما يمثله الإسلام انه يجمع بين القول والعمل، وبين النية والالتزام ويتصدر بالمثل والقيم الإسلامية.

ومع الاسف فإن الدارسون لأي نوع من أنواع العلوم

الاجتماعية من خريجي الجامعات الغربية يكاد يكون نصيبهم من العلوم الإسلامية لا شيء.

فالحاجة الملحة تحتم أن يكون لدى دارسي العلوم الاجتماعية خلفية إسلامية ممتازة تساعدهم على القيام بأبحاثهم الاجتماعية وتأصيل مدرسة اجتماعية مستقلة.

على الباحث الاجتماعي الإسلامي أن يكون عليما بالتصور الإسلامي العام (العقيدة) وبالمفاهيم الإسلامية لله والوجود والكون والإنسان والمجتمع وببعض المهارات الأساسية في علوم اللغة وأصول الفقه ومصطلح الحديث واللغة بحيث يتسنى له إمكانية الرجوع فورا مع القدرة على استنباط النماذج المعيارية.

ولا بد أن تدرس العلوم الإسلامية مرتبطة بالعلوم الاجتماعية حتى يمكن بذلك أن نتغلب على علمانية التعليم، ذلك أن مشكلة علمانية التعليم هي مشكلة خلقها الاستعمار ولم تستطع المؤسسات العلمية بعد ان نتخلص منها، ونقصد بها عملية فصل التصورات الإسلامية عن بقية الأقطار الموجودة داخل الاطار التعليم وتتدرج عملية الأسلحة منحوتة في المقرر الاكاديمي وان لا تكون مادة مستقلة بذاتها بمعنى أن تكون الحلول جذرية ومتشابكة وليست اضافية أو منفصلة عن المنهج الدراسي. وكذلك دراسة مشاكل المجتمعات الإسلامية التي لم تنجح النظريات الغربية في تحليل مشاكلها أو طرحها في اطار علمي يعد نظراً لأسباب قيمته وأيدلوجية.

كذلك فإن التراث الإسلامي يعكس اجتهادات الباحث الاجتماعي في فهم نصوص القرآن والسنة. اننا لن نرفض التراث العالمي جملة ولكنا أيضا لن نقبله جملة ايضا وانما سوف نتفاعل معه كأصحاب موقف نظري علىٰ أساس من معايير أو مقاييس تساعدنا علىٰ أن نقوم وننفذ ونتفاعل ونختار من هذا التراث الذي يمثل التراث الإنساني أ.هـ.

ومن وجهة نظرنا فإننا يجب أن نتحفظ ازاء هذا الرأي علىٰ الأقل في المناهج الأساسية لبناء النظرة الإسلامية.

الباب الرابع
طاقة جديدة من النور

الفصل الأول
محاولة الخروج من الطريق المسدود

وقف المسلمون موقفا حاسما ازاء أعصار الفكر الغربي الذي طرحته القوى الخارجية في أفق الفكر الإسلامي منذ أكثر من مائة عام بهدف الغزو والاحتواء والحصار والسيطرة وفي محاولة لتغريب الإسلام وأصله وادخالهم في بوتقة الفكر الغربي (المسيحي اليهودي اليوناني الروماني) ومخلفاته الديمقراطية والماركسية والصهيونية في العصر الحديث.

(ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتىٰ تتبع ملتهم)

وهم لا يرضون بأي مفهوم من المفاهيم التي طرحت خلال هذه الفترة مما يسمونه التوفيق، أو الموائمة، أو الدعوة إلىٰ ربط التراث الإسلامي بالفكر العصري، أو غير ذلك من محاولات ثبت فشلها أساسا وثبت عدم رضاء النفوذ الغربي عنها إلا كمرحلة للالتهام الكامل والاحتواء الكامل في نهاية الأمر، ومنذ بدأ هذا التيار في العصر الحديث فقد واجهه الاعلام من المفكرين بالدعوة أولاً إلىٰ تصحيح العقيدة والعودة إلىٰ المنابع، ثم الرد علىٰ الشبهات علىٰ النحو الذي قام به جمال الدين الافغاني (الرد علىٰ

الدهريين) ومحمد عبده في كتابه الإسلام (والنصرانية بين العلم والمدنية) و (... وكتابات رشيد رضا وفريد وجدي وما كشفه محب الدين الخطيب من مخططات الغزو يترجمه كتاب (الغارة علىٰ العالم الإسلامي) وما تبع ذلك من مواقف ودحض لمعتريات الاستشراق والتبشير، حتىٰ جاء كتاب (وجهة الإسلام) كاشفاً عن حقيقة المخطط الاستشراقي والتعريبي كله برسم خطة (تغريب الشرق) أي تغريب العرب والمسلمين.

وقد توالت الخطوات في مواجهة محاولات ترجمة الفكر اليوناني والفلسفي القديم، ونظريات فرويد ودوركايم وسارتر وماركس وماركوز وغيرهم في الحديث علىٰ انها علوم تدرس في الجامعات لا علىٰ انها نظريات وفرضيات قابلة للخطأ والصواب.

ومن خلال هذه المعركة الحاسمة التي مازالت مستمرة، ظهر بصيص من نور جديد من خلال عدد من الرجال المنصفين الذين عرفوا حقيقة الإسلام وكشفوا زيف رجالهم الذين يكذبون ويحاولون التشكيك في الدين والرسول والتاريخ واللغة والشريعة، وفي الدور الذي قام به المسلمون.

ظهر توماس كارليل ودرابر وجوستاف لوبون وبرناردشو، ثم ظهر أولئك الأبرار الذين أسلمو: عبدالكريم جرمانوس، اتيان دنينه، محمد أسد (ليونولد فابس) دي كاستري، اللورد هولي، دكتور خالد شلدريك وعشرات غيرهم جاءوا منصفين للإسلام فكانوا ضوءًا كاشفاً في ظلمات مؤامرة الصمت والانتقاص التي

قادها الغرب عن طريق الكنيسة أساسا حتىٰ لا يصل الغرب إلىٰ فهم الإسلام وحتىٰ تفسد مفاهيم أهل الإسلام نفسه في دينهم.

وهذه هي المرحلة التي نصل الآن إليها في هذا البحث حتىٰ نصل إلىٰ جارودي، وبوكاي، ومريم جميلة، واريك فروم،

١ ــ وكان قد هز العالم علماء غربيون كشفوا عن فساد الحضارة الغربية وانهيارها.

٢ ــ وعدم صلاحيتها لحفظ انسانية الإنسان

٣ ــ في مقدمتهم (شبنجلر = أفول الغرب) ثم جاء بعده (الكس كاريل = الإنسان ذلك المجهول).

وفي نفس الوقت الذي هب فيه المسلمون لكشف زيف النظريات الغربية كان العلماء المنصفون في الغرب يردون للمسلمين حقهم في بناء المنهج التجريبي من ناحية ويكشفون تساقط نظريات دارون وماركس وفرويد وسارتر في عشرات من المؤتمرات العلمية، وظهور ما وراء هذه الدعوات من أهداف استعمارية وصهيونية.

كذلك فقد ظهرت بوادر أخرىٰ تكشف عن سر اضطراب العلوم والحضارة وهو نقص البعد الرباني عنها وسر اضطراب المجتمعات لنقص البعد الأخلاقي عنها هذا فضلا عن تكشف فساد الكتب القديمة واضطرابها وما فيها من تفاوت.

ومن هنا برزت ظاهرة خطيرة جديدة هي:

ظاهرة مفكرو الغرب الذين حاوروا كل الحضارات ثم لجأوا

أخيراً إلىٰ الفكر الإسلامي: هذه مجموعة من العقول التي لها وعي وجبروت وتمرد علىٰ مستوى الفكر الإنساني، رأت في الإسلام الغاية والوسيلة لانقاذ البشرية ويفسر هذا بان عالم الغرب يتجه إلىٰ الإسلام نتيجة الملل الذي يعانيه، فئات تنشق وتتمرد لأنها لم تر فيما لديها الغاية والوسيلة، علىٰ حد تعبير جارودي، ان افلاس الاختيارات تقرر الكونية لفئات محدودة في الغرب ولد فيها حركة الملل وأصبح هذا الملل جزء لا يتجزأ من المعاناة النفسية رغم التقدم المادي ويرى بعض الباحثين في تطور الأمم والحضارات: ان الإسلام وهو من وحي الله جاء ليتجاوز قدرات الفكر البشري الذي زعمت بما اختزنته من جبال المعرفة انها استحوذت علىٰ كل شيء، ونسوا أن المعرفة نسبية ولا يمكن لاحكامها أن تكون نهائية ــ وذلك علىٰ حد تعبير الدكتور رشدي فكار ــ الذي يرىٰ أن الإسلام كما برهن دائما لديه ما يقوله وله حضوره لا في هذا القرن ولكن في القرون القادمة لأن قانونه الهي وهو قانون وقائي قبل أن يكون علاجيا، ومبادئه البسيطة الخالدة تنير للك المعايير الثابتة فتصبح صادقا ونزيها مع نفسك ومحاسب لنفسك دون حاجة إلىٰ محاسبة الآخرين.

إن ظاهرة عودة علماء الغرب إلىٰ الإسلام هي ظاهرة جديرة بالدرس والتسجيل والتحليل يرد البعض هذه الظاهرة إلىٰ «الطريق المسدود» الذي سارت عبر ولادته العتيدة فلسفات الغرب، فجاء الإسلام كبديل منطقي لافلاس الفلسفات

الوضعية فبدأ الإسلام اليوم كطوق نجاة لا منفذ سواه للبشرية.

إن رواد الفكر وعمداء الفلسفة في القرن العشرين:

هايدجر، كبارس، سارتر، ماركس، يلتقون علىٰ أن هناك فارقا حضاريا جاء نتيجة لأن انسان هذا العصر، هو انسان الحيرة، القلق، الاكتئاب، انسان لا يشبع في استهلاكه ويبحث عن الرفاهية والرجاء وقد ترتب علىٰ ذلك (تلوث قيم) علىٰ جميع المستويات وخاصة العلاقات الإنسانية والأسرية وقد قال هيدجر: انه عصر يبدو كعصر شاخ في منظر كئيب سادته يعانون من الأرق والملل والقلق.

لقد لعب الغرب بالأمانة ولم يحفظها وظن انها مسألة سهلة يسيرة وسمى كل شيء لعبه، وسيحصدون أثر ذلك التهاون والاحتكار لمعطيات الله.

وقد بدا ذلك واضحا في العقود الأخيرة — في تفسخ اللعبات المادية والطريق المسدود لحضارة أوربا وبروز ظواهر الحيرة والاستهلاك والتعدد.

لقد كان للاستهلاك المريع للامكانيات الكونية حيث يرون أن العالم يتقدم خلال قرن إلىٰ الاختناق، وقالوا في تبرير ذلك أن السبب يرجع إلىٰ أسلوب انسان العصر الذي يعمل علىٰ الاستيلاء بالاستهلاك ومحاولة امتصاص خبرات الكون بطريقة واعية أو غير واعية بنوع من الترف والتلهي بالاستهلاك مع وجود التناقضات الحادة، وحيث هناك بشر لا يجد ما يأكله وبشر

يلقي كل شيء ويأخذ أقصىٰ ما يستطيع ثم يحول كل ما يبقى إلىٰ شواقط ونفايات .

كل هذا هو الذي دفع مجموعة من العلماء والمفكرين علىٰ الساحة العالمية الفكرية كبديل منطقي لتلاشي الفلسفات الوضعية .

وسيظل الإسلام رغم تأزم حال المسلمين القادر علىٰ انقاذ الكون باسره ، لا لانقاذ أمة أو شعب أو قارة فحسب ، بل سيكون المنقذ من هذا المأزق لا عن طريق اختراع أقوى الصواريخ وانما عن طريق إعادة الإنسان المستلب إلىٰ صوابه .

إن هذه الأزمة ستقود العالم إلىٰ الإسلام ، ويبدأ اتجاه الغرب إلىٰ الإسلام من نقطة نبذ فكرة المادية الملحدة بداية والاتجاه إلىٰ وجود الخالق سبحانه وتعالىٰ ، وثمة نظرية تسود الآن في الغرب وتمثل انقلابا فكريا ، هذه هي الكشف عن زيف نظرية (الصدفة والضرورة) فالمعروف أن العلماء الأذكياء في علم الأحياء وعلم الحياة والعديد من العلوم الفيزيائية كثيرا ما يلقون أفكارهم التي لا يجدون لها تفسيرا علىٰ نظرية (الصدفة والضرورة) التي أصحبت اطاراً نظريا بلا حدود ، فنظرية (هويل) تقول انه لا صدفة ولا ضرورة وان هذا الكون يسير بتوجيه الهي ، والذي قلب نظرية النشوء والارتقاء (دارون) انها كانت تتصور أن الحياة نشأت وتطورت علىٰ الأرض بالصدفة ، والآن اثبتت الشهب الساقطة ومعها بقايا الكائنات الفضائية غير ذلك ، وهكذا سقطت نظرية

دارون في بئر عميق حيث كان العلماء يرددون كالببغاوات ان الإنسان من أصل القرود ولا وجود لسيدنا آدم أبو البشر[1].

وهكذا نرى أن علماء الغرب بدأوا يكتشفون خطأ الطريق الذي ساروا فيه. يقول المفكر الفرنسي (رنيه بارجاطبل) في كتابه الحديد الساحر: من السمات الظاهرة لعصرنا هذا عودة الاهتمام بالأمور الروحية، نرى هذا الاهتمام في كل مكان وفي كل الناس، وفي مختلف الأعمار، ان التفكير المادي الذي ساد منذ قرن قد ذهب أوانه والعلماء الماديون هم الذين اثبتوا أن الكون لا تحركه المادة وحدها والعالم الذي نكتشفه اليوم لم يعد يشبه لعبة ميكانيكية كبيرة بل يشبه الفكر والروح، وقال أحد أساطين البحث العلمي (جامع برنسيون) لم تعد الروح المادية بظواهر الكون كافية في هذا العصر، ولا بد من أن يكون وراء خلق الكون من قدرة روحية مفكرة شاملة لكل الكون.

---

١ ــ عن كتابات متعددة للدكتور رشدي فكار بتصرّف.

(٢)
جاء الإسلام بعد ان فشلت الأيدلوجيات

ويقرر المراقبون السياسيون وغيرهم أبعاد هذا التحول الواضح والعميق في رؤوس مفكري الغرب الكبار بان هناك تياراً قويا في اوروبا يناصر العقيدة الإسلامية، وان كثيرا من مفكري ومثقفي أوربا يعلمون جيداً أن الله واحد وان المستقبل للإسلام. انهم يؤمنون بذلك فكريا وروحيا ولكن للاسف فإن معظمهم لا يبوحون بذلك خوفا من السلطة التي تحقد علىٰ الإسلام.

نشرت مجلة (لاكيو البنية رولجيوز) أكبر مجلة كاثوليكية تصدر في فرنسا خبرا (عن الأهرام ٢١/١٠/١٩٨٢) نشرته الصحف العالمية في صفحاتها الأولىٰ أن عدداً يتراوح بين ٣٠ إلىٰ ٥٠ ألف فرنسي قد اشهروا اسلامهم خلال السنوات القليلة الماضية، وان العدد الكبير الذي دخل في الإسلام من الفرنسيين خلال السنوات الأخيرة يمثل كافة الأوساط الاجتماعية والاتجاهات الفكرية من بينهم مثل روجيه جاروي، الذي كان من أنصار ماركس، وميشيل كود كوينز عالم الدراسات الضوئية، وفنانين مثل مريس بيجار الراقص ومصمم الرقصات واساتذة في الجامعات مثل فاتش مونتي، وبيرنيواميشان عالم التاريخ الكبير.

ووصفت المجلة ظاهرة الهجرة إلىٰ الإسلام بانها كانت قاصرة علىٰ العسكريين الذين عايشوا الإسلام خلال حقبة الوجود

الفرنسي في شمال افريقيا والشرق الأوسط وأبدت المجلة دهشتها لوقوع هذه الظاهرة في الوقت الذي يواجه الإسلام حملة ضارية في صحف أوربا وأمريكا.

كذلك فإن عدد المسلمين في اسبانيا الآن يبلغ نصف مليون مسلم منتشرين في كافة المدن الاسبانية ويزدادون يوما بعد يوم عن اقتناع، وتجد بعض المساجد في مدريد لا تتسع للمصلين الذين يفترشون الطرقات في صلاة الجمعة وفي أيام شهر رمضان. ويتم بناء المساجد في مدريد بالجهود الذاتية ومن عنده (فيلا) يحول بعض الغرف منها إلى مسجد تقام فيه الصلاة لأهل الحي.

إن أسباب هذه الصحوة ــ كما يعبر الكاتب ــ ممثلة فيما تعانيه أوربا الآن من فشل الحضارة الغربية وفشل كل التيارات التي عرفتها أوربا ومارستها خلال القرنين الماضيين ومن هنا بدأت تطلعات الأوربيين وغيرهم نحو الإسلام ومعظم الأوربيين الذين نعيش معهم يتوقعون أن المستقبل للإسلام ولخلود الإسلام وفي أحاديث أخرى منشورة يقول باحث غربي: جاء يوم الإسلام بعد ان أفلست كل الأيدلوجيات، وقد توطن الإسلام في أوربا من محورين: المحور السلوكي والمحور الثقافي ويتوقع الدعاة النجاح في تكوين مسلم أوربي ذي شخصية قوية يمكنها التأثير في المحيط الغربي.

وتقول إحدى الدراسات تحت عنوان: هل يغمر الإسلام أوربا مرة ثانية: إن ظاهرة اقبال سكان أوربا على الدخول في دين

الإسلام أفواجا بعد ان بدأوا يتبينون حقيقة الإسلام وجوهر القرآن، وما هو القرآن وما هو الدور الذي يقوم به المسلمون في سعادة البشرية والأخذ بيدها في مدارج الرقي الروحي والمادي والمعنوي.

ونشرت جريدة صنداي تلغراف البريطانية الاسبوعية (عدد غرة رجب ١٤٠٤) مقالا ذكرت فيه أن عدد المسلمين في بريطانيا قد ازداد بنسبة ٢٥٠ في المائة خلال السنوات العشر الماضية وانه قد جاوز المليون نسمة (فقد كان العدد ٤٠٠ الف عام ١٩٧٤) وان نفس الزيادة حدثت في فرنسا والمانيا الغربية حيث وصل عدد المسلمين في البلدين إلىٰ ٤ ملايين وخمسمائة ألف بعد ان كانوا ١٩٧٤ (منذ عشر سنوات) مليونين.

وتوجد في بريطانيا الآن ما يزن علىٰ مائة مسجد وتدرس الديانة الإسلامية في عديد من المدارس البريطانية وتحدث في فرنسا زعيم حزب الجبهة الوطنية اليميني المتطرف عن الخطر الإسلامي الزاحف علىٰ فرنسا حيث قال في برنامج (ساعة الحقيقة) أن الخطر يتمثل في الانفجار السكاني للعالم الإسلامي العربي الذي يوشك أن يغزو فرنسا ويحتل أراضيها.

إن انتشار الإسلام علىٰ نطاق واسع في اشراقة القرن الخامس عشر واتساع دائرة المد الإسلامي لم يكن له سبب مباشر إلا أن سكان العالم غير المسلمين قد بدأوا يتطلعون إلىٰ معركة الإسلام والقراءة عنه والاستماع إليه ومن هنا بدأت تلك الشعوب تدرك كل

الادراك أن الإسلام هو الدين الأسمىٰ الذي يمكن أن يتبع وانه الدين الوحيد الصالح لعلاج كل مشاكل البشرية القادر علىٰ إنارة طريق المستقبل أمام الشعوب البشرية. وانه الدين القوي الذي قاوم كل المحاولات التي عملت علىٰ الحد من انطلاقته الكبرىٰ عبر القرون الماضية الم تكن أوربا الشرقية حتىٰ أبواب فينا، حتى عاصمة فرنسا، الم تكن الأندلس أيضا اسلامية، الم يصل المد الإسلامي في أراضي فرنسا إلىٰ بلدة سانس علىٰ بعد ١٢ كيلو مترا جنوب باريس عاصمة فرنسا الحالية، الم يصل الإسلام إلىٰ سويسرا وجنوب المانيا ويسيطر المسلمون علىٰ جبال الألب ويتحكموا في الممرات الموصلة ما بين ايطاليا وفرنسا والمانيا والنمسا.

إن بلاد العالم اليوم تشهد تفهما لتعاليم الإسلام ومفاهيمه، إلىٰ أرض اليابان وكوريا وكمبوديا والفليبين، ان قوة القرآن قادرة علىٰ أن تقهر كل الأعداء عبر المسيرة الإسلامية. ان شعوب القارة الأوربية التي طحنتها الصراعات المذهبية والفكرية والنظريات الأيدلوجية والأساليب العنصرية أصبحت تحس بالحاجة إلىٰ من يقدم لها القرآن الكريم. أ.هـ.

ويقول الشيخ حامد خليفة إمام مسجد لندن: هناك اقبال من الانجليز علىٰ اعتناق الإسلام بسبب افلاس الحضارة الأوربية من القيم والاغراق في الحياة المادية حتىٰ الأذقان، وقد سام البعض هذه الحياة المادية وهو يبحث عن مخرج لها من هذه الحضارة

المدمرة لانسانية الإنسان فإذا ما عرف الإسلام وجد فيه ضالته ويجد فيه الانعتاق لروحه، وقد أسلم علىٰ يدي ماتقرب من ستون حالة وأقربها أمس طبيبة هندوكية وقد تم زواجها من طبيب مسلم محافظ علىٰ دينه، واني بعد اشهار اسلامهم اتابع حالتهم وأمدهم بالكتب التي تعمق فيهم الإسلام وأجيب علىٰ أي تساؤل يطرحونه علي وفي قرية (نورسن) تعلم عدد ضخم من المسلمين الانجليز، حيث يوجد فيها مائة أسرة مسلمة، أغلبهم دخلوا الإسلام عن طريق مسلم انجليزي اسمه عبدالقادر الذي اسلم علىٰ يد أحد المتصوفة في المغرب العربي.

(٣)
الباحثون عن الحقيقة في الغرب

أمران بارزان يحتاجان إلىٰ تقييم (١) إسلام المنظرين الكبار (٢) اسلام المثقفين.

أولاً: المنظرون الكبار

كان دخول المنظرون الكبار في الإسلام ظاهرة هامة: محمد أسد، جارودي، بوكاي، اليسون، وهناك من وضعوا الإسلام موضع التقدير وان لم يسلموا: وفي مقدمتهم مؤلف كتاب (العظماء المائة وعلىٰ رأسهم محمد (.....) وجال بيرل في كتابه (الإسلام علىٰ مستوىٰ الكون) الذي يقول:

انه لن يدرس الإسلام كدين محصور في منطقه أو كحضارة لمعت في الماضي في عصر من العصور ولكنه سيدرس الإسلام كدين موجود في كل مكان من هذا العالم وما تزال حيويته ودينامكيته ناشطة منذ ظهوره حتىٰ هذا اليوم وما بعد هذا اليوم، انه سيدرس الإسلام الكوني أو الإسلام علىٰ مستوىٰ الكون أو الإسلام في أبعاده الكونية من الزمان والمكان وقد ركز علىٰ (القرآن الكريم) ودرسه بعمق لتمكنه من اللغة العربية ومن العلوم الإسلامية وهو يدرسه من مختلف الوجوه والزوايا مستخدما في ذلك معرفته الواسعة في علوم الاجتماع والتاريخ والانثروبولوجيا

---

(١) عن كتابات متعددة للدكتور رشدي فكار بتصرف.

والالسنيات والديانات المقارنة مفتونا باعجازه واستعلائه على الاسلوب البشري.

وأشار إلى صعوبة ترجمة معاني القرآن إلى اللغة الفرنسية وانه لابد للمترجم أن يكون مالكا لزمام العربية عارفا بتاريخ العرب وثقافتهم وشعرهم ومعلقاتهم على أحسن وجه لأن القرآن الكريم كتاب عربي مبين ولا بد للمتصدي للترجمة أن يكون عارفا بالأحوال الجغرافية والبشرية والتاريخية والاقتصادية والسياسية للجزيرة العربية في عصر الرسول ولا سيما الفترة التي نزل فيها القرآن ومعرفة الملابسات والظروف التي نزلت منها الآيات الكريمة (أسباب النزول) لأن القرآن حمل أوجه ولا بد للمتصدي لترجمة القرآن الكريم من أن يذكر أن أهم النواحي في القرآن الكريم ليست هي الناحية اللغوية أو التاريخية بل هي أن القرآن وحي الهي يعبر عن أمور جوهرية وحقائق خالدة لا تتصل باللغة ولا بالمكان ولا بالزمان وهي صحيحة قائمة في الماضي والحاضر والمستقبل.

ويتحدث عن الإسلام وما يدهش أكثر الغربيين منه فيقول انه دين عملي لاصق بالكون وبحياة كل يوم، وهو في ذلك دين زاهد بالكون متعال عنه، انه دين غرضه التوحيد بين الأفراد والناس والشعوب، انه يعتمد على كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولكنه يدعو للتغيير والتطور وليس ثمة أمر يدعو للتغيير والتطور لاصلاح الأمور والحكم عليها بمعايير الإسلام مثل الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، ان حيوية الإسلام وسلامته تأتي من المحافظين عليه من جهة ومن المجددين له من جهة أخرى، المجددون يعتمد عليهم الإسلام لضمان السير علىٰ هدى واستمرار حيويته في كل العصور وليس لهم في الأمة الإسلامية أي امتياز ولا قدسية وليس ثمة تنظيم ديني كهنوتي، لكل عصر دور عظيم لا يدرك شأنه.

ويقول جاك تيرل: عندما يدرس الباحثون الإسلام كما هو واقع الآن ــ أي كما تحياه وتطبقه الشعوب الإسلامية ــ وعن الصلات بين الإسلام كما يجب أن يكون وبين الإسلام الواقع في عصرنا: سيجد الباحثون ان هذه الصلات متغيرة بتغير العصور والمجتمعات والتصرفات السلوكية وسيجدون كذلك أن دراسة الصلات بين الإسلام المثالي والإسلام الواقعي لا تتم إلا بدراسة الفقهاء واهتمامهم بالاجتهاد وبدراسة القضاة المعنيين والمحتسبين والشيوخ والأئمة في المساجد وأصحاب الطرق المختلفة، كل هؤلاء حاولوا في الماضي تفهم الإسلام بجملته وتطبيقه علىٰ الواقع ليرفع مستواه إلىٰ الغايات التي ترضى الدين فمنهم من نجح وأفاد ومنهم من ضل وأضل.

وإن الذين يسعون في هذا العصر للتوفيق بين الفردية والتنوع، وبين الآراء والمثل العليا، وبين العادات والقوانين يجب أن يمتحن بشمول وتعمق كل التأثيرات الخارجية وضغوط المجتمعات الصناعية ووطأة الأجهزة الاعلامية علىٰ المجتمع الإسلامي المعاصر

من خلال كل ذلك يستبين الطريق للمصلحين المجددين المؤمنين بحيوية الإسلام واستمراريته . أ.هـ.

●●●

وفي مجالين هامين توزعت كتابات علماء الغرب (أولهما) الحضارة الغربية والاخطار التي تعرضت لها نتيجة انفصالها عن البعد الرباني (وقد وفى جارودي هذه القضية بالاضافة إلىٰ باحثين آخرين (وقد أفردنا له فصلا خاصا) .
(ثانيهما) التحول الجديد في فهم الكتب القديمة ، وهذا ما وفاه الدكتور بوكاي وهناك ما عرض له كبار العلماء والمفكرين والباحثين الذين دخلوا الإسلام حين يتحدثون عن تجربتهم الخاصة ، وأمامنا في هذا قدر كبير من الأضواء التي ألقيت علىٰ هذه القضية .
(١) محمد أمان هوبوهم (المانيا) يقول في الاجابة عن السؤال الهام :

لماذا يعتني الغربيون بالإسلام اليوم؟

هناك أسباب عديدة ، ذلك أن الحقيقة ذات قوة غلابة دائما فمبادئ الإسلام علىٰ أصالتها مبادئ انسانية وطبيعية وجذابة لدرجة انها تؤثر في الباحث عن الحقيقة تأثيراً فعالا ، ولنضرب علىٰ ذلك مثلا : مبدأ التوحيد وكيف يرتفع بكرامة الإنسان ويحرره من اسار الخرافات وكيف يتحقق مبدأ المساواة بين بني البشر علىٰ أساس ان الله خالقهم وانهم عبيد لاله واحد ، والإيمان

باله واحد بالنسبة للألمان بوجه خاص يعتبر مصدراً للالهام والشجاعة التي لا تعرف الخوف والأمان الذي ليس بعده أمان. والإيمان بالحياة بعد الموت له أثر فعال في مقاييس البشر فليست الحياة الدنيا هدفا لذاتها بل ان كثيرا من نشاط الإنسان لابد من وقفه علىٰ اصلاح أمورنا في الدار الآخرة والاحساس بيوم الحساب فضلا عن ذلك يحث الإنسان علىٰ أن يبتعد عن الرزائل ويشجعه علىٰ الاتيان بفضائل الأعمال وحدها هو الضمان الوحيد للنجاة من النار في يوم الحساب والإيمان بان كل انسان لابد أن يحاسب أمام الله عادل غير متحيز وقادر علىٰ كل شيً يجعلنا نفكر مرتين قبل أن نرتكب الآثام وهذا يعتبر أكبر وأكفأ قوة رادعة في العالم.

والشيً الثاني الذي يجذب الغربيين إلىٰ الإسلام هو تأكيد مبدأ التسامح فضلا عن أن الصلاة اليومية تعود الإنسان المواظبة، كما أن شهر الصيام يعلم الإنسان ضبط النفس وسيادته علىٰ عواطفه ان أعظم ما انجزه الإسلام هو نجاحه في تكوين روح مراعاة الحدود الأخلاقية في نفوس معتنقيه من غير اكراه أو ضغط خارجي، فالمسلم أيا كان يؤمن تمام الإيمان بانه خاضع لله تعالىٰ في أقواله وأفعاله، وهذا الشعور تبعده دائما عن الخطيئة وبان الإنسان يميل بفطرته إلىٰ الخير فإن الإسلام يقدم لاتباعه سلاما في القلب وسلاما في العقل وهذا ما يفتقده المجتمع الغربي المعاصر فقد عشت تحت نظم مختلفة، هي نظم الحياة كما أتاحت لي

الظروف أن أدرس مذاهب مختلفة والنتيجة النهائية التي انتهيت إليها هي أن الإسلام هو الدين الكامل بلا مراء فالشيوعية في جوانبها الخداعة التي تجذب البسطاء كما أن الديمقراطية الغربية لها عشاقها ولكن لا يوجد مذهب نظر إلىٰ الحياة نظرة نبيلة متكاملة كما نظر إليها الإسلام ولذلك اتخذت طريقي إليه،والإسلام ليس دين نظري بحت ولكن دين عملي قام علىٰ الأصالة وهو ليس مجزءاً إلىٰ خلايا وأقسام ولكنه «خضوع كامل لإرادة الله» .

(٢)

أما الأستاذ محمد صديق (المسلم الألماني) فيتحدث عن جانب آخر من رؤية الإسلام: لقد كان الإسلام بالنسبة لي كعملية استكشاف لفطرتي، لقد اكتشفت ان الإسلام كمنهج حياة كان ينسجم من كافة الوجوه مع فطرتي البشرية

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ ﴾

إن هناك مسلمين في الغرب والشرق علىٰ السواء يعربون عن اعجابهم بالحضارة الغربية بل ويحاكونها محاكاة عمياء فعلىٰ هؤلاء أن يتذكروا ما قاله (برتراندرسل) الفيلسوف الانجليزي: بأن الناس في الغرب غير قادرين علىٰ تطوير الجانب الإنساني من الحياة

بالكمية نفسها التي تتقدم بها الناحية المادية وان كل خطوة إلىٰ الأمام في المخترعات المادة هي خطوة نحو فناء الإنسان فعلينا أن نكون دائما علىٰ يقظة فلا نلقي بأنفسنا تحت رحمة هذه الحضارة . أ.هـ أن علينا أن نأخذ منها ما ينسجم وإسلامنا ونلقي عن كواهلنا عفنها وفسادها.

وهذا أمر ممكن وميسور حين نؤمن بالإسلام علىٰ بينة وهدى والله يهدي من يشاء، ذلك أن الحضارة الغربية لا تضع حلا لغير مشكلات الحياة المادية ونحن نشاهد أثرها المدمر علىٰ الحياة الإنسانية فقد تحطمت الأسرة كما جمدت صلات المودة بين الأفراد ولذا فإذا شئنا أن نكون بشرا بحق، نتصرف بتصرفات انسانية أن نعرض إعراضا كاملا عن التقليد الأعمىٰ للحضارة الغربية.

(٣)

أما المرأة الغربية فلها في الإسلام مفهوم آخر، تقول السيدة نادية زونال : كنت أبحث عن النقائص في الكتب وانتقد الإسلام مثل الفرنساويين ولاسيما في حقوق المرأة ولكن حينما عرفت طبيعة الإسلام تغيرت العقائد التي نشأت في ذهني، فآمنت بالله واعترفت بان الإسلام هو الدين الوحيد الذي نزل من السماء، فإن الإسلام أعطاني هدايا كثيرة وغيّر كل شيء في حياتي والآن تغير فكري وقولي حتىٰ اللباس، كما أعطاني كل نوع من الحرية، والذي ينشر عن الإسلام في هذا العصر هو معاكس للحقيقة

(٤) القرآن هو الذي دعاني للإسلام

ثم هناك ظاهرة تحول المهتدين للإسلام من أبناء الغرب إلىٰ القيام بدور الدعاة آخرها في بريطانيا والآخر في فرنسا.

فإن انسحاب المطرب الانجليزي (كات ستفيس) من مسرح الغناء الغربي ١٩٧٥ ليسلم وجهه لله، وكان قبل ذلك الوقت يشغل قاعات المسرح تصفيقا وصراخاً وأصبح كما يقول هو لصحيفة (اسلاميك ريفيو) يشمل قلبه باكيا بقراءة سورة يوسف ومن هنا اختار لنفسه اسم يوسف اسلام أما صاحبته كانت تصرف في باريس باسم ملكة الجنوب الجافة وأصبحت بعد اسلامها تعرف باسم (الملكة المسلمة للجنوب) واختارت اسم (أمينة حسن) ليكون لها بعد دخلوها الإسلام.

وقصة هدايتها إلىٰ الإسلام، انها سمعت صوت المؤذن في أسوان ينادي (حي علىٰ الصلاة) فأحست بشفافية دعتها إلىٰ ضرورة التعمق في الإسلام وسارت إلىٰ جامع باريس لتسلم علىٰ يد شيخ الجامع وأصبح (يوسف اسلام) وقد تحول إلىٰ مركز للدعاية الإسلامية إذ يعتبره المسلمون مثلهم الأعلىٰ. قال وجدت في القرآن الاجابة علىٰ كل اسئلتي والإسلام هو الذي دعاني للإسلام فأجبت دعوته، أما الكنيسة التي حطمتني وجلبت لي التعاسة والفناء فهي التي ارسلتني لهذا القرآن عندما عجزت عن الاجابة عن تساؤلات النفس والروح قرأت قوله تعالىٰ:

الموسيقىٰ ديني السابق، والإسلام ديني الحاضر، كان عندي إيمان بالله ولكن الكنيسة لم تعرفني ما هو الاله وعجزت عن ايصال حقيقة هذا الاله الذي تتحدث عنه، كانت الفكرة غامضة، وبدأت أفكر في طريقي لحياة جديدة، بدأت أفكر في السعادة التي لم أجدها في الشهرة ولا في الكنيسة، فطرقت باب البوذية والفلسفة الصينية، وافتتنت بالنجوم، ولكني وجدت كل ذلك هراء، ثم انتقلت إلىٰ الشيوعية ظنا مني أن الخير في أن تقسم ثروات العالم علىٰ الناس ولكني شعرت أن الشيوعية لا تتفق مع الفطرة ثم اتجهت إلىٰ تعاطي العقاقير المهدئة وبعد فترة ادركت انه ليس هناك عقيدة تعطيني الاجابة وتوضح لي الحقيقة التي أبحث عنها وحدثت المعجزة عندما أعطاني أخي نسخة من القرآن الكريم، وبدأت أفكر في الإسلام الذي هو في نظر الغرب عنصري عرقي وان المسلمين أغراب أجانب، ولأول وهلة شعرت أن القرآن يبدأ باسم الله وليس باسم غير الله وعبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) كانت مؤثرة في نفسي ان القرآن قد بدأ بعبادة الله الواحد رب العالمين جميعا مؤكداً وحده الحقائق والمخلوقات وليس له شريك يقتسم معه القوة وهذا مفهوم جديد واقرن ذلك بالإيمان بالله وباليوم الآخر وان الحياة الآخرة خالدة، إذن أنت لست كتلة من اللحم تتحول إلىٰ رماد يوما كما يقول علماء الأحياء، وما تفعله في هذه الحياة يحدد الحالة التي ستكون عليها

وبالأخص في عبودية المرأة وحقها.

إن الأحكام الإسلامية للمرأة هي تكميل شخصيتها وحريتها وان من يراني بهذا اللباس (الإسلامي) في فرنسا أظنه يتعجب وأما أنا فأشعر فيه بالحرية الكاملة لأني قد نلت رتبة المرأة الحقيقية، التي يعترف بها الغربيون، والمرأة عند الغربين شئ للاستفادة أو الانتفاع به وقد عرفت عظمتها التي أعطاها الإسلام. ان المرأة في الإسلام ليست قيمتها حسيا بل قيمتها معنوية، ولها اكرام عظيم فيه وأنا أشعر ببالغ الفرح والسرور بهذا الأمر بعد اعتناقي إياه أول مرة.

هذه النماذج وعشرات غيرها تكشف عن مستقبل الإسلام في أوربا حيث يترقب الباحثون ذلك الانقلاب الخطير الذي سيحدثه الإسلام في العالم والذي تترقبه اليوم (أوربا) باسرها حيث أن الإسلام أصبح الشغل الشاغل لها كما تقول (انريكو جار بيالدي المستشرق الايطالي) وما كان لأحد أن يصدق أن تشرق شمس الإسلام في أوربا التي عاشت حياتها بعيدة عن الإسلام محاربة له وهي التي قضت حينا من الدهر عائبة لتعاليمه.

وحول مستقبل الإسلام في أوربا يقول أحد الباحثين:

من الحقائق التي لا يعوزها الدليل: ان الإسلام يكسب كل يوم معتنقين جدداً وهذا الأمر لا يخص فئة معينة يحكمها ظرف خاص أو شريحة بشرية لها تركتها وتاريخها وعاداتها وتقاليدها وعقائدها، أو بنمط حضاري معين له أزماته ومآسيه ومعاناته.

ففي أوربا وأمريكا علىٰ الرغم من المناخ الذي أفرزته الحروب الصليبية والجهود المستميتة لتشويه صورة الإسلام، فإن المراكز الإسلامية تستقبل يوميا كثيرين من الذين يعلنون اسلامهم من مستويات وأعمار شتىٰ أن القضية الإسلامية أصبحت تتحرك بأبعاد عالمية، فهو أكبر من أن تكون محصورة في جماعة أو جنس أو قوم أو لون.

ومن الخطأ العقدي والتاريخي والحضاري ربط الإسلام بجنس أو قوم أو جماعة فالإسلام أصبح موجودا ومطروحا في كل مكان وعلىٰ كل انسان علىٰ الرغم من الجهود التي يبذلها اعداؤه للحيلولة دون انتشاره وانتصاره.

ومما يذكر عن أوربا في استعمارها الحديث للعالم الإسلامي ومنذ الحروب الصليبية استماتت تاريخيا لكسر شوكة الإسلام في بيئته وحاولت اقامة الحواجز والسدود في وجهه حتىٰ لا يصل إليها بدافع الاحقاد التاريخية الصليبية ولكنها عجزت فكريا وان انتصرت عسكريا.

ولقد كان للحركة الاستشراقية دورها في حجب العقل الأوربي عن نور الإسلام وساهم باستقصائه، والعمل ضد الإسلام والمسلمين حيث لم يبق لاوربا من النصرانية إلا شعور التعصب والحقد ضد الإسلام ولم يبق في ذهن المسلمين عن أوربا إلا ما أورثه هذا الحقد من الاستعمار وصور التمزق والتجربة التي تمت ممارستها علىٰ عالم المسلمين.

في الحياة الأخرىٰ.

لم أجد في القرآن اسم مؤلف وحاولت أن أبحث عن أخطاء في القرآن فلم أجد، كان كله منسجما مع فكرة الوحدانية الخالصة، وجدت منه كل أسماء الأنبياء الذين شرفهم وكرمهم ولم يفرق بين أحد منهم، لو فضلت نبيا علىٰ نبي، لدمرت وحدة الرسالات، لقد فهمت أن الإسلام هو نفس الدين الذي أوحى به إلىٰ الخلق منذ عهد آدم، وان الناس كانوا علىٰ مدى التاريخ صنفين: اما مؤمن واما كافر، لقد أجاب القرآن علىٰ كل تساؤلاتي، وبذلك شعرت بالسعادة سعادة العثور علىٰ الحقيقة (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) ولما اشهرت إسلامي أحسست اني ولدت من جديد وعرفت إلىٰ أين أسير مع إخواني من عباد الله المسلمين. لقد اتجهت للإسلام من أفضل مصادره، وهو القرآن، ولو ان انسانا دعاني إلىٰ الإسلام لرفضت دعوته، بسبب أحوال المسلمين المتردية، وما تشوهه أجهزة الاعلام في الغرب ثم درست سيرة الرسول ﷺ فأدركت الثروة الهائلة في حياة الرسول: ان الرسول محمد دعا المسلمين إلىٰ ان لا يفعلون فعل النصارى مع عيسىٰ عليه السلام، نحن نحب الرسول ﷺ لأن الله تبارك وتعالىٰ يحبه ولأنه جاءنا بالرسالة من عند الله، لقد نسيت الموسيقىٰ وهي مما لا يرضاه الإسلام، الإسلام الذي يحث علىٰ بناء الرجال، وعلينا أن نبني أسرنا وأولادنا وأزواجنا كما يريد الله وليس أن نهدم الأسر والأولاد والبنات بالموسيقىٰ والغناء

الذي يلجأون إليه عندما تعجز المعتقدات الباطنة عن توفير الطمأنينة والسعادة في النفوس، أما الملايين التي نسبتها فقد وهبتها للدعوة الإسلامية، أقول لكل انسان غير مسلم أن يقرأ القرآن بحياد وموضوعية ودون تحيز لمعتقده أو للمسلمين فإنه سيجد فيه ما يقنعه وسيجد انه كلام الله ان التقدم البيلوجي الذي حققه الغرب قد أدىٰ إلىٰ انعزال الدين المسيحي عن حياة الناس هناك، إذ أنه كان محاربا لهذا التقدم، مناهضاً له، ثم لم يلبث أن قدم لنا تنازلات كثيرة شوهت معالمه وغيرت مبادئه ولكنها ظلت عاجزة عن استعطاف الناس الذين فتنوا بالعلم واتخذوه ديدنا لهم بدلا من النصرانية وحاربوا دينهم وعادوا كل دين.

لقد فصل الناس هناك الدين عن الحياة وعن العلم، ولو عرف الغربيون الإسلام لتغير ذلك كثيراً، لأن كل انسان يحتاج إلىٰ الدين.

إن موقف الغربيين من الموت هو موقف كله فزع وخوف من المجهول فهم يخشون الموت، كما انهم لا يؤمنون بما وراء الموت واليهود يعتقدون أن الحياة الدنيا هي نهاية المطاف. انظر إلىٰ جمال الإسلام وهو ينشئ في قلب المسلم الحساسية الشديدة والضمير الحي والشعور بالمسئولية، بفضل نعمة الإيمان بالآخرة.

إن الرجل الغربي يعتقد أن الإسلام يمنعه من أن يكون حراً وان يستمتع بهذه الحياة.

إننا لكي نفهم عقلية الإنسان الغربي لابد أولا من فهم

مقومات هذه العقلية، ان المجتمع الغربي مجتمع وثني فهو يجهل الله ولذلك فهم يؤلهون الإنسان كما هو الحال في تراثهم الشعبي عن الأساطير والصور والتماثيل التي لا تزال تملأ ساحاتهم ولما جاءت النصرانية أخذت تتكيف مع التراث اليوناني الغربي فقد حولوا نظرتهم إلىٰ الإنسان الاله وأطلقوها علىٰ عيسىٰ عليه السلام وخلعوا عليه صفات الالوهية، وبذلك أوقع الغربيون أنفسهم في مشكلة كانوا في غنى عنها إذ نظروا إلىٰ الإنسان علىٰ انه كامل مع ان الإنسان خطاء وخلق ضعفا وان الكمال لله وحده. أ.هـ.

٥ ـ الرسول محمد ﷺ

لقد عرف الغربيون المسلمون الجدد القرآن، وكذلك عرفوا النبي محمد ﷺ علىٰ صورة جديدة مختلفة عن الصورة التي عاشوا يرسمونها، يقول دكتور ميكل دي ايبالثا الأستاذ بجامعة مدريد: يرجع عدم التقدير الحقيقي لرسول الإسلام إلىٰ الجهل والعداء السياسي والمبادئ الدينية المسيحية. كان المسيحيون يعتقدون عند بدء ظهور الإسلام انه النبي محمد ﷺ ليس إلا هرطقيا مسيحيا علىٰ ضلال، وانه لا يزن عن أن يكون واحداً من زعماء الطوائف المنحرفة التي شذت عن المسيحية الشرقية كما يعتقدون انه من قواد الحروب الغزاة، وان هذا الجهل دام قرونا كثيرة.

وقال كروث ايرنابذت انه ربما لا يوجد صاحب دعوة تعرض للتجريح والاهانة ظلما علىٰ مدى التاريخ مثل محمد، وكذلك لا توجد أية اتهامات أساسها السياسة لا الدين، مثل الاتهامات التي وجهت للإسلام، وليس مرد ذلك علىٰ أن الإسلام كان علىٰ امتداد العصور الوسطىٰ العدو السياسي الأول للمسيحية، بل لان الإسلام منذ نشأته دخل في نزاع جذري مع الأشكال السياسية التي تهيمن علىٰ الحركات المسيحية الأولية، ولقد كانت الحروب السياسية المتكررة بين البلدان الإسلامية والمسيحية حتىٰ الحروب الصليبية والاستعمارية الأخيرة جلها يحول دون النظر بكل موضوعية واحترام إلىٰ رسول ومؤسس الدين الإسلام.

ثم حدث التطور المسيحي الجديد تجاه محمد ﷺ بدا جهل المسيحين بمحمد يزول شيئا فشيئا نتيجة الدراسات التاريخية التي قام بها الكتاب الأوربيون في القرن ١٩، ٢٠ وبرغم الأحكام المسبقة ضد العرب والمسلمين، ويكتب حاليا في أوربا حول محمد ما يسمىٰ بموضوعية، فهناك مسيحيون أكفاء يكتبون بموضوعية عن الإسلام ورسوله وبعد فترة من الاستعمار صار المسيحيون يقدرون أكثر فأكثر الشعوب الأخرى ويخدمون تقاليدها اعتماداً علىٰ مبدأ المساواة بين البشر.

كذلك فقد أصدر الفاتيكان منشوراً يقول فيه:

إن الكنيسة تنظر أيضا بتقدير إلىٰ المسلمين الذي يعبدون الله الواحد الحي القيوم الرحيم القادر علىٰ كل شئ خالق السماء

والأرض والذي كلم الناس والذين يخضعون لأوامره بكل حواسهم كما خضع له إبراهيم الذي يحلو للعقيدة الإسلامية أن تذكره، انهم يعظمون المسيح نبيا وان كانوا لا يعترفون به الها ويحترمون كذلك أمه البتول مريم ويذكرونها بكل تقوى، ثم انهم يرتجون اليوم الآخر، والمجمع الفاتيكاني المقدس يدعو إلىٰ نسيان الماضي ومحاولة التفاهم المتبادل.

فهذه دعوة إلىٰ ازالة الأحكام المسبقة السلبية التي تحتفظ بها كثير من اوربيين ويبقى بعد ذلك المصدر الالهي لرسالة محمد وهي أصعب نقطة اذ فيها يتركز الخلاف الجذري بين العقيدتين الإسلامية والمسيحية.

هذه هي الدعوة إلىٰ حملها دعاة الحوار، وهي دعوة منذ ظهرت لم يلابسها موقف حاسم يدفعها إلىٰ الأمام بل الذي ظهر تماما بين بروز ظاهرة الإسلام في الغرب هو موقف متعصب شديد التعصب ومقاومة طاغية علىٰ النحو الذي سنتناوله في الفصول القادمة.

●●●

وهنا يمكن الاشارة إلىٰ كتاب تحدثت عنه الدوائر الغربية كثيرا هو كتاب (سيرة محمد) للكاتب الغربي (مارتن لنجر) الذي أسلم ١٩٣٨ وقد اتخذ اسم (أبو بكر سراج الدين) حيث عاد إلىٰ المصادر الأولىٰ: القرآن والسنة وصحيح البخاري ومسلم

والطبقات الكبرى لابن سعد والمغازي للواقدي في اعداد كتابه عن النبي ﷺ .

وتبقىٰ بعد ذلك قضية علماء الغرب في موقفهم من الإسلام بعد أن تكشف فساد مناهج الغرب وأيدلوجياته ومذاهبه النفسية والاجتماعية والسياسية :

وقد تصدىٰ لذلك الدكتور رشدي فكار في كتابه (نهاية العمالقة) قال انه كان هناك يطلع إلىٰ العمالقة كقدوة وكمثال بالنسبة لإنسان باحث عن الحقيقة ، ولكن ثمة علامات استفهام كانت تلوح دوما بعد قراءته لافكار متعددة لحضارة الغرب ، انطلاقا من الفكر الماركسي والوجودي والتصوري ، اين الذات وإلىٰ أين تسير ، وما هي الغاية وتفسير الوجود وحقيقة الخلق والخالق . لقد درس الدكتور رشدي فكار الفلسفة المعاصرة (سان سيمون ، أوجست كونت ، كارل ماركس ، هربرت سبنسر ، سارتر) فماذا رأى .

أولاً : ظاهرة الشكك الواضحة في كل كتابات فلاسفة الفكر الأوربي في القرن ١٩/٢٠ .

ثانياً : التمرد علىٰ الله ، هدم صرح الإيمان بمعاول أقلامهم وهدم الرموز الدينية .

فقد مضوا في محاولة اكتشاف القوانين التي تتحكم في الكون لمعرفة اسراره ظنا منهم انهم قادرون علىٰ فك طلاسمها

وكيف وصلوا إلىٰ دائرة مفرغة، عادوا مع دورانها إلىٰ نقطة البدء، حيث ينحني جبروت العقل أمام أسرار اللانهائية فاعترفوا جميعا بعجزهم عن التحدي والمواجهة أو بالإيمان الضبابي المقنع، أو الواضح بلا أقنعة.

أما (سان سيمون) فقد كان حربا علىٰ العقيدة، ورأى المسيحية من منظور الاحتكار الكنسي، وهو من دعاة الاتجاه الازدواجي أو الثنائي (الدين والعلم) ولم يصل مفهومه عن الله تبارك وتعالىٰ إلا بالقول بان الاله يتمثل في قوة الطبيعة.

أما أوجست كونت فقد طرح الدين بالمفهوم الوضعي البحت فسقط بدوره في قاع بلا قرار ولما قرأ الإسلام لم ير أكثر من انه مرحلة وان وصف الإسلام بانه دين عار من الحماقات ويتميز ببساطته وعقلانيته وقدرته علىٰ اشباع الذات ولكنه مع هذا الفهم لم يؤمن وظل ملحدا كصاحبه سان سيمون.

أما سارتر فإنه قبل موته طلب أن يأتي له بقسيس من قرية متواضعة وجاء القس واعترف له بهزيمته.

أما كارل ماركس فقد قال ان الدين هو مخدر الشعوب، ويقصد الاستغلال الكهنوتي الطبقي في المسيحية، وقد بنى نظريته علىٰ موقف الكنيسة في الغرب أو ما أسماه (استغلال الكادحين).

هكذا كانت حيرة هؤلاء الشوامخ الذين قدمهم الينا المغربون من أبناء جلدتنا علىٰ انه قمم وقادة وقد انكشف أمرهم أخيرا.

الباب الخامس
ماذا يرى مفكرو الغرب في حضارتهم

الفصل الأول
حضارة الغرب في نظر مفكري الغرب

منذ اليوم الأول حين طرحت مفاهيم الغرب في أفق الفكر الإسلامي في العصر الحديث فإن علماء المسلمين راجعوها وكشفوا مخالفاتها للتوحيد وعجزها عن العطاء واضطرابها ولم يقبل منهم إلا القليل مبهوراً علىٰ الحضارة الغربية ولكن هؤلاء أيضا لم يلبثوا بعد قليل ان اكتشفوا أن هذه الحضارة ليست سوية وأن من ورائها مفهوم [روما سادة ومن حولها عبيد] وان أهلها وما يقدمونه للعالم الإسلامي كله انما هو مفهوم الاستعلاء بالعنصر والنظرة غير السوية إلىٰ المسلمين والملونين ومن هم غير أصل الغرب ، وفي نفس الوقت بدأت الحملات علىٰ الإسلام نفسه بهدف اثارة الشبهات حول العقيدة وحول الرسول وحول تاريخ الإسلام والقرآن واللغة العربية في محاولة لاحتواء الأمة الإسلامية في فكر الغرب والحيلولة بين المستنيرين من الوصول إلىٰ ضوء الإسلام .

ولكن الله تبارك وتعالىٰ غالب علىٰ أمره فقد تفتحت في الغرب أبواب النظر إلىٰ الإسلام بتقدير واعجاب ، وتعالت أصوات قليلة تتحدث عن فضل المسلمين المذكور في تقديم المنهج التجريبي والمفاهيم العلمية في التاريخ والاقتصاد ومفهوم الحضارة والتمدن .

وجاء رجل من أكبر رجال الدعوة الإسلامية في العصر الحديث هو الأستاذ حسن البنا فهاجم الحضارة الغربية وكشف زيفها ودعا المسلمين إلىٰ مقاومتها وحماية أنفسهم من الإنصهار فيها، ثم توالت النذر من الحضارة الغربية نفسها حين كشفت عن فسادها وتمزقها وانهيارها حين اغتالتها العلوم الاجتماعية والانسانية التي قدمها يهود وتبين أن الدعوة إلىٰ اسقاط الحضارة الغربية والكشف عن فساد الفكر الغربي ضرورة حتمية في هذه المرحلة التي بدأت فيها حركة اليقظة الإسلامية تدخل دائرة (الصحوة) مقدمة لمرحلة (النهضة) فقد تكشف الأمر عن بشرية الكتب القديمة وفسادها.

وكان لابد من مواجهة موجة الانبهار بالغرب والاعجاب به والتي تحمل في نفس الوقت الانتقاص لهذه الأمة وتراثها وقد جاء ذلك نتيجة المناهج الوافدة في مدارسنا والتي تحاول أن تجعل من نظريات الغرب وفروضه قضايا مسلمة بها، ومن هنا فنحن في حاجة إلىٰ الكشف عن عدة حقائق أساسية لتصحيح هذا الطريق.

أولاً: ان هذه الحضارة الغربية القاهرة بدأت من الإسلام بمقوماتها الأصيلة ثم انحرفت عنه وانها الآن في مرحلة السقوط لانها خالفت منهج الله واندفعت باهواء الإنسان ومطامعه وان هذه الأزمة التي تحيق بها اجتماعيا واقتصاديا والتي تحيق بانسان الحضارة مصدرها غياب

البعد الالهي عنها وقصورها عن السير في طريق اسلام الوجه لله وعملها علىٰ تدمير القيم والاسراف في تبديد الثروة، والتهالك علىٰ الاستهلاك.

ثانيـــاً: لقد عجزت الحضارة الغربية المعاصرة عن حمل أمانة العدل والرحمة والاخاء البشري واستبدلت ذلك كله بالظلم والقسوة وقدمت في نفوس أهل البشرية: الخوف والجذع وجرت كل مجرى في سبيل فرض منهج حياة بشري قوامه الفردية الغالية أو الجماعية الطاغية وقد تبين فساد المنهجين وعجزهما عن العطاء.

أما بالنسبة لعطاء الإسلام للحضارة فذلك أمر قد تجاهله الغرب طويلا وأنكره الكثيرون حتىٰ تبين انه لا مفر من الاعتراف به.

أولاً :سبق المسلمون إلىٰ ما فطن إليه الغربيون بعد مئات السنين من منهج التحقيق العلمي، وان كانوا لم ينصفوا تاريخ الإسلام ولا دعوته بالذات بل سيطر عليهم في أبحاثها هوى التعصب.

وقد قدم الإسلام مفاهيم سامية في هذا المجال أهمها أخلاقية التعامل والتعريف بفضل من سبق علىٰ طريق البحث كما أعلن أن العلم في الإسلام يشمل جميع العلوم دينية ودنيوية، وهي موجهة إلىٰ عمارة الكون واقامة المجتمعات الصالحة.

وانه في هذا يختلف مع مفاهيم الغرب المادية التي أولت الاهتمام للجوانب المادية وتجاهلت الالتزام الأخلاقي والبعد الرباني لوجهة المجتمع والحضارة.

ثانيـــاً: كان الغرب قبل الإسلام يصورون المرض بانه شيطان يدخل الجسم، وكان الرسول ﷺ أول من أعلن صيحة (التداوي): تداوو فإن الله لم نزل داء إلا انزل له الدواء علمه من علمه وجهله من جهله. وانه لولا تعاليم الإسلام لظلت أوربا تعالج المرضىٰ بالطقوس الدينية وحدها وبفضل الإسلام نبغ أطباء مسلمون في شتىٰ عصور الخلافة الإسلامية وكان ملوك وأمراء أوربا يستدعونهم لعلاجهم ويرسلون البعثات إلىٰ جامعات قرطبة والقاهرة وبغداد ليتعلموا منها فنون الطب.

وقد جاء الإسلام باسلوب جديد هو الطب العقائدي، ومعناه ربط التعاليم الصحية بعقيدة الإنسان وعبادته وبذلك يكون لهذه التعاليم ما يشبه التقديس والطاعة في نفوس الناس فلا صلاة بلا وضوء ولا عبادة بلا طهارة.

وقد عجب برناردشو بالتعاليم الطبية التي طبعها الرسول في مؤتمر المدينة وقد حرر الإسلام المجتمعات من كل أسباب التوتر والعنف والقلق المتمثل في بؤر الفساد كملاهي القمار وبيوت الدعارة وشرب الخمر فهيأ حياة طيبة للمسلم.

وترمي تعالم الإسلام إلىٰ حث المسلم علىٰ الصبر والإيمان

وعدم السخط إذا ضاق به الرزق أو الهلع إذا حلت به مصيبة ولهذا تقل حوادث الانتحار في المجتمعات الإسلامية عنها في المجتمعات الاوربية.

كما جاء الإسلام بنظريات في التربية الجنسية سبق بها المدرسة الحديثة فعلم المسلم أسرار الجنس وتكوين الجنين وتطوره في بطن أمه ثم بين له في صراحة أسلوب المباشرة الجنسية السليمة وطرق الوقاية من أمراض الجنس عن طريق النظافة والطهارة.

كذلك فقد جاء الإسلام ليجعل الطب لجماهير الناس جميعا وليس لطبقة واحدة كما كان عند الاغريق (من كتاب الطب الوقائي: أحمد شوقي الفنجري).

وكان المسلمون أول من وصفوا الدورة الدموية في الأوعية الصغيرة وصفا دقيقا وهو ما نسب إلى الأطباء الأوربيين بعد ذلك بثلاثة قرون في عبارات ترجمت حرفيا من كتاب (ابن النفيس) ويقول دكتور يوسف سخت: ان ابن النفيس كان الإمام الأول لهارفي الطبيب الانجليزي وكان ابن النفيس هو أول من اهتدى إلى الدورة الدموية الصغرى، بمفهوم تجريبي هدم نظرية جالينوس.

ولقد هدم مفهوم الطب الإسلامي نظرية عدم علاج المرضى الذين لا أمل في شفائهم، وهدم نظرية الطب للخاصة وجعل الطب للجميع.

●●●

ولم يتوقف عطاء المسلمين علىٰ ميدآن الطب ولكنه تعدى ذلك إلىٰ مختلف الميادين ولكن ماذا كان موقف الغرب «كان موقف الغرب هو التنكر التام للعطاء الإسلامي هذا التنكر الذي استمر طويلا حتىٰ جاء من ينتصف للمسلمين.

يقول سبنسر فامبري: لا يستطيع عالم واحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ اسما عربيا ولا يستطيع عالم طبيعي أن يحلل ورقة من الشجر أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درسا عربيا ولا يقدر أي قاضي أن يبت اليوم في اختلاف دون ان يستدعي مبدأ أملته العرب ولا يسع أي طبيب أن يعامل دائرة أحد الأمراض المعروفة منذ القدم إلا أن يهمس بآراء طبيب عربي ولا يستطيع أي رحالة أن يدلف إلىٰ أبعد زوايا آسيا وافريقيا دون أن يعتمد إلىٰ اللغة العربية فإن انتشارها قد بلغ من الذيوع والسعة بحيث يؤكد البعض دون مبالغة ان خمس شعوب الكرة الأرضية يتكلمون العربية فإذا ذكرنا أن العرب طوال قرون ثمانية في الأندلس مستودع أعظم العلوم في ذلك الحين فإنه يؤسفنا أن نعتقد أن مادة غير محدودة بفن التاريخ والعلوم والاجتماع والحقوق قد وصلتنا من تلك الأرض».

ويقول العلامة ديفونيت: اعتذار إلىٰ محمد والإسلام:
يجب أن نعرف بان علوم الطبيعة والفلك والرياضيات وغيرها التي انعشت في أوربا منذ القرن العاشر مقتبسة من القرآن بل ان أوربا مدينة للإسلام بأكثر من ذلك لأن الدين الذي أمر دستوره

بالديمقراطية نهى عن الاستبداد، بقوله

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾

وأمرهم شورى بينهم: قد فتح أمام الإنسانية الحقوق الحديثة وبالجملة فالمسلمون هم الذين انقذوا أوربا من عهد الظلام الذي كان يرزح في ظلام دامس، وهم الذين أخرجوهم من الظلمات إلىٰ النور وحفظوا لهم اثارهم من علوم وطب وهندسة ويعتبر المسلمون بحق أساتذة أوربا» هذا الذي اعترف به أقطاب الفكر في الغرب، ماذا كان من أمره، لقد أخذ الغرب العلوم التجريبية الإسلامية وجردها من الأخلاقيات الأساسية للعلم بل وتجاهل المصدر الرباني الأساسي للحضارة، فهو قد خرج من النقيض إلىٰ النقيض من الرهبانية التي جمدته إلىٰ الاباحية التي دمرته.

يقول البروفسور سيمون جارحي (جامع حنيف):

إن الغرب فقد المرتكزات الروحية الثقافية الدينية التي كان يرتكز عليها فلم يعد هناك شئ يركن إليه، فالديانة النصرانية فقدت مقوماتها والتوق إلىٰ الروحانيات انتهىٰ واضمحل في النفوس فأصبح في الغرب نوع من الفراغ، ونوع من الضياع الشامل تكتوي به الأجيال الشابة: انني اعتقد أن حضارتنا الغربية هي الآن في حالة احتضار نحن نشاهد حضارة تنازع وتوشك أن تموت ولا بد أن ينشأ عنها حضارة جديدة. نحن نعيش في نفق مظلم ولانزال ننتظر النور الذي سيهدينا.

ويقول جاك برك: ليس غير الإسلام دينا يصلح علىٰ مدى الكون عقيدة تنتشل روح الإنسان وآدميته من هوة الظلمات المادية التي يتردى منها.

●●●

إن هناك شبه إجماع علىٰ تردي الحضارة الغربية: يقول دكتور ماكس فريش:

إننا نعيش في فراغ ايدلوجي بمعنىٰ أن المفاهيم والأيدلوجيات التي بين أيدينا الماركسية من جانب والليبرالية الرأسمالية من جانب آخر أصبحت أدوات لا تطابق الواقع الذي تواجهه، هذا الفراغ الأيدلوجي فراغ خطير، ولفظ ايدلوجي بمعنىٰ عقائدي وفكري ــ هذا الفراغ هو (فراغ قيم) أي نقص في القيم وتبعه ذلك انه جزءاً كبيراً من لغة السياسة ومفاهيمها ليس أكثر من كلشيهات أو تعبيرات رائجة بلا مضمون حقيقي.

نحن نعلم أن العالم قد فقد الروابط والأبعاد من الناحية الفكرية والعقلية وعندما نتحدث عن قضايا الشخصية الذاتية ليس علىٰ المستوىٰ الفردي فحسب، وإنما علىٰ المستوىٰ القومي والوطني فإن هذه القضية لا تواجه العالم الغربي وحده دون العالم الثالث. ان الحضارة الأمريكية تمثل انحرافا حضاريا بالمقارنة إلىٰ أصولها الأوربية. لقد فاجأتنا التكنولوجيا وتغلغلت في حياتنا وأصبحت تقدم لنا أشياء لم نطلبها في الأصل ومع ذلك فعلينا أن نتعامل مع هذه الأشياء الجديدة التي تقدمها لنا.

إن العالم الثالث قد غمرته منتجات العالم الأول بما تحمله من سلبيات وعناصر مخربة وقد اجتاحت العالم الثالث تكنولوجيا العالم الأول في صورها السلبية الطاغية. نحن لا نقدم للعالم الثالث حضارة جديدة أو حضارة مكملة، كما حدث لتاريخ الحضارة القديم، لقد دخل عنصر غير حضاري طغى علىٰ جميع أوجه الحياة.

ويتحدث علماء الغرب عن حضارة البعد الواحد:

فقد وصفها فيلسوف ألمانيا الشهير (ماركليزم) بانها حضارة البعد الواحد وهو (الاشباع الاستهلاكي) وفي ظل حضارة البعد الواحد الاستهلاكي يأتي الرجل الخبر بوفاة الوالد أو الوالدة مثلا فبدلا من أن يكتسي بمسحة روحية تذكره بالموت والحساب وقصر الحياة الدنيا، يداخله السرور ويفتح شهيته المادية ليقول: حسنا سنرث المال والعقار وأعيش في مستوىٰ أرفع.

إن مأساة كبير السن في المجتمعات المتقدمة الذين أصبحوا غير مرغوب فيهم ويجب عليهم بالتالي أن يرحلوا. ان مأساة الإنسان المستلب والمتنكر لإنسانية وباء غربي بدأت ارهاصاته في مدننا الكبرى.

إن الحضارة الغربية بشقيها الليبرالي والماركسي تعاني من أزمة المجتمع الإسلامي واهتزازات القيم والأزمات المفتعلة التي تؤدي إلىٰ حد الانتحار لأسباب تافهة أو الغياب المستمر عن الوعي عن طريق تعاطي المخدرات أو احتكار العطاء البشري المتبادل مع

جفاف العواطف فضلا عن تنكر الأبناء للاباء والاغتراب بين الأجيال، ومشكلة المشكلات للإنسان ألا يكون لديه مشكلة، فإنسان الغرب بعد ان حل كل مشكلاته تجده الآن في غيبة الدين يفتعلها افتعالاً بلا حدود.

ذلك ان حضارة الغرب المادية شيدت علىٰ انقاض الدين، وارتكزت علىٰ حضارة التكنولوجيا أو الحضارة الالية، انها حضارة بلا قلب أو مشاعر أو وجدان وهي حضارة الإنسان في غيبة الإنسان.

●●●

ويشير سوركن عن انهيار الحضارة الغربية فيقول:

لما كانت الحياة الاجتماعية في الحضارة الحسية معقدة جدا، وكان النضال فيها من أجل السعادة عنيفا، فإن السعي وراء اللذة يحطم التوازن العقلي والأخلاقي لدرجة أن الجهاز العصبي لمعظم الناس لا يحتمل الضغط الرهيب الذي يتعرض له فيتفكك، ولما لم يكن للإنسان من مثل هذه الحضارة مثل عليا وكانت حياته يكتنفها صراع مضطرب فإنه يقع فريسة للاوهام والدوافع ويكون كالريشة في مهب الريح فيفقد اتزانه ويزداد تفككه، ويتعرض لرجات عنيفة تحطم الحصانة.

والثابت أن الاضطراب العقلي يرافقه الانتحار لأن أسبابهما واحدة، هي الاضطرابات الاجتماعية، وان الإنسان يقدم علىٰ الانتحار عندما ينعزل عن المجتمع، وقد زادت حوادث الانتحار

في المجتمع الحالي وهو يمر بهذه الأزمة التي أخذت تفكك روابط الأسرة وتزيد من عزلة الناس وعدم استقرارهم وتقلبهم بين الجمعيات والمؤسسات، هذا إلىٰ تزايد رغبات الإنسان التي لا يستطيع اشباعها إلا بالاصطدام بالآخرين، الأمر الذي يجعله يعيش في جو مليء بالخصومات والعداء.

ويقول سوركن: ان الحضارة الفكرية لا تهتم بالرفاه المادي ولا بغيره، أما الحضارة الحسية فقائمة علىٰ تقدير مادي فاستخدمت كل طاقاتها للحصول علىٰ أكبر ما يمكن من الماديات وتوسلت بالعلوم والفنون إلىٰ زيادة الانتاج والتجارة، واستطاعت بسلبها الشعوب الضعيفة ماديا أن تؤمن لاهلها رفاها ماديا أوسع، غير ان هناك عوامل أخرىٰ أخذت تخيب ظنهم في الأمن: منها التفكك والحروب والثورات والاجرام والقسوة والانحلال الخلقي التي ازالت الطمأنينة. ومن هنا فإن حضارتنا تمر بأخطر دور انتقالي في تاريخ الإنسانية، يصحب هذا الدور ثورات وفوضىٰ لا مثيل لها في عمقها وأهم مظاهرها كثرة الأزمات والاضطرابات الاقتصادية وحوادث الانتحار والاجرام وانتشار الأمراض العقلية.

●●●

ويتحدث أرنولد توينبي عن أخطر ظواهر الحضارة:

وثن الدولة الاقليمية في الغرب

يقول فؤاد محمد شبل (أسفرت أبحاث توينبي عن انهيار

الحضارات وتحللها، عن ان السبب في كل حالة نوع من الاخفاق في تقرير المصير، مداراة تفريط المجتمع في حقه في توجيه ارادته صوب تحقيق عمل نافع، ويتمثل ذلك التفريط في ترديه في التقليد بنوع من الوثنية اقامه بنفسه لنفسه، ويطبق (توينبي) هذا الرأي علىٰ المجتمع الغربي فتجده قد سلك مسلك العاكف علىٰ عباده بضعة من الأوثان، إلا ان من بين هذه الأوثان وثنا، سادت عبادته الأوثان الأخرىٰ بين الحربين الأولىٰ والثانية: هو وثن الدولة الاقليمية، ويعتبر توينبي ظاهرة تقديس الدولة الاقليمية إلىٰ حد العبادة بمثابة نذير رهيب للغرب من ناحيتين: (الأولىٰ) ان هذا التعلق الوثني بالدولة الاقليمية هو العقيدة الدينية الحقيقة للغالبية العظمىٰ لسكان العالم المصطبغ بالصبغة الغربية.

(الثانية) ان هذه العقلية الباطلة هي السبب في القضاء علىٰ مالا يقل عن الأربعة عشرة حضارة، وقد يكون عدتها ست عشر من الحضارات الواحدة والعشرين، ما برحت الحرب التي يقتل الأخ أخاه ويستثير منها استعمال العنف هي نتيجة التعلق بالدولة الاقليمية التي هي من أكثر عوامل الفناء شيوعا.

ويرى (توينبي) ان أزمة المجتمع الغربي روحانية وليست مادية، إذ رغم بلوغ هذا المجتمع الذروة في تقدمه المادي إلا انه ما برح يحس بجوع روحي وإذا كانت النفوس الغربية قد استبد بها قلق الفراغ الروحي فإن ذلك يفتح الباب لشياطين مثل القومية والفاشية والشيوعية فإلىٰ متىٰ تحتمل العيش بدون عقيدة دينية.

يقول توينبي بالحرف : ان التائهين في بيداء المجتمع الغربي قد انحرفوا عن طريق الرب الواحد الحق الذي آمن به أجدادهم، أولئك الذين علمتهم التجربة الواقعية بان الدول الاقليمية مثل الكنائس الطائفية أوثان تجلب عبادتها الحرب لا السلام، وهذا ما تجعل التائهين يندفعون صوب التعلق بهدف بدين هو «النظم السياسية الشاذة».

وإن الإنسان الغربي قد اجتلب علىٰ رأسه الكوارث بتكريس جهوده لزيادة رخائه المادي وحده فإن قيض له أن ينشد الخلاص يضبح سبيله الوحيد مشاطرته نتائج جهوده المادية مع غالبية الجنس البشري تلك التي لم توفق في المجال المادي توفيق الإنسان العربي.

فإذا اضفنا إلىٰ هذا انه لا يوجد هناك في الغرب ما يسمىٰ بحقوق الإنسان وانه لا ضمان لحقوق الإنسان إلا في الشريعة الإسلامية القائمة علىٰ أساس العدل والحرية والمساواة، وان لعبة (الديمقراطية) هي مؤامرة خادعة وهناك ظواهر أخرىٰ يجب أن نعرض لها في هذا المجال.

١ ــ إن الخوف والهلع الذي أصبحت تعيش عليه المجتمعات الأوربية ترجع إلىٰ التحلل من الأخلاق والأخذ بنظرية التحرر الجنسي، أي التحلل من القيود المنظمة للعلاقات الجنسية من الأفراد، فالشهوة أو لذة الجنس المفتوحة، جعلها بعض المفكرين بمثابة الحل لكل مشاكل الإنسان وان تحرر المرأة ومن قيود تنظيم

الشهوة الجنسية هو سبب الكثير من المشاكل الاجتماعية، ان هذه النظريات الضالة هي التي أدت إلىٰ تفسخ المجتمعات.

٢ ــ ظاهرة انتحار العلمانيين

ولا شك ان هناك ارتباط عميق ــ كما يقول دكتور حسن الشرقاوي بين ارتفاع معدلات الانتحار وبين البعد عن حكم الدين.

ولقد جاءت عملية انتحار بعض مشاهير المفكرين الذين تميزوا بالتحرر العقلي وانكار الأديان السماوية دليلا جديدا علىٰ افلاس حضارة الغرب ولقد كتب كثيرون يحبذون فكرة الانتحار أمثال اندريه مالرو في كتابه الوضع الإنساني، أما الكاتب البيركامي فيقول: ان الانتحار يمكن أن يكون شيئا أكبر من مجرد ايماءة إلىٰ التحدي واليأس.

ولا شك ترجع أسباب اليأس والقنوط إلىٰ خيبة أملهم في المذاهب المادية والعلمانية ومحدودية عقولهم، فقد اعتنق (ارثر كسلر) الماركسية وجعلها مصدر الهام لرواياته، ثم تكشف له بعد ذلك زيفها وعجزها وقصورها وتناقضها وضعفها وتهافت دعاويها وعقم مزاعمها فأصيب بخيبة أمله ربما توصل إلىٰ يأس قاتل يؤدي به إلىٰ الاقدام علىٰ الانتحار كما فعل بالعكس جارودي الذي اكتشف ان الماركسية طريق مسدود وانه لا (رجاء) له إلا في الإسلام فتمسك به.

كذلك وصل جاكوب مورنو (من عمالقة الفكر العقلي في امريكا) ورائد المدرسة النفسية الاجتماعية ـــ وصل إلىٰ مأزق وادخل نفسه في مصيدة العلمانية فلم يستطع خروجا، وقد انتحر أبشع انتحار إذ قرر ألا يأكل ولا يشرب حتىٰ الموت.

وتطالعنا الصحف بين حين وآخر عن افلاس وانتحار زعيم من زعماء الماركسية أو الوجودية أو الفلسفات الالحادية، وقد أقدم (التوسير) من أقدر فلاسفة المادية في فرنسا إلىٰ ارتكاب جريمة بشعة إذ قتل زوجته وهي بجانبه علىٰ الفراش وأحيل إلىٰ مستشفىٰ الأمراض العقلية وأعلن(هايدي جاردن)عميد فلاسفة العصر في أوربا عن الافلاس العقلي والفراغ الفكري وعن المأزق الذي وصل إليه العلمانيون، وقال: نحن نعيش في ليل أوربا وأعلن سارتر ساعة احتضاره ان فلسفته قادته إلىٰ هزيمة نكراء، ومعنىٰ هذا أن الحلول الجذرية لقضايا الإنسان المعاصرة لا يمكن أن نجدها عند النظريات المادية أو التجريدية أو العقلانية أو المثالية. فإن هذا كله قد وصل بهم إلىٰ (الطريق المسدود) وانتهىٰ إلىٰ الافلاس العقلي أو الأزمات النفسية، ولا يجد الإنسان الأمن إلا في الدين.

وقال دكتور مجد علي البار: انه من السخرية انه من أجل زرع قلوب لا غناء منها يموت. أكثر من عشرة ملايين طفل سنويا من سوء التغذية وأمراض الاسهال، انها حضارة شوهاء عوراء متفرطة شديدة الغرور والصلف حتىٰ انها ادعت كنيسها الالوهية.

إن عشرة ملايين طفل يموتون كل عام في العالم الإسلامي بسبب الجوع ونقص التغذية والاسهال ويمكن انقاذ هؤلاء الملايين بتوفير الطعام لهم ولكن الحضارة الغربية الشوهاء تأبى ذلك وينفق ملايين الدورات على عمليات زرع القلوب، حيث تستبدل قلوب من لا خير منها بقلوب القردة والكلاب والخنازير.

ويقول الدكتور برنارد: اني اشعر بوخز الضمير حيث كنت رائد عمليات زرع القلوب فلقد قمت بارتياد هذا المجال ولا أظن اني بعملي هذا قد أسعدت الإنسان فإن القلوب التي استبدلتها لم تعش طويلا ولكنها جعلت حياة أصحابها سلسلة من الشقاء والتعاسة.

●●●

في هذه المرحلة السابقة لمطالع القرن الخامس عشر الهجري كانت هذه الصيحات بمثابة نذر للصحوة الإسلامية التي كان من علاماتها اسلام المفكرين الكبار، وكانت كتابات واضحة خطيرة قضى أن تظل محجوبة عن الانظار ولكنها هي التي فتحت الأبواب أمام الباحثين المنصفين.

الله أكبر: عبدالكريم جرمانوس
أفول الغرب: ستنجلر.
الإسلام على مفترق الطرق: ليوبولد فابس (محمد أسد).
الإنسان ذلك المجهول: اليكس كاريل.

محمد رسول الله: ايتان دينتيه.

بالإضافة إلىٰ كتابات جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وعبدالحميد بن باديس واقبال ومالك بن نبي وحسن البنا والمودودي والندوي كلها أيقظت المشاعر للدور الجديد الذي ظهر فيه جارودي وبوكاي واليسون.

فنجد محمد أسد يقول: تعاطفت مع المفهوم الإنساني الهادئ للحياة أكثر مما أحببت نمط الحياة الآلي اللاهث في أوربا وقد أدىٰ هذا التعاطف تدريجيا إلىٰ بحث أسباب الاختلاف ولم يكن هذا البحث ممكنا إلا بدراسة تعاليم الإسلام، ومن تمكن هذه الدراسة بالقوة بحيث تدفعني إلىٰ اعتناق الإسلام، ولكنها استطاعت أن تفتح عيني علىٰ أفق جديد لمجتمع ينعدم فيه التناقض ويقوم علىٰ حد أقصىٰ من الأخوة الحقة وقد بدا لي التناقض كثيرا بين واقع الإسلام وبين الامكانات المثالية التي تتضمنها تعاليم دينهم، ودفعني هذا الاكتشاف والحيرة ازاء التناقض بين ما كان وما هو كائن فعلا إلىٰ محاولة الاقتراب من الحقيقة من رؤية تتسم بالود والالفة فتجلت نفسي داخل دائرة الإسلام، وكانت تجربة ذهنية خالصة جعلتني أوقن في وقت قصير، **ان العلة الوحيدة للانهيار الاجتماعي والثقافي لدىٰ المسلمين انما ترجع إلىٰ توقفهم تدريجيا عن اتباع روح التعاليم الإسلامية**. وقد وجدت ان الإسلام مازال موجودا ولكنه مجرد من الروح.

وبقدر ما أدركت كم هي صلبة وكم هي عملية تلك التعاليم

بقدر ما اثار في أعماقي التساؤل عن سبب انصراف المسلمين عن تطبيقها في حياتهم العملية. وناقشت هذه المسألة باستفاضة واستقصاء مع عديدين من مفكري الإسلام إلىٰ درجة انني الفيت نفسي أتحدث إلىٰ المسلمين وكأني أعمل علىٰ حماية الإسلام من تراخيهم وعدم اكتراثهم، ولم ادرك التطور الذي طرأ علىٰ موقفي حتىٰ خريف ١٩٢٥ إذ كنت آنذاك في جبال افغانستان حيث قال لي حاكم مقاطعة شاب:

انت في الحقيقة مسلم ولكنك لا تعي ذلك.

وكانت هذه الكلمات صدمة الزمتني الصمت، ولكن عندما عدت إلىٰ أوربا سنة ١٩٢٦ وجدت النتيجة الطبيعية لموقفي هي اعتناق الإسلام ولطالما سئلت لماذا اعتنقت الإسلام وها يتحتم علي أن أعرف بانني لا أملك الاجابة فانا لم أتأثر باحد جوانب الإسلام دون غيره وانما تأثرت بالبناء الكلي المذهل في تماسكه وليس في امكاني حتى هذه اللحظة أن أفاضل بين جانب وآخر فالإسلام كما يبدو لي كعمل هندسي نموذجي متكامل كل جزء منه بارع التناغم والانسجام مع الأجزاء الأخرىٰ، إلىٰ حد انه يدعمها ويبرز محاسنها وربما يكون هذا الاحساس بان كل ما تحتويه تعاليم الإسلام ومسلماته يأخذ مكانه الصحيح بشكل يجل عن الوصف ربما كان هذا الاحساس هو الذي ملك علي مشاعري.

الفصل الثاني
جارودي مرجع جديد في فهم الإسلام

فوق اكتاف هؤلاء جميعا، ممن هاجموا الحضارة الغربية والفكر الغربي جاء جارودي، الذي كان منظراً ماركسيا عالي الدرجة، ليستوعب المفاهيم ويعيد صياغتها من جديد من خلال يقين صادق بان الإسلام هو منقذ البشرية في العصر الحديث.

فهو يجمع بين أمرين انه شاهد سقوط الحضارة الغربية ودليل علىٰ مستقبل البشرية الوحيد في ظل الإسلام ومن خلال مفهوم رجل كان يرىٰ ان الماركسية ربما تعطي العالم شيئا، وقد خاب ظنه فيها، فإذا به يجد في الإسلام ما يحتاج إليه المجتمع الغربي اليوم و تحتاجه الإنسانية دوما.

ومن أبرز ما قرره في هذا بالنسبة للإسلام:

أولاً :قدرة الإسـلام علىٰ الربط بين الوسائل والغايات وهي المهمة الخطيرة التي عجزت عنها الحضارة الغربية وكانت مصدراً للشرخ الشديد الذي أصابها والذي هو موردها مورد الهلكة.

ثانيـــــاً: الاصرار علىٰ البعد الالهي للمجتمعات والحضارات والاقرار بالسلطة العلوية وهو البعد الذي تجاهلته الحضارة الغربية تماما وكان من أسباب عجزها وتمزقها

ويرىٰ جارودي أساسا أن انكار الالوهية هو أكبر محاذير الفكر الغربي والحضارة الغربية وانه هو الخطر الأكبر.

ثالثاً: فكرة الجماعة والعمل الصالح لصالح المجتمع.

رابعاً: جحود الغرب للفكر والتراث الإسلامي وتجاهل الدور الخطير الذي قام به المسلمون في مجال العلوم التجريبية وغيرها.

خامساً: استناداً إلىٰ الوحي القرآني يوجد في الطريق الصحيح للإسلام حلولا للمشاكل التي تعترض الحياة اليوم دون أن نمزج ذلك بتقليد النماذج الامريكية أو السوفيتية أو أن نخلط بين الاتجاه نحو العصرية مع الاتجاه نحو الغرب.

سادساً: إن مفهوم الدولة والحق عند الإسلام عكس مفهوم الدولة والحق عند الرومان ويختلف تعريف الملكية في الإسلام بالنسبة للحقوق ونجد اختلافاً وتميزا عن الحقوق والشرائع الرومانية والربانية كما تختلف مفاهيمها.

فالله وحده هو المالك وإدارة خبرات هذا الكون وظيفة اجتماعية فاستعمال الملكية له أهداف أبعد من الفرد ومن فائدة الفرد الشخصية وهنا يبرز التضاد بين نظرية الفردية ونظرية الجماعية الإسلامية.

وحكم الإسلام يختلف عن حكم الملوك علىٰ أساس

الحق الالهي وكالديمقراطية التي ترتكز في حكمها علىٰ شخص أو حزب واحد ــ وفي ديمقراطية أثينا نحو ٢٠ ألف مواطن بجانبهم أكثر من مائة ألف رقيق محرومين من كل الحقوق وهي ديمقراطية قائمة علىٰ الرق وهي ديمقراطية لاهل الأملاك.

إن الفرق واضح بين الديمقراطية والشورى:

المؤسسات الغربية ومنها مؤسسة الديمقراطية تنبني علىٰ أساس تقديس الفرد وكأنه كل شيء في الكون وهو مصدر القيم، وغاياتها، بينما الشورىٰ الإسلامية مؤسسة فردية اجتماعية في نسيج واحد منسجم متكامل وعندما نستورد المؤسسات الغربية نكون قد قمنا بحقن الإسلام بسم خارجي، فالفردانية التي تحول الفرد إلىٰ مقياس وغاية للقيم هي عملية قتل للروح الجماعية والسمو الروحي الذي يجعل من وجود الإنسان نفسه وسيلة لغاية: هي تحقيق رسالة الهية.

سابعــاً: إن الاقتصاد السياسي الغربي ممثلا في صورتيه البرجوازية والماركسية ليس علما حتى ولو كانت الكتب مفعمة بالمعادلات، وليس الأمر إلا أيدلوجيات وضعت لاثبات مذهب يخفي مسلماته المسبقة (أي تصوره الخاص للإنسان) الاقتصاد السياسي ينظر إلىٰ الإنسان في تصوره له علىٰ انه لا تقوده إلا مصالحة

الشخصية، فهو قائم علىٰ تصور يحط من قيمة الإنسان، ان هذا الإنسان الاقتصادي لا تنظر إليه إلا باعتباره منتجا ومستهلكا وانما هو عكس الإنسان الإسلامي.

بل ان الاقتصاديين الماركسيين لينتقدون العالم البرجوازي لذلك فإن الملكية كما عرفها القانون الروماني تحول للمالك الفردي (حق الانتفاع والمنفعة) بينما الملكية في مفهوم الإسلام هي وظيفة اجتماعية أي أن مصالح الفرد تابعة علىٰ الدوام لمصالح الجماعة، وانطلاقا من المبدأ الأساسي من مبادئ القرآن في المجال الاقتصادي نأخذ (ادانة الربا) بمعنىٰ أوضح ومن العبث أن نمضي بعيدا عن الجدال والاستدلال بحثا عن الفرق بين الفائدة والربا فلا فرق في رأيي، والمهم ان الربا يعكس انحطاطا بقيمة الانسان ويعلي المال عليه ورفض الإسلام لظاهرة الربا هو رفض لاستغلال المال علىٰ الانسان وهو ارتفاع بقيمة الإنسان.

ثامنـــــاً: إن الحضارة الغربية تدعي حصر الحياة في (الضرورة والصدفة) كما يدعي علماء الأحياء أو إلىٰ (لا معقول) أي انعدام المعنى وموت الاله وموت الإنسان وموت كل شئ كما يقول دعاة العدم، ولا توجد حضارة

اغفلت بصورة كلية التساؤل عن معنىٰ الحياة والموت مثلما تفعل الحضارة الغربية الحالية، مما أدىٰ بها خلال خمسة قرون إلىٰ طريق مسدود، سيؤدي إلىٰ انتحار الكون باكمله.

ومن ذلك اخضاع كل حقيقة واقعية إلىٰ المفاهيم الكمية مستبعدة الحب والإيمان والمعنى.

تاسعــاً: إن الغرب في محاولته اعطاء معنىٰ للحياة والتاريخ قد فرق بين العلم والحكمة أي بين الوسائل والغايات، ان المحرك الرئيسي لتطور العلوم والتقنينات في الحضارة الغربية يتمثل في حب الأفراد والامم للقوة والمصلحة المباشرة، فالعلوم في الغرب تهدف إلىٰ سد حاجات هي قاسم مشترك بين الإنسان والحيوان (الغذاء والملبس والدفاع عن النفس والهجوم علىٰ الغير) أما الإسلام فإن تحركه الأساسي يتمثل في البحث عن علاقات وجود الله والاصغاء إلىٰ ندائه والخضوع لارادته.

أما الإسلام فماذا يعطي؟

أمام الافلاس الذي أصاب التمطين الامريكي والسوفيتي وبعد خمسة قرون من هيمنة الغرب المطلقة يمكن للإسلام أن يبعث جذوة الأمل في هذا العالم وذلك ليس بالأمر العسير إذا ما تمكن

من تجاوز الجمود الذي أصابه منذ خمسة قرون والكشف من جديد عن المبادئ التي كانت سببا في عظمته.

إن الإسلام هو تتويج للديانة الابراهيمية التي دعت الإنسان (عبر اليهودية والمسيحية والإسلام) إلىٰ تحقيق غايته الكبرىٰ، وفي مقدور الإسلام مرة ثانية أن يحيي من جديد الأمل في مجتمعاتنا الغربية التي حطمتها الفردية ونموذج النمو الذي يقود العالم إلىٰ الانتحار.

فقد انقذ الإسلام عند مولده العالم من الانحطاط وجاء القرآن معلنا بقوة علو الخالق وتساميه مشيدا نوعا جديدا من الجماعية فاعطى الملايين من البشر وعيا بالبعد الإنساني الحقيقي وبالبعد الرباني وأكسبهم روح حياة جديدة: هذه المساهمة التي قدمها الإسلام من قبل يمكن أن يقدمها اليوم في سبيل مستقبل يتسم بالإنسانية في عالم قضىٰ فيه علىٰ التسامي.

في مثل هذه الظروف يمكن للإسلام أن يقدم للعلم الشئ الذي يفتقر إليه ـ معنىٰ الحياة ـ **فالإسلام لا يقتصر علىٰ ربط العلة بالعلة** بل يرتقي ليرجع كل شئ في النهاية إلىٰ الغاية الكبرىٰ.

في الإسلام يتمثل تحرك العلم في البحث عن علامات وجود الله والاصغاء إلىٰ ندائه والخضوع لارادته ولتنظيم العالم حسب هذا الاتجاه.

وبالتالي لا يكون التسابق بين بني الإنسان لامتلاك العلم والتقنية كوسيلة للسيطرة بل يكون الإنسان خليفة الله في الأرض لانشاء عالم يكون متلائما مع الغاية الالهية.

فالإسلام لا يفرق بين العقيدة والعلم والتقنية بل العكس يوحد بينهما في بنية واحدة متماسكة كما لا يفرق في البحث عن القوانين والأسباب والبحث عن الغايات والمعاني ولا بين القوة التي توفرها لنا التقنية للسيطرة علىٰ الأشياء. ووجوب استعمالها كوسيلة لعبادة الخالق.

إن اضفاء طابع إسلامي علىٰ العلوم يتطلب وضع فلسفة اسلامية حقيقة لا تنحصر كما هو شأن الفلسفة الغربية ـــ في نقص المعرفة وفي تفكير لا يتناول إلا امكاناتها ومناهجها بل يجب أن يتناول غاياتها في المقام الأول والأهداف التي يجب أن تناط بالبحث العلمي لكي يسخر لازدهار الإنسان لا تدميره ان المشكلة تتمثل في ربط العلم الوضعي ـــ الذي هو اكتشاف الوسائل ـــ بالحكمة الالهية التي هي البحث عن الغايات وارتفاع الغايات الدنيا إلىٰ الغايات الأسمىٰ بحيث تفضي إلىٰ الغاية النهائية.

إن خلافة الإنسان في الأرض تعني انه قد آلت إليه إدارة العالم، لكن بحسب تعاليم الخالق ووسيلته في ذلك استخدام العلم الذي يعينه علىٰ البحث عن الأهداف ـــ والغايات الأوربية للعلم اليوم لا تسمح للإنسان بمعرفة الأسباب الأولىٰ للأشياء

وبالتالي لا تمنحنا الشعور بالاعتماد علىٰ الخالق وطاعته، كذٰلك لا تتيح للعقل الفرصة لادراك الهدف الأسمىٰ والقاعدة العليا التي تميز بين الخير والشر، لذلك كان من الضروري أن يضاء الطريق بالنبوة لكل من العقل الذي يبحث عن الأهداف، فالنبوة تمكن الإنسان من استخدام قدراته وتوجهها للقيام بدورة علىٰ أكمل وجه.

إن سيدنا محمد ﷺ لم يكن نبيا فقط ولكن قائد دولة استطاع أن يحقق المبدأين الخالدين لكل مجتمع انساني وهما السمو (أي الإيمان بالقيم المطلقة) المستمد من الإيمان بالله. وروح الجماعة التي تعطي كل مسئول مسئولية شخصية عن مستقبل الاخرين واليوم بعد خمسة قرون من سيطرة الغرب يتعرض للهلاك لانه تناسىٰ هذين المبدأين: الإيمان وروح الجماعة.

ولم يبق أمام البشرية إلا أن تواجه صراعات شتى بين إرادة كل شخص وصراعه لتحقيق مآربه الشخصية.

●●●

وقد حاول جارودي التعريف لدىٰ الغرب بان الإسلام بحق هو الراية الخفاقة التي لا تعلوها راية ولا خلاص للإنسانية إلا بالعودة إلىٰ الإسلام في جوهره وتعاليمه مستعرضا فشل المسيحية اليوم ودعاة الرأسمالية والشيوعية، هذه المذاهب التي ركبت علىٰ انانية الإنسان والفردية والطبقية فما نشأت معه مساوئ اليوم ومجاعة

اليوم (٤٠ مليون يموتون بسبب المجاعة والحرمان) هذه النظم التي قست علىٰ الانسانية وجلبت لها الدماء والفناء وكلما يقوضها الإسلام بمبدئه النير الذي يجعل الملك لله وحده ويجرد الإنسان في انانيته المستفحلة ونزاهيته العمياء.

ويعترف جارودي بفضل الحضارة الإسلامية علىٰ الحضارة المعاصرة علىٰ نحو لم يسبق إليه فهو

(أولا) يعلن أن الحضارة في الغرب لم تبدأ من ايطاليا مع احياء التراث اليوناني والروماني ولكن في أسبانيا مع بدء اشعاع العلوم والثقافة العربية الإسلامية، ولكنه يرىٰ ان هذه الحضارة الغربية لم تأخذ من العلم العربي الإسلامي سوى مناهجه التجريبية وتقنياته تاركة العقيدة التي كانت توجه هذه المناهج والتقنيات إلىٰ الله تعالىٰ ليظل العلم في خدمة البشرية علىٰ الدوام.

(ثانيـــاً)يقرر ان استقبال الشعوب للمسلمين استقبال المحررين لا استقبال المحتلين ففي أسبانيا كان أغلبهم من الفلاحين الذين أثقل كواهلهم الاقطاعيون، (وفي الشام ومصر) كذلك فكل هؤلاء استبشروا خيرا من قدوم المسلمين الذين رفعوا عنهم الاغلال وكسروا عنهم القيود فضلا عن ان الإسلام لم يعمد إلىٰ اغلاق بيع اليهود وكنائس النصارى ولم تغتصب الأرض من الذين يعملون بها بل اكتفى بفرض ضريبة صغيرة عليها وما كان هذا

إلا لأن الإسلام جاء بحضارة سامية ونفس القول ينطبق علىٰ فارس والروم. لقد انتشر الإسلام بقوة العقيدة لا بقوة السلاح وحرر الشعوب المقهورة التي كانت ترزح تحت نظام وطغيان الاقطاعيين رجال الكنيسة المحليين.

(ثالثاً) الإسلام خلافا لكنيسة لا يفرق بين الدين والدنيا وان السياسة هي جزء من الإسلام أو هي الإسلام كله وان الإسلام كان عقل تحرير للشعوب التي فتحها ولحركات التحرير التي شهدتها عدة بلدان.

(رابعاً) العلوم الإسلامية في حدقة الحياة والإنسان لم تكن مستقلة عن الإنسان بل كانت في خدمته وما كان العلماء ليعالجوا نوعا من المعرفة بعزلة عما يعتبره الإسلام هدفا ومعنىٰ للوجود.

(خامساً) إن النظرية الفردية الأوروبية انبثق عنها نزعة عدم الولاء للجماعة ولركائز اسلامه وانبثقت عنه «الملائكية» أي العلمانية التي هي ضد العقيدة، وهكذا فمنطق أوربا لا يصلح مطلقا للعالم الإسلامي والإسلام يتميز ببعدين أساسيين في هذا المضمار في تقويمه لدور الفرد.

(١) السمو بلا حدود (الإيمان).

(٢) الأصل في الحياة الإسلامية ليس للفرد المطلق بل الفرد المنتمي للأمة الإسلامية.

(سادساً) التحديث ضرورة حضارية والتغريب انتحار حضاري

فالتعريب تقليد واستعباد والتحديث تطور مبادئ وثقة حضارية في النفس ومبادرة وقيادة. أما التغريب فهو سم قاتل بينما التحديث بمعنىٰ العودة للسلفية المتفتحة إلىٰ الجذور دون تقليد أو اقتباس في صياغة الحياة، هذه العودة هي الحل الحضاري أمام المسلمين إذا أرادوا أن يكون لهم وجود حقيقي في التاريخ.

(سابعاً) ان نقل التكنولوجيا عن الغرب بطريقة شاملة يؤثر علىٰ صياغة الحياة وهي فكرة قال بها شبجلر وتوينبي، ولكنا نطالب بالانتقاء، لا بد أن تكون لنا تكنولوجيا خاصة بنا.

إن الإسلام قادر علىٰ تمكين الإنسان من اتباع طريقة أصيلة متجهة إلىٰ الله لتطوير وتنمية العلوم والتقنيات والسياسة لصالح الإنسان، ان الإسلام يملك الامكانيات الفعالة والطاقات لايجاد حلول للمشاكل التي نواجهها بشرط ألا نخلط بين الحداثة والتقدم، وبين تقليد الغربيين في علومهم وتقنياتهم، علىٰ المسلمين أن يبنوا تقدمهم علىٰ قيمهم وتاريخهم دون تقليد الغرب بطريقة عمياء وعلىٰ المسلمين أن يجدوا طرقا جديدة للتنمية والتقدم دون تقبل وتقليد وعلينا أن نرجع إلىٰ القرآن الكريم لأنه يحتوي علىٰ كنوز عظيمة لم يكشف النقاب عنها كلها بعد.

إن جاروي وبوكاي والسون وغيرهم هم علامات جديدة علىٰ طريق الإسلام في العقد الأول من القرن الخامس عشر الهجري

وسوف يأتي يوم ينظر إلىٰ هذه الظاهرة بابتسام من أجيالنا القادمة حيث تتسع هذه الدائرة إلىٰ أبعد مدىٰ ولكنا اليوم نقف منها موقف التقدير الكامل فقد كشفنا عن (افاق جديدة للإسلام في الغرب) خلال القرن الرابع عشر ولكن حركة اليقظة ماتزال تكسب كل يوم قلوبا وعقولا جديدة من عقول النوابغ فمن خلال الصراع بين العلم والدين والخلاف بين الدولة والكنيسة ومن خلال مجتمع قائم في ظل الانحلال الخلقي والاباحية المطلقة والأنظمة والأيدلوجيات التي ظهرت كمناهج للحياة نرىٰ هذا الضوء الكاشف بقول جارودي:

(اخترت الإسلام لينقذني من خوفي من ضياعي)

فقد كان معروفا انه أحد طريقين للعالم الذي يكتشف حقيقة الحضارة اما الإسلام واما الانتحار: يقول جاردي:

عندما اخترت الإسلام دينا كنت قد أقمت حوارا لا حدود له مع العقائد الأخرىٰ: المسيحية واليهودية والماركسية وكان هذا خياري الأخير في اليهودية ثمة حاخامات عملوا من أجل تعويض الجانب الالهي وحتىٰ الإنساني في هذه الديانة وتحويلها إلىٰ وسيلة للسيطرة والانكفاء وربما أيضا تحويل الكراهية إلىٰ حالة ايدلوجية، ان الفلسفة الماركسية لا تستطيع أن تفرق بين الشخص الميت والشخص الذي لا يزال علىٰ قيد الحياة ان التاريخ ليس الوسيط الضروري بين الله والإنسان وليس الوسيط الضروري بين الإنسان والطبيعة في الإسلام لا وجود قط لهذه الضرورة اللاغية للفطرة

الانسانية.

إن الدكتور رشاد قطار يصور هذا الموقف أحسن تصوير حين يقول: كان البسطاء يتجهون إلىٰ الإسلام في كل القارات، أما في القرن الهجري الجديد فقد رأيت عباقرة الفكر وفلاسفة الاستكبار والتحدي بدورهم، بدأو يقولون: الإسلام إلىٰ أين وما هو الإسلام؟

إن الإسلام يتحاور الآن مع أقدر العقول في الوقت الذي يتراجع فيه المسلمون لسر يعلمه الله ان الإسلام يتقدم في عصر تراجع المسلمين، هذا شئ لافت للنظر فحال المسلمين كما نشاهد الآن ومع ذلك فالإسلام يتقدم بثبات، لا اعتقد أن هناك دينا مؤهلا ونبوءاته بدأت تظهر الآن، لا اعتقد ان هناك دينا كونيا مؤهلا يتعامل مع الإنسان في الحالة الوضعية غير الإسلام لأن الإسلام لا يصادر العقل ويشجع العلم والابتكار والفنون والمعرفة. الإسلام هو الدين الذي لم ولا يمكن أن يلاحظ فيه شكليا الاله، لأن الاله كامل، الاله شامل، الاله اله كل الأديان نحن في حاجة إلىٰ أن نصدر إلىٰ الغرب المسلم القدوة العملى.

والمعروف بالنسبة للغرب أن يتكيف الدعوة الإسلامية مع معطيات الغرب، فالغرب متعب لعقليته لدرجة أن برتراند رسل يتنبأ بها حين قال: العقل والعقلية دفعت الغرب إلىٰ اللا معقول. وقد أشارت المجلة العلمية أن هناك زحفا غربيا للإسلام، فجارودي يعتبر من عمالقة فلاسفة العصر، كان متربعا علىٰ

كرسي الريادة الكونية في الفلسفة وفجأة سبحان الله اكتشف انه لا شئ مع انه قمة، لماذا، لان الرجل كانت له شجاعة الاعلان على أن المأزق آل به إلى الإسلام.

إن قبول جارودي للإسلام أحدث أزمة بين العمالقة الثلاث:

١ ـ جالوب مورنو انتحر وأبشع انتحار، عالم عظيم رائد المدرسة النفسية الاجتماعية في الولايات المتحدة.

٢ ـ التوسير من قمم فلاسفة المادية والماركسية وصاحب الدفاع المشهور لنظرية بعنوان (من أجل كارل ماركس) منظر عظيم في الغرب وهو صديق لجارودي، قتل زوجته بجانبه في السرير وجاء إلى قصر الأمن ليسلم نفسه وأحيل إلى مستشفى الأمراض العقلية. لقد قادت المسيرة واسمها (موسوعة اليأس) جارودي إلى الإسلام لأن العقل في قمة عطائه الفكري، العقل العربي ويتمتع بسخونة هائلة وتمرد، العقل الغربي تقريبا التقى بتطوريته ووجوديته وضروريته، التقى بالمأزق، الجميع يعلن المأزق، ربما أكثرهم نزاهة هو عميد فلاسفة العصر (هايدي جارون) الفيلسوف الوجودي حينما أصر على أن الطريق لا يؤدي إلى أي مكان وعلى الإنسان وهو في هذا القلق (الذي اسماه ليل أوري) تحدى هذا المفكر ومات وهو في قمة الاعلان عن الافلاس، كما قال سارتر قبل وفاته: ان فلسفتي قادتني إلى هزيمة نكراء لما سئل وهو يحتضر، وسارتر معروف انه رائد

الشباب وطلاب الجامعات، طلب في احتضاره أن يؤتوه بقسيس من قرية، وقال لانني لا أميل أن يأتيني كاردينال لاني اعتقد انه نبي معشوش، أريد قسيسا وجاءوا له بهذا الرجل البسيط ليعطي له الغفران أو الاعتراف وأعلن حينما سئل إلىٰ أين قادتك فلسفتك: قال فلسفتي قادتني في النهاية إلىٰ هزيمة نكراء نعم: لا رجاء إلا في الإسلام.

فلما وصل جارودي إلىٰ المأزق ومعروف انه انسان موهوب ومفكر شجاع، دافع عن الاشتراكية والماركسية بشجاعة فائقة، فحين اكتشف أن القضية (مأزق) وطريق مسدود، أعلن أن لا رجاء إلا في الإسلام ولذلك سمى نفسه رجاء جارودي، أي لا رجاء إلا في الإسلام أ.هـ.

وعن آخر مسلم (ستيف جونسون) (٢٤ ديسمبر ١٩٨٥) الحضارة الغربية ليست ذات معنى وان كان مظهرها الخارجي براق الملامح فهي لا تحمل أية مضامن تنجز وتتيح أعمالا مدنية تكنولوجية، وليس هناك من هدفه تخدمه، باستثناء الربح المادي هذه الحضارة بلا معنىٰ ولذلك نرىٰ تحولا متناميا نحو الإسلام فالإسلام هو الدين الأول الدي يبشر ويمتد هناك واعداد المسلمين في ازدياد.

الباب السادس
ماذا يرىٰ مفكرو الغرب في عقيدتهم

كان دعاة التغريب يحملون في أيديهم وعائين: وعاء ينكر الإسلام جملة ويزدريه ويحاول أن يشبهه بالمسيحية الغربية ويفرض علىٰ أصله مفهوم الملائكية (العلمانية) التي هي اللادينية ووعاء يرفع شأن الحضارة الغربية ويعلي بها ويخلق حولها جوا من الانبهار يملأ به مناهج التعليم والدراسة والصحافة والاعلام كله وذلك في محاولة خطيرة ماكرة لتحطيم النموذج الإسلامي واخفائه والتشكيك في جدواه ومن وراء ذلك قوى كثيرة تعمل في محيطها الخاص ولكنها تجمع في خطة واحدة ضد الإسلام سواء أكانت مسيحية غربية أم ماركسية أم صهيونية (تتداعى عليكم الأمم كتداعي الأكلة إلىٰ قصعتها) كما صورها رسول الله ﷺ ولكن الأمر لم يكن ليمضي فيما يريد هؤلاء تماما ولم تكن خطة التغريب التي رسموها لتستكمل طريقها إلىٰ تصفية قواعد المقاومة الفكرية الإسلامية، فإنها سرعان ما تنادي صوت الحق علىٰ لسان الدعاة بالعودة إلىٰ المنابع حتىٰ بدأ يتغير كل شيء ونشأ جيل جديد يؤمن بالاصالة، واندفعت أقلام الإسلام تكتب في كل الميادين في محاولة لتصحيح المفاهيم ودحض الشبهات ثم كانت الخطة الجديدة في مطالع القرن الخامس عشر الهجري التي ترمي إلىٰ أسلمة العلوم والمناهج والمصطلحات.

وبدأت البلاد العربية والإسلامية تأخذ من نظام الإسلام مادة في دستورها وخطة لتصحيح القانون والتعليم والاقتصاد.

وهناك أحسَّ المتآمرون بان خطتهم تنهار تماما وتتحطم كلية، فكان أن بدأوا يعيدون ترتيب أوراقهم في مخططات جديدة أشد شراسة لمقاومة هذه الصحوة الإسلامية الحقيقية التي امتدت في العالم الإسلامي من اندونيسيا إلىٰ رباط الفتح وادهشهم ان كل ما فعلوه خلال قرن ونصف قرن من الزمن معه محاولة لتغريب هذه الأمة في فكرها ومجتمعها ومن وسائل الغزو المختلفة علىٰ مختلف الجهات قد تساقطت واردت السهام إلىٰ صدور أصحابها علىٰ النحو الذي يكشف عنه هذا البحث حتىٰ جاء رجال من الغرب نفسه يكشفون خطيئة حضارتهم علىٰ النحو الذي فعله جارودي ومن قبله الكثيرون، وكان لابد أن يظهر رجال في المجال الآخر يكشفون تضارب النصوص المقدسة التي احتوتها التوراة والانجيل علىٰ النحو الذي تناهى إلينا من عشرات من رجال اللاهوت وفي مقدمتهم: (موريس دايلز، بينهام، هولدن، جون هيك، دون كيويث) مؤلفو كتاب (أسطورة الاله المتجسد) التي هزت دوائر اللاهوت في الغرب بالاضافة إلىٰ ما كتبه الدكتور موريس بوكاي.

●●●

لقد كانت كتابات هؤلاء العلماء الغربيين خطوة تالية لما كشفه علماء الإسلام من حقائق حول اضطراب النصوص

المقدسة منذ بدأت هذه المراجعة في صدور الإسلام

الجاحظ: في الرد علىٰ النصارىٰ.

ابن حزم: الفصل في الملل والنحل.

الغزالي: الرد الجميل (الهية عيسىٰ بصريح الانجيل).

ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

محمد عبده: الإسلام والنصرانية في العلم والمدنية.

وبالإضافة إلىٰ كتابات ابن الحزم وابن القيم جاءت كتابات العصر الحديث «رحمة الله الهندي» أبو زهرة، أحمد شلبي، كل هذا قد قرأه الباحثون الغربيون واستوعبوه قبل أن يعلنون موقفهم علىٰ النحو الذي سنفصله من بعد، ولكنا هنا بصدد ذلك الشعور الخطير الذي اذهل دوائر الكنيسة عند استعلان الصحوة الإسلامية وهزيمة عشرات النظريات الباطلة التي طرحها الفكر المسيحي إلىٰ جوار نظريات الفكر المادي والماركسي والصهيوني.

كانت الصحوة مصدرًا لحركة خطيرة جديدة ترمي إلىٰ تعزيز المواقع التي اهتزت وكان منطلقها من التبشير الذي اعتمد ملايين جديدة ووسع دائرته وتحرك رأس الكنيسة إلىٰ عشرات المواقع يحاول أن يستعيد ما ضاع منه.

وكان أخطر المواقف ما قامت به الحكومات في أوربا بالنسبة للجاليات الإسلامية التي تجمعت في فرنسا والمانيا وغيرها وأصبحت تقدم صورة الإسلام واقعية لاهل الغرب المتطلعين إلىٰ

أفق جديد يخلصهم من الأزمة المادية التي تحطم معنويات النفس وتوقعهم في الاغتراب والتمزق.

وقد توالت الحملات المسعورة علىٰ المسلمين في الغرب وخاصة من فرنسا حيث دخل الإسلام أكثر من خمسين ألف من كافة الأوساط الاجتماعية مما ألهب مشاعر أعداء الإسلام للتربص ورصد كل صغيرة وكبيرة واثارة الغبار الكثيف من حولها ليشككو الناس في كل شيًء حول هذا الدين الذي يدخله في كل يوم أفواج من الناس، فالكنيسة الكاثوليكية لا تبدي قلقها من هذا الرقم فحسب، بقدر قلقها من عمق إيمانهم والأسباب التي أدت بغالبيتهم إلىٰ ترك أو تجاهل الكاثوليكية والاتجاه نحو الإسلام هذا الدين الذي أصبح يمتد بلا توقف. وقد بلغ هذا التحول حدا جعل كلا من المجلة الكاثوليكية (لاكتوالتيه) وصحيفة لوموند وفرانس لي آراب تخصص عدة مقالات لبحث هذا الأمر فهؤلاء المسلمون الجدد يختلفون تماما عن المسيحيين الذين كانوا يتحولون إلىٰ الإسلام قبل ذلك حيث كانت الهجرة مقصورة أساسا علىٰ العسكريين الذين عاشوا الإسلام خلال حقبة من الوجود الفرنسي في شمال افريقيا أو الشرق الأوسط، وأبرز هؤلاء هيتو خليفة، الجنرال كليبر الذي كان علىٰ رأس الجيش الفرنسي الذي مكث في مصر بعد حملة نابليون أما المجموعة الجديدة فتتألف من المفكرين المستنيرين الذين درسوا النصوص الروحية والفلسفية الإسلامية من أمثال (رينيه جيبون (توفى ١٩٥١) الذي

كتب عن القيم الروحية في الإسلام أما الأشخاص الذين يتحولون إلىٰ الإسلام في فرنسا (التقرير عام ١٩٨٥) فينتمون إلىٰ جركة أكثر انتشاراً فمنهم مفكرون أمثال جارودي وميشيل سود كبونيز (عالم الدراسات الصوفية) وفنانون (موريس بيجار) وموظفون وعمال ممن وجدوا في الإسلام الطمأنينة والتضامن والبساطة والزهد والقناعة والتوجه إلىٰ الله دون وسيط، وفي المقابل لهذا الانتشار تشن الصحف الفرنسية هجوما شديدا علىٰ الاسلام والمسلمين ومن هذه الصحف (باري ماتش) التي تخصصت في هذا الجانب ولوموند التي تخصصت في مهاجمة جارودي وتجريحه وهي حملات وراءها التغلغل الصهيوني في فرنسا وسيطرتهم علىٰ الاعلام الغربي والفرنسي بصفة خاصة وقد هيأت الصهيونية المجتمع في فرنسا لكي يكره ويقاوم كل ما هو عربي أو اسلامي وكل ما هو مسلم وليست حادثة الشاب الجزائري الذي هشموا رأسه والقوة من نافذة القطار بعيدة عن الاذهان، والاعلام اليهودي في فرنسا يسيطر علىٰ كل شئ ويقود حملات الاهالي ضد بناء المساجد في الشارع الذي يسكنونه وقد اتخذ في ذلك اليمينيون واليساريون والشيوعيون والملاحدة بحجة انها ستكون معاقل رجعية، فالإسلام في رأيهم دين عرب ودين عالم ثالث متخلف يزحف وراء البشرية.

ويتحدث مع نيوزويك الامريكية عن أن الصحوة الإسلامية هي نكسة شديدة للفكر الحديث تهدد العالم، ان المسلمين

يشعرون من وجهة نظرهم أن النظام العالمي كما هو موجود اليوم يائس، وان المسلمين يشعرون تجاهه بالاسى وعدم السعادة وتدهش الصحيفة من خطر يهدد العالم علىٰ أيدي المسلمين المتمسكين بما فيها أمريكا وكيف أن ذلك المد الجديد ينذر باكتساح العالم كله.

وتقول الصحيفة: ان مما يجعل للإسلام طبيعة (شريرة)! هو سرعة ومقياس الانتصار الأول الذي قام به مجموعة بسيطة من اتباع الرسول فحطموا الامبراطوريات ووصلوا إلىٰ فرنسا غربا والصين شرقا (وهي دعوى باطلة دحضها المفكرون المسلمون مراراً وتكراراً).

ويتصل بهذا ما أشار إليه الدكتور ادوار سعيد في كتابه (تغطية الاعلام الامريكي للإسلام) بقوله ان وسائل الاعلام وصناع الرأي العام في الولايات المتحدة تعرض الإسلام والثقافة الإسلامية بصورة مشوهة للجمهور الامريكي، وقال انه توجد علاقة عضوية بين التشويه وبين العداء التاريخي الذي يكنه الغرب النصراني للإسلام والمسلمين، ذلك العداء الذي امتد منذ أيام الحروب الصليبية واستمر بشكل أو اخر حتىٰ يومنا هذا.

ومن مؤامرة هذه الخطة ان تربط كل الظواهر والمظاهر السلبية في المجتمعات الإسلامية بالدين الإسلامي في محاولة لايهام الجمهور بان الإسلام هو سبب التخلف الذي يعاني منه الكثير من البلدان الإسلامية كذلك فإن الأبحاث والدراسات المتعلقة

بالإسلام في الولايات المتحدة ماتزال تعاني من التشويه والسطحية وعدم الموضوعية حيث أن التعصب ومنطق النفعية السياسية (البراجماتزم) لاتزالان توجهان وتتحكمان في هذه الدراسات.

ولم يتوقف الأمر عند هذا المخطط الخطير الذي يرمي إلىٰ مقاومة توسع الإسلام ويعمل علىٰ النيل من الصحوة الإسلامية، بل هناك التركيز علىٰ التبشير الذي هو في حقيقته «محاولة بتنصير المسلمين» وقد أعلنت في هذا المجال مخططات كثيرة تركز علىٰ بعض مناطق افريقيا وجنوب شرق آسيا، يقوم بها مؤسسين الفاتيكان ومجلس الكنائس العالمي وقد كانت تعليمات الفاتيكان (سكرتيرية الأديان غير المسيحية) قد أعدت بيانا يتضمن التوجيهات الكنيسة للمبشرين جاء فيها: ليست مهمتكم أن تدخلوا المسلمين في النصرانية فإن ذلك تكريم لهم وانما مهمتكم أن تخرجوا المسلمين من الإسلام ليصبحوا مخلوقات لا صلة لها بالله (تبارك وتعالىٰ) ولا صلة لها بالاخلاق التي تعمد عليها الأمم، وفي العقود الأخيرة عقدت عدة مؤتمرات لوضع خطة التنصير العالمي ففي مؤتمر امريكا الشمالية لتنصير المسلمين (ولاية لولورادو ـــ ١٩٧٨) حيث قدم المؤتمر اربعون بحث تناولت جوانب نظرية ودراسات ميدانية حول جميع أجزاء العالم الإسلامي دون استثناء بما في ذلك الأقليات المسلمة في أوربا وأمريكا وحضر المؤتمر ١٥٠ عضوا يمثلون أنشط العناصر التبشيرية في الجامعات والكنائس والمؤسسات البروتستانية الامريكية الأخرىٰ، وفي هذا

المؤتمر ومؤتمرات أخرىٰ اعتبرت مليارات من الدولارات لتنصير المسلمين وخاصة في اندونيسيا ودول افريقيا كما نشرت اذاعات مختلفة باللغة العربية للتبشير موجهة إلىٰ بلدان المغرب وشمال افريقيا والآف الرسائل البريدية باللغة العربية والفرنسية موجهة إلىٰ شخصيات معروفة ندعوها إلىٰ النصرانية فضلا عن مجلات تصدرها المراكز التبشيرية وترسل إلىٰ مختلف البلاد الإسلامية يتضمن دروسا وآيات من الانجيل وقصص ومحاورات حول الكتاب المقدس وتوزيع نسخ فاخرة من حجم كتاب الجيب وأصغر لانجيل يوحنا فضلا عن لوحات فنية تجسد عقيدة التثليث ويوميات من ورق مزوق من أعلاها آيات من الانجيل.

كل هذا في غارة جديدة علىٰ العالم الإسلامي، فقد أعلنت في السنوات الأخيرة حقائق جديدة منها أن ألف مليون من الدولارات لتحركات البابا، ومليار دولار تنفقها بعثات التبشير لتحويل فقراء المسلمين عن دينهم، وان ٤٥٠٠ شخص قتلهم المبشرون في يوم واحد في اندونيسيا لانهم رفضوا الدخول في المسيحية.

ويقول المبشر الكاثوليكي (جيرويز) ان الإسلام يقف علىٰ أبوابنا من ساحل الشمال الافريقي يواجه أوربا بل يلابسها حقيقة علىٰ طرفي المتوسط عند أعمدة هرقل وفي القسطنطينية، هذه الكتلة الصلبة الممتدة من افريقيا الشمالية إلىٰ غرب ووسط آسيا، انهم كخابور ثابت لا يتململ بفصل الغرب المسيحي عن الوثنية أو الشرق المتخلف.

وتضع الفاتيكان مشروعا يرمي إلىٰ وحدة الكنيسة المسيحية ودمج طوائفها وقد فطنت خطوات منه باعلان تبرئة اليهود من دم المسيح ورفع الحرمان المتبادل بين الكنيسة الكاثوليكية والارثوذكسية والعمل علىٰ نشر المسيحية في العالم أجمع وتلقي الكنائس علىٰ العمل علىٰ تنصير أكبر عدد ممكن من أبناء مختلف الشعوب وتحويل اندونيسيا إلىٰ بلد نصراني في مدة أقصاها ثلاثون عاما.

كذلك فقد غيرت الكنيسة الكاثوليكية موقعها من الماسونية، وكانت الماسونية حركة يهودية هدفها القضاء علىٰ الأديان المسيحية والإسلامية معا تمهيدا لبسط دولة اليهود علىٰ العالم وكان الفلاسفة الملحدون المحاربون للكنيسة علىٰ امتداد التاريخ الأوربي كلهم من الماسون (فولتير وروسو) وكل هذا في محاولة لاحتواء الصحوة الإسلامية ووقف المد الإسلامي المتزايد، فهم يعملون علىٰ مقاومة المفاهيم الصحيحة للإسلام التي تغري مثقفي الغرب في الدخول في الإسلام ومحاولة تشويه الإسلام لدى المسلمين أنفسهم.

ومن ذلك توزيعهم عشرة ملايين نسخة من الانجيل في بلاد المسلمين.

ولم تغب عن المؤسسات الإسلامية خطورة هذه المحاولات والحملات، والأزهر ورابطة العالم الإسلامي، وخاصة استغلال بعض المناطق الإسلامية وما أصابها من فقر وجوع لابعادها عن الإسلام، وما يجري من هذه الحملات ومن عمليات ابادة

المسلمين في الفلبين وغيرها من مواقع الاقليات الإسلامية اضافة إلىٰ عقد المؤتمرات الكنسية في ديار المسلمين، فضلا عن الحملات علىٰ مقررات الإسلام وخاصة تعدد الزوجات.

ومن ذلك مخططهم الذي أطلق عليه اسم (الحوار) المسيحي الإسلامي الذي أريد به أساسا الحصول علىٰ تصريحات من علماء المسلمين يحاولون بها خداع من يرغبون في الدخول في الإسلام بالقول انه ليس هناك بين الإسلام وبين المسيحية إلا خلافات طفيفة.

كل هذه محاولات يراد بها تقليص نمو الإسلام وضرب حركته الزاحفة إلىٰ الغرب بعد ان تهاوت الأيدلوجيات، وتكشف تضليل النظريات البشرية والقروض التي وصفت انها علم والتي حطمتها تحولات الزمن ومتغيرات البيئة غير أن الخطر الأكبر الواضح اليوم هو

«احتواء الصهيونية العالمية للمسيحية الغربية»

من خلال مؤثرات كثيرة منها (الوعد) المدعي لليهود وهو وعد الله لابراهيم ومن صلح من ذريته الذي تحقق فعلا برسالة محمد ﷺ وفي هذا يقول (القرآن):

﴿ أم يحسدون الناس علىٰ ما آتاهم الله من فضله ولقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وابتلاهم ملكا عظيما ﴾

ويتضح هذا الاحتواء اليهودي للمسيحية في الغرب في الوثيقتين الأولىٰ: سنة ١٩٦٠ التي تعلن تبرئة اليهود من دم

المسيح، والوثيقة الثانية (١٩٨٥) التي اعترفت فيها اليهودية للمسيحية وتشير إلىٰ حق لاسرائيل في فلسطين، فضلا عن سماحها للجمع بين الماسونية والمسيحية،

وما قام به اليهود من فتح الكنائس لاقامة حفلات الرقص لجذب الشباب[1]

وما يتجدد من الحديث حول اتجاه الكنيسة الكاثوليكية للاعتراف باسرائيل بعد البيان الذي أصدره من ست نقاط لقضية القدس، وهو بيان لا يتعارض مع المقررات اليهودية والخطوات اليهودية ازاء جعل القدس عاصمة أبدية لاسرائيل، بل ان مشروع البابا يؤكد علىٰ وحدة القدس كما جاء في قرارات اليهود.

ومن هذه الوجهة فإن المسيحية تسير في اتجاه الاذعان للنفوذ اليهودي المسيطر الآن في الغرب علىٰ مقدرات الكنيسة وأموالها في المصارف وفي الحقل الاقتصادي كله.

كما أصدر مجلس الكنائس العالمي الفاتيكان قراراً يناهض قرار الأمم المتحدة الذي يساوي بين الصهيونية والعنصرية.

بل ان هناك ما يسمى (المسيحية اليهودية) علىٰ أساس مفاهيم الكنيسة البروتستانية التي تؤمن بما يسمىٰ الأرض الموعودة والشعب

---

(١) في كنيسة سانت أوجستين القرن من مدينة تولتون البريطانية سمحت الكنيسة لشباب يرقص التويست وجاء شماس انجليزي يرقص مع حسناء شقراء وقد ظهرت دعوة بين المراهقين البريطانيين من الجنسين لانشاء نواد للرقص مفتوحة للجميع (الاهرام ــ ١٩٦٢/١١/٣٠).

المختار، والتي تقوم علىٰ فرضيات صهيونية باقتناع نصراني من غير ضغوط اسرائيلية أو صهيونية ويقوم برنامج الكنيسة الانجيلية علىٰ أساس أن كل نصراني مخلص يجب أن يؤمن بقدوم المسيح الثاني وان أهم اشارة لهذا المجيْ قد هلت حينما أسست دولة اسرائيل وبالتالي فإن دعم وجود اسرائيل هو تأييد وتشريع في قدوم المسيح الخ...

«٣»

«الحوار مؤامرة مسحوقة»

وفي محاولة من محاولات مواجهة الصحوة الإسلامية ومقاومة الصورة الإسلامية الصحيحة التي بدأت تصل إلىٰ الغرب فتؤثر في عقول وقلوب المثقفين بعد ان استطاع النفوذ الأجنبي خلال أكثر من قرن ونصف حجبها وتضليل أهلها أولا عنها وتضليل المتعطشين من الغربيين إليها، ظهرت دعوة الحوار المسيحي الإسلامي التي ترمي إلىٰ تقديم اعترافات هامشية بالخطأ الذي وقع فيه الغربيون والكنيسة في القرون الماضية في مقابل الحصول علىٰ تصريحات من علماء المسلمين تقرر أن الخلاف بين المسيحية والإسلام خلاف اكاديمي في مسائل جانبية وقد تعالت إلىٰ جانب الحوار ما يسمىٰ الدعوة إلىٰ وحدة الأديان وقد افرحت هذه الدعوة الباطلة ما يسمىٰ بجمعية الإسلام والغرب التي تدعو إلىٰ تصفية كتب التاريخ من المعارك التي دارت بين

الإسلام والغرب، كالحروب الصليبية والحملات الاستعمارية الأخيرة وذلك بهدف خلق أجيال متفاهمة وفي محاولة لتحسين صورة الغرب في كتب التاريخ التي تدرس في العالم الإسلامي، ومن هنا طبعا الالتقاء مع اسرائيل علىٰ النحو الذي تحاول أن تقوم به اليوم منظمات معروفة وتجري هذه المحاولات لترد الغرب عن وجهته نحو فهم الإسلام والتعرف عليه، بعد ان تعالت الصيحات بانه هو الأمل الوحيد في انقاذ البشرية، وقد كشف علماء الإسلام في عديد من المؤتمرات لدعاة الحوار، خطر توغل التبشير الصليبي الغربي في نفس الوقت الذي يجري فيه هذا التقارب مما يوحي بتناقض شديد وان علىٰ الغرب إذا كان صادقا ومخلصا في التحاور أن يوقف عمليات التنصير المبثوثة الآن في عدة أماكن من العالم الإسلامي.

أما جمعية الإسلاميين والغرب فانها عمل مريب عرفه كل من اتصل به من ذوي الفكر السليم ويقول الدكتور أحمد فتحي سرور عميد كلية بجامعة القاهرة انه لاحظ أن هناك أهداف خفية فيها منها (١) استنزاف بعض الموارد العربية تحت ستار الدعوة إلىٰ الإسلام لتمويل مشروعات غربية يزج فيها باسم الإسلام لحمل الدول علىٰ التبرع.

(٢) اقامة علاقة وثيقة في العادات الإسلامية والشخصيات العربية لاقامة حوار لصالح الغرب لا لصالح الإسلام.

(٣) محاولة اقناع المسلمين ببعض الأقطار، لتحويل المفاهيم

الإسلامية وتكيفها تحت ستار تفاهم أفضل بين الإسلام والغرب.
(٤) محاولة اقامة حوار (يهودي ــ اسلامي) في اطار هذا التنظيم
وقال الدكتور فتحي سرور: انهم يضحكون علينا كإننا قوم بله، وان علينا أن نفهم حقيقة ما يدور حولنا.

(٤)
شرخ في جدار المسيحية

هذا ومما ضاعف الاجتياح الغربي المسيحي في العالم الإسلامي ما أصاب الفكر المسيحي نفسه في السنوات الأخيرة من تمزق، فقد اتفق سبعون لاهوتيا نصرانيا ممن اشتركوا في كتابه مقدمة الترجمة الجديدة للاناجيل علىٰ وجود أباطيل كثيرة في نصوص الكتاب المقدس كما اعترف بها المجمع المسكوني الذي عقد ١٩٦٥ أما بالنسبة للتوراة فقد صرحوا بان العهد القديم يحتوي علىٰ كثير من الشوائب وسكتوا عن النقود الموجهة إلىٰ الأناجيل وهي كثيرة وخطيرة.

وهكذا تأكدت ظاهرة اهتزاز المعتقدات النصرانية بخاصة واليهودية بعامة نتيجة الدراسات التي قام بها لفيف من باحثيهم ومفكريهم حول نصوص الكتاب المقدس لديهم (التوراة والانجيل) وقد كشفت تلك الدراسات عن كثير من الزيف والأباطيل التي ألحقت بنصوص الكتاب المقدس، وأبرزها: ان هناك جهداً

بشرياً ضخما قد أضيف إلىٰ نصوص التوراة وملحقاتها وكان مارثن لوثر قد أعلن من قبل [ان الإيمان بالكتاب المقدس والعقل أمر مستحيل] وقد انتهى عدد من الباحثين اللاهوت من انه لا يمكن الاعتقاد بان الاناجيل الأربعة تصوّر الحياة الحقيقية للمسيح عليه السلام، مع الجهل التام المتعلق بمصادها وحقيقة واضعيها وقد ارجعوها إلىٰ الرواية الشفوية غير الموثقة.

وساعدهم علىٰ هذا الاعتقاد الاختلاف والتناقض الشديد بين روايات واضعيها وخاصة رواية نسب المسيح بين كل من لوقا ومرقص ورواية القبض عليه ومسألة تحول دم المسيح إلىٰ خمر، ولحمه إلىٰ فطير في العشاء الرباني وهو من أبرز أسرار الكنيسة ورواية الاجتماع الاخير بين تلاميذه قبل محاولة القبض عليه ورواية قيامه من القبر بعد صلبه (في اعتقادهم) أما نحن المسلمون فنقر انه لم يقتل ولم يصلب ولكن شبه لهم.

وتتحدث أبحاث ضافية عن العجز الذي أصاب الكنائس في العقدين الأخيرين وفشلها في اكتساب اتباع جدد بل حتى الاحتفاظ بالاتباع القدامى مما انعكس بشكل واضح علىٰ عمليات بيع الكنائس التي شهدتها أوربا وأمريكا.

وفي احصائيات صدرت سنة ١٩٨٠ عن الكنيسة الكاثوليكية تصور الانحسار الرهيب في عدد الذين يرغبون من الأوربيين في تكريس أنفسهم تلامذة للمسيح مما يشير إلىٰ انه في عام ٢٠٠٠ قد يشهد وجود كنائس بدون كهنة لذلك كان هم

البابا الأكبر اجتذاب الشباب إلىٰ السلك الكهنوتي وقد كشف النقاب عن عدد من رسائله السرية إلىٰ المراكز الكاثوليكية في العالم يدعوها لتكثيف الجهود لمواجهة الوثبة التكنولوجية التي تحاول تدمير الحياة الدينية، وتصرف الشباب عن الانخراط في سلك الكهنوت.

ويتعرض الدكتور موريس بوكاي لقصة الشك في الكتب المقدسة فيقول: ان الشعور الديني في الغرب تحت التأثير السائد في اليهودية والمسيحية ليشهد اليوم انحساراً كبيرا، والترجمة المادية لهذا الهبوط قابلة للقياس بمنطلق الدقة فتجدها ممثلة في هبوط الاتجاهات أو الميول الدينية عند الشباب.

في فرنسا ١٩٦٥ ما يقرب من ٣٦ ألف قسيس، في ١٩٦٧ بلغوا ٤٨٩ ومن ذلك العام أخذ العدد ينخفض مضطردا ليصلوا ١٩٧٦ إلىٰ ١٣٩ وفي عام ١٩٧٧ بلغوا ٩٩ وسيصل عدد الطلبة المسجلين في المدارس الاكليريكية في السنوات القادمة إلىٰ مائة.

ما هي الأسباب للنفور في الحياة الدينية في البلاد المسيحية: هي فقدان الثقة في الكتب التوراتية. وقد ظهرت بحوث في مجمع الفاتيكان ابتداء من عام ١٩٧٠ من انتاج لاهوتيين مسيحيين قام هؤلاء بدراسة دقيقة للنصوص مستعملين كل العناصر التي تمنحها لهم المعرفة العصرية في مجال علم اللغة وعلم الآثار والتاريخ فقد أصبح الناس يسلمون بأن الأناجيل الشرعية الأربعة ليست

سوى ترجمة لما كانت تعتقده في (عيسىٰ) جماعات مختلفة لا تتفق فيه علىٰ رأي واحد ان شروح الترجمة المسكونية الأخيرة للتوراة (العهد الجديد ــ ١٩٧٢) هي عمل اشترك في انتاجه أكثر من مائة اختصاصي من الكاثوليك والبروتستانت يصرح بذلك دون أدنى التباس أو غموض مجمع الفاتيكان الثاني الذي أكد في التصريح المجمعي له (رقم ٤) ان هذه الكتب تتضمن نقصا بل حتى باطلاً.

وتبين الأعمال الحديثة انه من المشروع تقييم الانجيل مثل هذه التقييمات فكيف تتصوروا هذه الأناجيل لا تصل إلينا الحقيقة التي أوصى بها الله عندما اتخذ منها مقاطع لا يقبلها العقل اطلاقا، مثل ذلك هذه السلاسل من نسب عيسىٰ التي هي تلفيقات خيال (لوقا ومتى) المتقدمين لنا قوائم لاجداد مختلفة وينسب لوقا لعيسىٰ منذ آدم خمسة وسبعين جدا. ان ما نعرف من الحد الأدنىٰ لتقدم الإنسان علىٰ وجه البسيطة ليجعل مثل هذا القول في عصرنا أمراً غير مقبول، فكيف يلقن الله للناس مالا يطابق الواقع.

(ثانيــــاً) تناقضات بين قصص الخوخة المعجزة

قال لوقا: انها حدثت في زمن عيسىٰ وقال يوحنا انها ستحدث عندما يبعث عيسىٰ من جديد.

(ثالثــــاً) يوحنا ينسى أن يصف مؤسسه سراتوبان المقدس كما فعل مرقص ولوقا ومتى، أثناء وجبة الغداء الأخيرة التي

تناولها عيسى مع الحواريين وكيف يلاحظ أن الانجيلين الثلاثة (مرقص ولوقا ومتى) لا يذكرون وصية عيسى الطويلة جدا وهو موضوع مقاطع طويلة من انجيل يوحنا. هذه التناقضات درسها الخبراء المسيحيون وبينوا ان صناعات متتالية لنصوص انجيلية قد لفقت انطلاقا من روايات سمعية عن عيسىٰ كانت ذائعة لدى الجماعات المسيحية الأولية وان ذلك كله أفضى إلىٰ الأناجيل الحالية، وهكذا يقوم الدليل القاطع على تلاعب الرجال بالمعلومات الأولية بهدف انتاج نصوص مكتوبة للمناسبة أو للنضال كما وصفها الأب «.. معهد باريس الكاثوليكي لانها كانت نتيجة لصراعات بين جماعات متنافسة تسعى كل واحدة منها إلىٰ انقاذ نظراتها الخاصة.

وفي ناحية أخرى يقدم الدكتور مورس بوكاي قرار اللاهوتيون البريطانيون السبعة بما فيهم رئيس كنيسة انجلترا، الذين نشروا نتائج أعمالهم ١٩٧٧ تحت عنوان: «وهم الاله المجسم» وهو عبارة عن منازعة حقيقية لفكرة التثليث.

وقد أشار تقريرهم إلىٰ:

أولاً: تناقض قصص العهد القديم

كقصة الخلق والطوفان: وكلاهما لا يتفق مع المعلومات

الحديثة عن تكوين العالم أو معطيات التاريخ، وكيف يمكن الأخذ بنصوصها طالما أن تلاعب الناس بنصوصها خلال العصور بات أمراً واضحاً للغاية، فقد أدت المعارف العصرية والمتنوعة والمطبقة علىٰ دراسة النصوص بالأفكار الموضوعية إلىٰ عدم منح التوراة تلك الاصالة التي كانت تضفي عليها ودون برهان أو دليل في القرون الماضية وقد أدت المعارف العصرية والاستعانة في دراسة التوراة بالمعطيات المفيدة لهذا البحث في الغرب إلىٰ تغيير المفاهيم التي كانت إلىٰ ذلك الحين مفاهيم تقليدية ومسلما بها دون مناقشة، ذلك أن العقول المضطربة بفعل الاكتشافات التي أدت إلىٰ التشكيك في أصالة مجموع الكتب اليهودية والمسيحية بواسطة معلومات عصرية تؤدي إلىٰ رفض الإيمان بالله.

وقبل أن أعرف بزمن طويل ما يمكن أن يقودني إلىٰ دراسة الإسلام كنت دائم الاعتقاد ان المعرفة العلمية مهما كانت — ومهما قبل فيها — كفيلة جدا بان تقود إلىٰ التفكير في وجود الله.

ومن يوم أن شرعت في دراسة القرآن الكريم وجدت هذا التوافق بين الدين والعلم في تفكير يقوم أساساً علىٰ معطيات مادية، وجدت في قراءة القرآن تجسيداً جديداً لهذا التوافق بين الدين والعلم، هذا التوافق الذي كان يمكن لدراسة النصوص التوراتية من حيث المنطق أن يصرفني عنه.

«تطبيق مكتسبات العلم علىٰ الكتاب المقدس»

إن دراسته موضوعية لنص قرآني علىٰ ضوء المعارف العصرية قد جعلتني اكتشف ان دراسة موضوعية لنص قرآني علىٰ ضوء المعارف العصرية قد جعلتني اكتشف ما يتفق بظواهر طبيعة عديدة لا يمكن أن ننسبها إلىٰ إنسان نظراً لما نعرفه من تاريخ العلوم، فقد تبين أن دراسة القرآن علىٰ ضوء المعارف العصرية يقود إلىٰ اكتشاف كلام قرآني سابق لزمانه مما يزيد علىٰ ألف سنة. ان ما نعرفه عن تاريخ العلوم ليجعل من المستحيل أن يكون انسان ما قبل نحو أربع عشر قرنا هو قائله، وحيث أن القرآن يضع أمام تفكيرنا تأكيدات تمثل تحديا للتفسير البشري فإنه يبدو ان كل تناقض بين الدين والعلم قد أبطله هو بالذات.

وحين نتأمل الحديث النبوي: (اطلب العلم من المهد إلىٰ اللحد) و (اطلب العلم ولو في الصين) بهذا نفسر دون صعوبة ذلك التقدم العلمي العجيب الذي شهده العالم الإسلامي فيما بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر الميلادي، بينما لم نجد لدى البلدان المسيحية سوى التقليد المطلق مع المدرسة اللاهوتية السائدة وركود المعرفة، وفي عهد قرطبة الزاهر، كان الناس في مختلف بلدان أوربا يؤمون جامعتها الشهيرة للتذود من العلوم العربية والاغريقية والهندية والفارسية.

ثانيـــاً :ان النص القرآني الموجود الآن بين أيدينا ، هو عينه الذي كان متداولا في فجر الإسلام ، فهذا اليقين شرط أساسي لصحة المقابلة بين نص القرآن والمعارف العصرية .

ثالثـــاً :هناك عنصر هام يكمن في المقارنة بين نصوص القرآن ونصوص التوراة فيما يتعلق بالخلق علىٰ ضوء التصورات العامة الحديثة عن خلق القرآن وتصوره ، فنحن لا نجد في القرآن ما نجده في التوراة من أخطاء وهي ملاحظة تقضي نهائيا علىٰ الفرضية التي سبقت أن أبديت في الغرب ودون حجة والتي مفادها أن ما في القرآن يكون قد نقله انسان ما في التوراة .

رابعــاً : كل المعلومات التي قدمها القرآن عن الأرض ولاسيما دورة الماء في الطبيعة وعن مفاهيم تهم العلوم الطبيعية وتوالد البشر ، كل هذه الآيات تفرض القول علىٰ كل انسان موضوعي صادق النية انه يستحيل علىٰ انسان كان يعيش في العصر الذي نزل فيه القرآن أن يعبر بمثل هذا الكلام من تلقاء نفسه .

خامساً : بالمقارنة بين نصوص قرآنية ونصوص توراتية : (الخلق ، الطوفان ، خروج موسىٰ من مصر) تبين سلامة القرآن ، بالنسبة للطوفان حددت التوراة زمانه في عصر لم تحصل فيه أية كارثة كونية لاسباب تاريخية باتت معروفة جدا

في عصرنا الحديث، في حين أن القصة التي أوردها القرآن للطوفان بوصفه عقابا سلطه الله علىٰ شعب نوح بسبب كفره، لم يحدد له زمان، قصة لا يرقى إليها أي نقد من هذه الوجهة.

فهل استطاع الناس فيما بين الحقبة التي وضعت فيها قصة التوراة والعصر الذي أوحى فيه القرآن إلىٰ المعرفة الانسانية أن يحصلوا علىٰ معارف عصرية في هذا الموضوع، من المؤكد انهم لم يحصلوا علىٰ شيء من ذلك فكيف يتسنىٰ لرجل ـــ أن صح انه هو الصانع للقرآن أن يستفيد منه كل مالا يقبله العقل في العصر الحديث وان لا يعتمد من الأحداث والأخبار إلا ما يرتفع عن كل نقد من الوجهة العلمية،

وكما تصدق هذه الفكرة مع قصة الطوفان تصدق أيضاً علىٰ ما جاء في القرآن بصدد موضوعات أخرىٰ، لا مناص من التسليم هنا بتفسير آخر غير التفسير البشري ولا يمكن إلّا أن يكون «وحياً من عند الله» جاء لتصحيح ما اقترفه الناس من أخطاء في صياغة الكتب السماوية.

سادساً: تعارض صارخ بين التوراة «العهد القديم، والعهد الجديد» بين مقاطع نصوصها وبين المعارف الحديثة علىٰ أن ما يجري مجرى اليقين منذ ان حصلت لنا مفاهيم كانت إلىٰ ذلك الحين تعوزنا عن أصول

ونصوص التوراة وعن صياغتها التحررية وبلوغها إلينا ، وهو أن دور التلاعبات البشرية بها دور كبير جدا وان كثيرا من النصوص هي كتابات المناسبة الظرفية مثل قصة التكوين الكهنوتية . في هذه الظروف نميز حالات عدم التوافق مع المعارف العصرية تفسيرها الكامل .

أما القرآن : فإنه لا يتضمن شيئا مما يمكن للعلم أن يرفضه لأن كلامه وقائع ثابتة مؤكدة ، وغير قابلة للتغيير ، كما أن عدداً من المعلومات الواردة فيه لا يمكن فهمها إلا في عصرنا هذا ، اذن فالمقابلة هنا بين الكتاب المقدس والعلم تتراءى لنا بوجه آخر فلم يعد هناك مجال للفصل بين الاثنين .

ان اشتمال القرآن علىٰ جميع هذه العناصر التي هي من الوقائع الراهنة والتي أخذت في هذا القرن العشرين بفضل المعارف الحديثة بعدا كان مجهولا إلىٰ ذلك الحين لتحملنا إلىٰ التدبر في هذه الآية الكريمة :

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

«القرآن لما يعرف به موريس بوكاي»

قال الدكتور بوكاي في رده علىٰ القس «ريناس» الفرنسي حين ادعى أن القرآن العظيم خلو من البلاغة وقليل الفصاحة.

قال: لقد قلقت نفسي واضطربت حواسي لقول المسيو ريناس أن القرآن غير فصيح وغير بليغ، إذ لو جاز لامرئ غير مسلم أن يرتاب في صدق القرآن وصحة دعواه فلا يجوز له أبداً أن يرتاب في صحة عباراته وكونه في الذروة والسنام من الفصاحة والبلاغة.

والبلاغة ومن لم يسلم بهذا كان مخطئا بل متهما في اخلاصه وان شئت قلت في عقله ان كان للقرآن صفة لا يشونها نقص فهي الفصاحة والبلاغة المعجزتان وان كان له ميزة عظيمة يفتخر بها مئات الملايين من البشر فهي استعلاؤه علىٰ سائر الكتب السماوية من حيث بلاغة مبانيه وكمال معانيه بل لنا أن نقول أن القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الأزلية لبني البشر فهو قد تضمن أناشيد لاسعادهم خيراً من أناشيد فلسفة اليونان وقد استوعب بين دفتيه الثناء علىٰ مبدع السموات والأرض وتمجيد الله الذي أعطىٰ كل شئ خلقة وهدى كل شئ إلىٰ ما يطمح إليه استعداده. ان القرآن بمناسبة ندوة علمية للعلماء ومعجم لغة للغوية واجرومية نحو لمن أراد تقويم لسانه، وكتاب وعروض لمحب الشعر وتهذيب العواطف ودائرة معارف عامة للشرائع والقوانين

وكل كتاب سماوي جاء قبله لا يساوي أدنىٰ سورة من سوره في حسن المعاني وانسجام الألفاظ وقد وجد المسلمون في كتابهم غنية عن كل كتاب وفي فصاحته وبلاغته كفاية عن كل فصاحة وبلاغة في سواه.

إن مزايا القرآن الأولية واركانه الأساسية انما هي عن صحته وحقيقة معانيه ومن انه كتاب لا ريب فيه وان الاحساسات الصادقة الشريفة والنوايا الكريمة تظهر في فضل القرآن والفضل الذي هو أول فضل وآخر فضل وجد في كتاب يأتي منه جميع الفضائل علىٰ اختلافها.

ويقدم بوكاي مجموعة من الحقائق:

(١) ان كتب المسحيين واليهود المقدسة المعروفة في الشرق بالتوراة والانجيل لا تعارض من حيث صحتها بالقرآن، فالقرآن حفظه القراء في صدورهم كما أنزل علىٰ محمد ﷺ ودونت آياته في عهد الرسول متفرقة ثم جمعت في عهود خلفائه ودونت فلا يستطيع أحد أن يشكك في نص من نصوص القرآن فهو حقا الكتاب المنزل من السماء، أما التوراة والانجيل فليسا بمنزلة القرآن من حيث الصحة التامة وربما أمكن أن تشبههما تجوزا بالأحاديث المروية عن النبي في الأمور الدينية ومنها أحاديث صحيحة وموضوعة وأحاديث أدخل عليها الرواة شيئا من التحريف ولكن رؤساء الكنائس حملوا الناس علىٰ تصديقها كلها وعلىٰ عدم التمييز بينها من حيث الصحة.

(٢) وفي التوراة فصول كثيرة يمجها الذوق وأخبار عن حوادث كونية أظهر العلم بطلانها والأخبار العلمية قليلة في التوراة والانجيل ولكنها غير قليلة في القرآن وكل ما جاء به القرآن من هذه الأخبار ثبتت صحته.

فاليهود يقولون أن آدم «أول رجل ظهر في الكون» قد هبط.. ووصل الأرض منذ ٥٧٣٨ بينما تظهر الكشوف العلمية الثابتة خلافا لذلك ان هذا التاريخ بعيداً جداً عن الحقيقة فالإنسان وجد قبل ذلك... بوقت طويل.

أما القرآن فإنه لم يحدد تاريخا لخلق آدم.

(٣) بمناسبة مرور مائة عام علىٰ وفاة دارون فانا مخالف للدارونية ان ما قاله دارون خطأ في خطأ فهو لم يؤسس نظرياته علىٰ أية اكتشافات تؤكد أن هناك صلة بين الإنسان والسلالات التي ابتدعها، انها افتراضات خاطئة تبناها رجل يؤمن بالمادية، بل ويعلم دارون انه علىٰ خطأ وان كثيراً من العلماء من ممثلي المادية افترضوا أشياء كثيرة وهي في جملتها خطأ وهم يعرفون ذلك ولكنهم فعلوا ذلك لانهم ماديون وقد انتقدت موقف بعض العلماء في هذا الاطار ومنهم من يحمل جائزة نوبل، بل لقد زرت شمال افريقيا وغرب افريقيا قبل فترة والقيت عشرات المحاضرات حول أصل الإنسان والقرآن والانجيل والعلم، ففي دكار مثلا كان يأتيني بعد كل محاضرة عشرات الطلاب يحدثونني لأنهم عرفوا أشياء جديدة كثيرة جعلتهم يؤمنون بكل ما ورد في القرآن فيما

يختص بأصل الإنسان والعلوم بصفة عامة وبعضهم اعترف لي بانه كان مترددًا مهتزا في إيمانه وانه الآن آمن وأيقن وبدأ يصلي بقلب مطمئن، كل ذلك بسبب المعلومات الخاطئة التي قدمها لهم بعض العلماء وحسبها كل من قرأها انها حقائق لا تقبل الشك وفي كتابي (أصل الإنسان): حاولت أن أبين في عبارات مبسطة ما يعتبره العلم مؤكداً وموثوق وما يراه محتملاً وتحدثت أيضاً عن الأيدلوجيات التي... ووقف من ورائها العلماء والتي تفقد الأرضية الأساسية التي تقف عليها، فعند نشر دارون كتابه «أصل الأنواع» عام ١٨٥٩ وأشار إلىٰ أن الحيوانات بإمكانها أن تنشأ بين الأنواع، ولم يذهب بالدليل العلمي إلىٰ أن الإنسان ينتسب إلىٰ القرود ولكن هناك آخرين هم الذين حرفوا كلماته ووضعوا كلمات علىٰ قمه دون ان يعترض علىٰ ذلك مدعين بان أصل الإنسان قرد وكان هناك مناقشة شهيرة في انجلترا بين الأساقفة ومؤيدي دارون كلٌ يوجّه الإساءة إلىٰ الآخر وبالنظر إلىٰ مثل هذا السؤال فيجب أن يفرق بين ما يقوله العلم حقيقة وبين ما ينشره الأيدلوجيات بواسطة بعض العلماء.

بين الكتاب المقدس والقرآن الكريم

وقد قارن الدكتور بوكاي بين مضامين الكتاب المقدس ومضامين القرآن فقال:

أما الكتاب المقدس لغير المسلمين فقد كتب بواسطة أفراد في

فترات متفاوتة والمثال الأول لنزول الوحي السماوي والذي نجد له أثراً في كتب الأديان السماوية هو كتاب العهد القديم (يهوا) والذي كتب بين القرنين التاسع والعاشر قبل الميلاد وكما هو معلوم اليوم فإن هذا الكتاب قصير جدا ولا ندري انه كان في زمن مضى كتابا مكتملا أكثر من هذا، ثم وفي خلال القرن السادس قبل الميلاد ظهر كتاب العهد القديم والخاص بصلاحيات الرهبان (ساكردونال) والذي يعتبر في بداية كل الأناجيل الموجودة اليوم، وهذا يروي قصة خلق الكون وظهور الإنسان علىٰ الأرض والأحداث التي تبرمت هذا ومع المسيحية جاءت الأناجيل ولكن في مسألة خلق الإنسان فإن كتاب العهد الجديد أشار إلىٰ القليل جدا وليس أكثر من ترديد عناصر العهد القديم (كما في انجيل «سبينت لوك» وبعد ان ظهر الوحي القرآني، وقد أعطي مقداراً معتبراً من التفاصيل ذات الأهمية الكبيرة حول الإنسان مما لا نجده في كتابي العهد القديم أو الجديد، وأكثر من هذا فإن القرآن لا يحتوي علىٰ أخطاء كالتي نجدها في الإنجيل وترجع أخطاء الكتب المقدسة إلىٰ أن من كتبها بالهام كما يدعون ــ كتبوها بعبارات تعكس المفهوم السائد في أزمانهم،

انهم عبروا عن الخلق والخليقة كتعاليم الهية حسب مفهوم زمانهم والتقاليد والأساطير آنذاك وكل المفسرين من الكاثوليك والبروتستانت يتفقون علىٰ هذا وقد أقرت الكنيسة هذا فلما قال مؤتمر الفاتيكان الثاني في اعلانه حول الوحي الالهي بكتابي العهد

القديم والجديد قال:
بعض الأناجيل تحتوي علىٰ النواقص وما عفىٰ عليه الزمن.

أما القرآن:

فإن المفسرين المسلمين يخبروننا بانه كلمة الله أظهرها علىٰ نبيه محمد ﷺ بواسطة الملك جبريل، وبعد ان درسته لم أجد فيه أية مغالطات علمية، وما به من معارف هي فوق مستوىٰ الإنسان الذي عاش قبل أربعة عشر قرنا مضت مما يؤكد انه وحي من الله، وليس بمقدور انسان في ذلك الوقت حتىٰ لو كان عبقري زمانه واعلم علماء عصره أن يأتي بمثل ما أتى به القرآن من حقائق علمية تتوافق والنتائج العلمية التي اثبتها العلم الحديث، وانه لشئ غير المتوافق هو ما آتى به الإنجيل حول الفكرة القائلة بان الأنواع ثابتة لم تتطور قط، ولكن القرآن تحدث عن تحولات الإنسان عبر العصور.

«اسطورة الإله المتجسّد»

ولم يتوقف الأمر في تقرير أمر عقيدة الضرب عندما كتبه هؤلاء العلماء من رجال اللاهوت، وما كتبه بوكاي بشأن الأناجيل ونظرية دارون ولكن هناك أيضا تلك الدراسة الخطيرة التي ظهرت في السنوات الأخيرة تحت عنوان: «أسطورة الإله المتجسد».

والتي كتبها عدد من المتخصصين في علم اللاهوت من أشهر الجامعات البريطانية والذي ظهر أول مرة ١٩٧٧ وأعيد طبعه

للمرة السادسة ١٩٨١.

حيث يعالج عقيدة التثليث المحرفة ويركز علىٰ ما يترتب علىٰ الزعم بان علىٰ عيسىٰ السلام اله متجسد ـــ أي أن الله ـــ جل وعلا عما يقولون علوا كبيرا ـــ قد تجسد فيه وقد اثار الكتاب عاصفة من الجدل العقائدي لم تعرف لها بريطانيا مثالاً وطالب مجلس الكنيسة الانجليزية أن يستقيل معظم مؤلفي الكتاب من مناصبهم الدينية إذ يفهم من نقدهم لـ (عقيدة التجسد) انهم قد خرجوا عن المسيحية.

ويقول الدكتور أحمد عبدالحميد غراب في عرض ضاف للكتاب أن أهم العوامل في الاقبال علىٰ الكتاب هو استعمال كلمة اسطورة (Myth) التي معناها في اللغة الانجليزية كلمة (خرافة) فيما يصل إلىٰ القول بان عقيدة التجسد المسيحية إنما هي خرافة لا تتفق مع الحق ولا يصدقها العقل بل هي فكرة مضللة للناس ويطالب الباحثون بالتخلص من (عقيدة التجسد) لانها ليست حقيقة ويستوي بعد ذلك أن تعتبر خرافة أو تؤول علىٰ انها نوع من الرمز أو المجاز ويتضح أن الشك في العقيدة المسيحية المحرفة التي تزعم تأليه المسيح هو شك أخذ ينتشر في السنوات الأخيرة بين المسيحيين الغربيين حتىٰ المتدينين منهم، لذلك كانوا ولا يزالون يتلهفون علىٰ أن يجدوا من يعبر عن الشكوك التي تختلج في نفوسهم حول المسيحية.

أما العلماء الذين اشتركوا في تأليف الكتاب فهم من

الشخصيات البارزة الرفيعة في مجال اللاهوت:

دكتور موريس ويلز: رئيس أهم لجان الكنيسة وهي لجنة العقيدة.

دكتور تسيفهام: أستاذ اللاهوت في جامعة كمبردج.

دكتور هولدن: عميد كلية يدون المتخصصة في الدراسات اللاهوتية.

دكتور جون هيك: جامعة برمنجهام «المحرر العام للكتاب».

دكتور دون كيوبيت: أستاذ اللاهوت بجامعة كمبرهج.

وقد قررت ندوة عقدت بعد صدور الكتاب ما يلي:

أولاً : إن ما كتبوه يؤدي إلى تمزيق المسيحية تمزيقا تدريجيا من جميع جوانبها ومصادرها وعقائدها ولا سيما فيما يتصل بصحة الأناجيل والوهية المسيح.

ثانيـــاً : انهم أنكروا حقيقة (التجسد) أي أنكروا عقيدة من العقائد الأساسية في الديانة المسيحية فهي القاعدة التي ينبني عليها الإيمان المسيحي ويتفرع عنها علم اللاهوت.

ثالثـــاً : انهم خالفوا العقائد الرئيسية كما اتفق عليها مجمع (خلقيدونية) الذي عقد ٤٥١ م وقرر أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين: انسانية والهية.

رابعـــاً : انهم أخرجوا للناس مسيحية غير المسيحية التي مش المسيحيون جميعا.

[المسيح بشر رسول]

أشار البحث إلىٰ أن المسيحية تعرضت خلال تاريخها الطويل للنمو والتغيير المستمر وبخاصة في عقائدها، ولذلك فقد تعرض علم اللاهوت فيها إلىٰ تطورات عديدة نشأت نتيجة أن الكنيسة قد مرت بفترات تاريخية منوعة واستجابت لظروف ثقافية شديدة الاختلاف.

وفي القرن «١٩» واستجابة لتقدم المعرفة الإنسانية بوجه عام وتقدم العلوم بوجه خاص «تأقلمت المسيحية» الغربية فقبلت مبدأين جديدين عليها كل... هما:

أولاً :إن الإنسان جزء من الطبيعة أي أن الإنسان نشأ في اطار التطور لاشكال الحياة علىٰ الأرض «وقبول هذا المبدأ يدل علىٰ قبول المسيحية الحديثة لنظرية دارون في التطور، وبالرغم من ان هذه النظرية تناقض عقيدة خلق الله للإنسان فإنها تختلف اختلافاً جوهرياً «لسبب ما نفخ الله فيه من روحه» عن الحيوان وعن المادة.

ثانيـــاً: ان العهد الجديد «الذي بدأ بالأناجيل الأربعة» فقد الفه بشر مختلفون في ظروف مختلفة عن زمن المسيح عليه السلام ومن ثُم فلا يمكن أن يضفي عليه حجية الوحي الالهي، ولم تتكيف المسيحية الغربية لقبول هذين المبدأين إلا بعد مقاومة الكنيسة مقاومة شديدة،

ومازالت المعرفة الإنسانية والعلوم مستمرة في النمو والتقدم بدرجة متزايدة، ولذلك مازالت المسيحية تتعرض لضغوط شديدة ترغمها علىٰ عملية التكيف للظروف المتغيرة.

ويقرر مؤلفوا هذا الكتاب بان تطوراً هاماً آخر في العقيدة المسيحية ينبغي أن يحدث خلال هذا الجزء الأخير من القرن العشرين والحاجة إلىٰ هذا التطور تنبع من نمو المعرفة بأصول المسيحية وتشمل الاعتراف بان المسيح بشر وذلك كما وصف في العهد الجديد بانه [رجل قد تبرهن من قبل الله] أي أيده الله بمعجزات وآيات صنعها لتأييده، وهذا الوصف يدل علىٰ أن المسيح بشر أرسله الله وأيده ببراهين المعجزات ليؤدي دوره (رسولا من الله) في اطار الهدف الالهي من خلق الإنسان، ومعنىٰ هذا: أن تصور المسيح في فترة متأخرة من رسالة الها متجسدا (في شكل إنسان) هذا التصور ليس حقيقة وانما ينبغي أن يفهم علىٰ انه (أسطورة) أي مجرد طريقة رمزية للتعبير عن أهمية المسيح بالنسبة للمسيحيين ومن هنا يدعو المؤلفين إلىٰ التخلص من عقيدة التجسد والابقاء عليها كأسطورة فقط ويخالفهم في هذا واحد منهم (دون كيوبيت) فهو الوحيد الذي دعا إلىٰ التخلص من هذه العقيدة نهائيا ولا ريب أن خطر التجسيد هو الذي يؤدي إلىٰ فكرة الاتحاد والحلول.

ويرىٰ الباحثون أن هذه العقيدة «عقيدة التجسيد» ليست

ضرورية للمسيحية وانها ليست جوهرية ولا ضرورية فقد بنيت علىٰ فكرة خاطئة، وهي أن عيسىٰ ابن الله وأن الأب تجسده الابن ومن ثم فعقيدة التجسد خاطئة في عدة وجوه أهمها أنه ليس لها أصل صريح حتىٰ في الأناجيل التي ألفها البشر لأنها نشأت في مرحلة متأخرة من ظهور المسيحية ولذلك لا تجد لها ذكراً صريحاً مباشراً في الأناجيل الثلاثة الأولىٰ «متى ومرقص ولوقا» وحتىٰ انجيل يوحنا الذي يعد أقر الأناجيل إلىٰ الاشارة إلىٰ عقيدة التجسد لا يذكرها بالصورة التي عرفت بها في العصر التالية لظهور المسيح.

(٢) لم تنجح الكنيسة قط خلال تاريخها الطويل رغم محاولاتها المتكررة أن تقدم للناس صورة معقولة أو متناسقة أو مقنعة للمسيح علىٰ انه بشر كامل البشر واله كامل الالوهية في آن واحد، وفي معظم محاولاتها نراها تضحي بانسانية المسيح لتثبت الوهيته فتخرج في النهاية بصورة للمسيح لا تكاد تتعرف فيها عليه كانسان. كذلك فالكنيسة وعلماء اللاهوت عجزوا عن تقديم ما يحمل علىٰ الثقة في أن علم المسيح الإنسان يشارك علم الله في احاطته بكل شيء ذلك أن اتجاه الكنيسة لتصور المسيح بشرا والها في آن واحد هو اتجاه لا يستند إلىٰ أي حجة ومقولة ويؤدي إلىٰ نتائج لا يبررها أي دليل وينتهي إلىٰ التشكيك في عقيدة التجسد وانها تقول بكائن هو (الله الإنسان) معا وان مفهوم هذا الكائن لا يتصوره العقل فضلا عن أن يقبله وان

عقيدة التوحيد هي البديل الوحيد لكل عقائد الشرك والوثنية» ومعنىٰ هذا أن ما جاء في القرآن حق لا ريب فيه وأن البشرية تتحول حثيثا لتؤمن بعد هذه القرون التسعة عشر من الاضطراب في فهم العلاقة بين المسيحية وبين الأديان السماوية السابقة لها والإسلام اللاحق لها وبالنسبة لمفهوم التوحيد الخالص وحين نجد عقيدة التجسيد، مازالت مسيطرة منذ أكثر من ألف سنة لم تتزحزح إلا قليلا ندهش لأن الوثنية في الغرب سيطرت أكثر من ألف سنة أخرىٰ قبل ذلك.

وحين نراجع كتاباً أحدث دوّيا شديداً هو كتاب «المسيحية: نشأتها وتطورها» إلىٰ كاتبه الدكتور «جيبتر رئيس قسم الأديان بجامعة باريس» وترجمة الدكتور عبدالحليم محمود نجد أن هذا الباحث بعد دراسة بلغت نصف قرن من الزمن قد وصل إلىٰ نتائج اطمأن إليها، هذه النتائج يتفق عليها مع ما قرره القرآن الكريم. وقد بين المؤلف (١) أن مسيحية المسيح عليه السلام كانت غاية في البساطة وان السيد المسيح عليه السلام كان يعلن التوحيد ويؤكد انه عبدالله ورسوله، وانه بعث لخراف بني اسرائيل الضالة، وان رسالته كانت خاصة ببني اسرائيل وان دعوته هي إلىٰ الرحمة والمحبة والتعاطف في مواجهة المادية الغالية التي تطورت إليها اليهودية. وانه عليه السلام لم يدخل قط في تفاصيل العقائد ولم يتحدث عن الشريعة.

(٢) إن النصرانية الحاضرة بكل ما فيها من عقائد وطقوس

وشعائر فإنها غريبة وبعيدة كل البعد عن رسالة السيد المسيح عليه السلام وان النصرانية بدأت تنفصل عن حقيقتها منذ ان دخلها القديس بولس وان عقيدة (نبوة المسيح) انما كانت أثر الخطأ في ترجمة كلمة عبدالله التي يقولها السيد المسيح كثيراً.

كيف يترجمها بولس: (عبدالله: طفل أم خادم) واختار بولس كلمة (طفل الله) وكان لذلك تغيير هائل بالفكرة الدينية عن صورة الاله في الفلسفة عامة وفي الدين النصراني خاصة.

وقد ناقش المؤلف موضوع النصرانية كعالم من علماء التاريخ وليس كعالم من علماء الدين وتجرد من كل تأثير ودرس الموضوع حسب الواقع التاريخي.

(٣) فكرة النبوة: قال ان الصورة عن الالوهية انما هي الصورة التي تتسم اتساماً تاماً بالكمال، وهذه هي الصورة التي رسمها الفلاسفة المؤلفهون: أفلاطون وارسطو وغيرهما.

فالكمال لا يكون له أولاده لأنه كامل في ذاته ولا يحتاج لتحقيق كماله أي ولا لأن إرادة ـــ حتىٰ ولو لم يكن مولوداً بل كان مخلوقاً = نقص في الإله وهذه مسألة تتناول الأب.

المسألة الثانية التي تتناول الابن وهي انه علىٰ وضع بصورته يكون اما مولوداً أو مخلوقاً: فهو لا مناص قد سبقه عدم وانه وجد بعد عدم فلا يكون الها.

وقد سجل القرآن الكريم ان الله تبارك وتعالىٰ غني، غني غنىً

مطلقا ، وهذا الذي يسعى وراء الولد أو يتخذه أو يتبناه ، انما هو الفقير وهو المحتاج في العواطف وفي الأعمال وفي التصريف.

وقد صحح الإسلام صورة الاله التي كادت النصرانية أن تطمس حقيقتها والتي لاتزال تحاول طمسها.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ ص (مريم)

(٤) نفى المؤلف التثليث ونفى عن المسيح القول بالتثليث ان الثلاثة ليست واحداً كما يقولون ، وأي عقل يمكن أن يفهم أن الثلاثة واحد والواحد ثلاثة.

(٥) الطقوس: نفى المؤلف عن السيد المسيح عليه السلام الاعتقاد بان رسالته ستتطور ، هذا التطور الذي أصبحت له طقوس وشعائر وقساوسة ورهبان ، وإذا انتفت عقيدة النبوة وعقيدة التثليث عن المسيحية الحاضرة فقد انتهت تماما ، والغريب أن دينا كهذا يستمر ويبقى وينتشر ويجد من يقوم بالتبشير به ،

ولكن الألْفُ والعادة والتشيع بهذا الدين مع اللبن في ثدي الأم، ومع الأم ذاهبة بالطفل إلىٰ الكنيسة وعائدة به منها وقد أثبت شارل جنيتر انه بالكشف عن نصوص الأناجيل تظهر عدة ظواهر:

(١) التعارض للاحداث والأحاديث نفسها، وعدم وجود تسلسل في الحوادث.

(٢) اتباع كل لهواه وخطته الخاصة في تنسيق مؤلفه.

(٣) في السيرة الانجيلية يلاحظ نقص كبير وفجوات خطيرة.

(٤) انجيل مرقص تحاشى الحديث عن مولد المسيح وطفولته وأشار مرقص إلىٰ أن كلمة (ابن الله) تعبير لم يكن يمثل سوى خطأ لغوي فاحش، ولا يوجد أي نص من نصوص الأناجيل ما يسمح باطلاق تعبير (ابن الله) علىٰ عيسىٰ فتلك لغة لم تبدأ في استخدامها سوى النصارى الذين تأثروا بالثقافة اليونانية، انها اللغة التي استخدمها القديس بولس كما استخدمها مؤلف الانجيل الرابع.

ويقول شارل جنيتر: ان النصوص لا تقدم لنا الخبر اليقين فيما يتعلق بتفكير عيسىٰ الخاص بمبادئ رسالته وبصفات شخصيته وبمدى دوره الذي أداه، إلا اننا لابد أن نقر واقعا واضحا للعيان وهو انه لم ينجح في دعوته وان مواطنيه من أهل فلسطين لم يصدقوا بالرسالة التي نسبها إلىٰ نفسه ولم يسيروا علىٰ

نهج الأخلاق التي أراد أن يوحي بها إليهم ولم يكن الاثنى عشر ليوافقوا علىٰ نعت عيسىٰ (بابن الله) مكتفين بتعبير «خادم الله» أما عند بولس فلقب «ابن الله» كان لقبا كثير الاستعمال بالنسبة إلىٰ عيسىٰ.

(٦) الكنيسة: ويقول شارل جيبتر أن المسيح لم ينشئ الكنيسة ولم يردها، ولعل هذه القضية أكثر الأمور المحققة ثبوتا لدى أي باحث يدرس النصوص الانجيلية في غير ما نجد، بل اننا نؤكد أيضا أن الفرصة العكس لا يمكن أن يوجد له سند تاريخي مقبول، ونصرانية القرون الوسطىٰ كانت دينا يبغي العالمية ويتخذ الحرب وسيلة لها دينا متعصبا شديد التعصب لا يقبل بالنسبة للعالم الخارجي أيضا الحلول وكانت النصرانية ملتقى لكثير من العقائد التي لا يستسيغها المنطق، من الطقوس الدقيقة المتشعبة التي حملت قدراً وافراً من رموز السرية والفعالة ومع ذلك فالحقيقة الثانية التي لا جدال فيها هي أن الكنيسة لم تتمكن من الانتصار خلال القرن الرابع إلا بفضل إنهزام الإيمان الأول الذي يمكن أن نسميه إيمان الأحد عشر (الحواريين) وانهزمت النصرانية الأولىٰ في الصراع الروحي الذي خاضته وقبلت الكنيسة في الواقع هذا الانهزام واعتمدته مكتفية بان تتحول إلىٰ موضوع للتأمل الديني لدى المؤمنين.

(٧) الغربيون لم يكونوا مسيحيين قط.

ويقول المؤلف: نستطيع القول أن الغربيين لم يفهموا العقائد

المسيحية في العصور اللاحقة وان الديانة التي أقاموا علىٰ أساس منهار باجتهادهم الخاص كانت ديانة مختلفة تمام الاختلاف في روحها وجوهرها عن المسيحية الشرقية ديانة مختلفة نبعت قبل كل شئ من رصيدهم الفكري والروحي، متمشية مع عواطفهم ونزعاتهم وان صبت في قوالب تعبيرية لا توافقها تمام الموافقة وخلاصة القول: ان الغربيين لم يكونوا مسيحيين في يوم من الأيام وصدق من قال (ترومت المسيحية ولم يتمسح الروم).

وفي أكثر من مؤتمر من مؤتمرات مقارنات الأديان تكشفت من الحقائق ما يؤكد هذا الانحراف الواضح في الفكر الغربي من ناحية العقيدة، ولقد حاولت هذه المؤتمرات «وأهمها مؤتمر سالزبورج النمسا» «اكتوبر ١٩٨٤م» الذي حضره ٣٥ استاذاً جامعياً من جميع أنحاء العالم تحت عنوان «الأسس المشتركة بين الأديان الثلاثة».

ويقول الدكتور أحمد ظاهر جين انه لم يكن من السهل العثور علىٰ فكرة واحدة تصلح مدخلاً لمناقشة الأسس المشتركة بين الأديان الثلاثة، فاليهودية تقوم علىٰ شريعة ممثلة في قانون علىٰ خلاف ما نرى في المسيحية التي تتمثل في المسيح وكذا الإسلام نجد الكتاب ممثلا في القرآن الكريم، وقال الأستاذ كريم ان قوله اليهود انهم شعب الله المختار فهي ليست موجودة في التوراة وربما كان أحد الباحثين اليهود هو السبب في ترويجها».

وقد وضح أن المسيحية أو اليهودية ليست علىٰ استعداد

للتنازل عن أي الأسس التي قامت عليها وخاصة بعد أن كشفت أبحاث علماء اللاهوت في الديانتين ذلك ويبقىٰ الإسلام هو المتميز بقدرته علىٰ الانصاف والاعتراف باليهودية والمسيحية المنزلتين بينما لا تعرف اليهودية بالمسيحية ولا تعترف المسيحية بالإسلام كما وضح أن فكرة اتحاد الأديان أو الحوار معها إنما ترمي أساساً إلىٰ هدف سياسي ماكر خبيث يراد به خدمة الصهيونية من ناحية والقضاء علىٰ زحف الإسلام الواسع المستمر في مختلف أقطار الأرض وفي مقدمتها أوربا وأمريكا .

«لقاء العلم البشري مع القرآن»

كان من المعطيات الناضجة، تلك الكشوف العلمية التي اعترفت بالاعجاز القرآني في مجالي الطب والعلوم، وهو الباب الذي فتحه الدكتور موريس بوكاي وقد أحدث اسلام عبدالله ارستون «رئيس قسم الهندسة الالكترونية في جامعة لندن» في مؤتمر السنة والسيرة في القاهرة عام ١٩٨٥ م دوياً شديداً في عالم الغرب .

يقول أن الحقائق العلمية التي جاءت في القرآن والسنة من قبل ألف وأربعمائة عام والتي اثبتها العلم الحديث تؤكد أن ذلك لم يكن من عند بشر وان محمداً هو رسول الله ﷺ، ان العالم الغربي اليوم في مأزق، وما تقولونه أو ترونه لا يفسر الحقيقة تماما وانهم يبحثون عن العودة إلىٰ الدين والبيان الصحيح الشامل وهنا

يقع العبءُ علىٰ المسلمين، هذا هو واجبهم أن يتقدموا إلىٰ البشرية الحائرة التائهة، وعندئذ ستجد البشرية نفسها في لقاء مع الدين والعلم والدنيا والآخرة والمادة والروح في تكامل يسعد في ظله الإنسان.

إن الإسلام كما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يتضمن حقائق علمية لا تتعارض مع علوم اليوم واعتقد أن العالم العربي كله لا يفهم الإسلام هذا الفهم وان عدداً كبيراً من زملائي العلماء الغربيين لو فهموا الإسلام لدخلوا فيه جميعا فلا ننسىٰ أن معظم الأديان التي يدين بها الغرب جاءت من الشرق ان لقاء العلم البشري مع ما جاء في القرآن الكريم هو ظاهرة العصر فأصبح الكثير منها مشاهدا لنا وقد جمعنا نحن في عصرنا في الآيات الكونية بين السماع من النص القرآني والمشاهد من الواقع الكوني فكانت النتيجة أن تبين لنا وازداد المؤمنون إيمانا وبيانا بان القرآن هو الحق.

إن هذا الحشد الهائل من الحقائق القرآنية والنبوية التي تتكلم عن المخلوقات والتي جاء العلم فأيدها جعلتني أدرك أن هذا لا يمكن أن يكون من عند بشر وما جاء محمد ﷺ من قبل ألف واربعمائة سنة يؤكد انه رسول الله ولذلك أعلنت شهادتي وآمنت وأسلمت،

إن هذه الحقائق العلمية هي أمثل طريقة للدعوة الإسلامية في الغرب،

إن الطريقة الغربية لتعاطي العلوم تعتقد أن الإنسان هو كيلو جرامات محدودة من الانسجة اضافة إلىٰ عقل اليكتروني صغير وان الكون عبارة عن مرئيات ومحسوسات ،

وهذه الصورة بدأت في التصدع ذلك أن الإنسان كلما اكتشف شيئا يعلم انه يجهل أكثر وأكثر ، وان القوانين الفيزيائية التي كان يعرفها تتقلص وتذوب وتنتهي وتتصدع بصورة أكبر من المستوى الأكبر.

●●●

كذلك فقد كشفت أبحاث العلماء: أن القرآن قد وصف المراحل التطورية لخلق الإنسان علىٰ نحو لم يعرفه العلم من قبل [نطفة ، علقة ، مضغة مخلقة وغير مخلقة] يقول دكترو محمد علي البار: كشف التحليل الحديث لبعض آيات القرآن وصفا للمراحل التطرية للإنسان بدءا بالمراحل المبكرة ومروراً بتكوين الأعضاء ولم يتواجد قبل نزول القرآن مثل هذا التسجيل الواضح والكامل لتطور الإنسان ومرت قرون عديدة قبل أن يسجل العلم هذه المراحل.

ومن اشارات الإعجاز ما جاء في سورة الحج

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ الآية

وقد أخبر الله تبارك وتعالىٰ ان هذه الحقائق ستكشف بعد حين

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾

وهكذا كما قال ابن حجر تستمر معجزة القرآن إلىٰ يوم القيامة فلا يمر عصر من العصور إلا ويظهر فيه شيٌ مما أخبر به يدل علىٰ صحة وجوده.

ويقول الدكتور عبدالله نالينر «خبير علم الاجتماع»

إن معظم الأوروبيين الذين دخلوا الإسلام ينظرون إليه من خلال الصوفية والإيمان،

وبإن المعرفة المباشرة بالله وبالحقيقة الروحية يمكن أن تتم عن طريق النور الباطني وليس عن طريق التفكير المنطقي. ولكن بالإسلام لأنه وجد فيه ترشيداً عقليا للإنسان ومنهجاً عمليا بواقع الحياة، ان الإسلام ممارسة وسلوك وطريقة متكاملة لفهم وضع الحياة، تلك هي قيمة الإسلام في نظري:

انه إذا كان الغرب قد أصبح متقدما من الناحية العلمية فإن المجتمع الإسلامي مازال يستطيع أن يقوم بدور المعلم للمجتمع المسيحي وان تعليمه الكثير وهذا هو سر انتشار الإسلام في أوربا الآن نظراً لما يتميز به الإسلام من ديناميكية دائمة في مواجهة انماط الحياة.

أما الذين ينتقدون الإسلام فإن نظريتهم غير شاملة وانهم

يخطئون المعنىٰ الحقيقي لجوهر الإسلام، انه لا يجد في عبارة (ان المسيح ابن الله) أي معنىٰ فالإله ليس بشر.

والرجل الأوربي لا يباشر أي عبادة دينية بصورة منتظمة وليس للدين في أوربا تأثير قوي في حياة الناس ولذا فهم يعتقدون أن الآخرين يعيشون مثلهم.

إن إيماني بالإسلام ساعدني علىٰ فهم أبعاد الحياة التي كانت ستصبح مستغلقة علىٰ مدىٰ إدراكي أن لم أكن مسلما.

«خاتمة تساقط أوراق الخريف»

لقد آن الآوان للمواجهة مع الفكر الغربي: مواجهة يقوم بها الإسلام إزاء قضية من أخطر القضايا وهي قضية التبعية والولاء، وقد كان الإسلام منذ اليوم الأول للزحف العربي المتمثل في النفوذ الأجنبي وفي طرح مفاهيم الغرب وعرضها علىٰ أفق الفكر الإسلامي محاولة لاحتواء الفكر الإسلامي واخراجه من ذاتيته الخاصة ومن مفاهيمه الجامعة.

وقد كانت القضية الجامعة ذات شقين:

هي في جملتها حرب الإسلام في مفهوم التوحيد الخالص، وتلك كانت قضية التيارات الثلاث الوافدة.

١ ــ الفكر المسيحي والغربي.

٢ ــ الفكر الماركسي.

٣ ــ الفكر اليهودي وكانت تحاول تشكيك المسلمين في قيمهم، وإخراجهم أي تمسيحهم بحملهم علىٰ مفهوم اللاهوت القائم علىٰ الانفصال بين الدين والدنيا وحجب مفهوم الإسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع، هذا من ناحية ومن ناحية أخرىٰ حجب مفهوم الإسلام الصحيح عن أهل الغرب المتطلعين في سوقه إلىٰ مخرج من أزمة الحضارة الغربية وكان أن استطاعت حركة اليقظة أن تفرض مفهوم الاصالة والعودة إلىٰ المنابع، وان تحرر مفهوم الإسلام وترده إلىٰ حقيقته، وان تواجه الفكر الغربي نفسه وتتعقبه في مختلف مفاهيمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية وكشف اخطاءه ونواقصه وعجزه عن العطاء.

وكانت هذه المحاولة ذات أثر واضح كبير فقد فتحت الباب أمام علماء الغرب المستنيرين لينظروا في الإسلام نظرة جديدة فنبتت تلك الظاهرة القوية التي تمثلت في كشف علماء الغرب أنفسهم عن انحراف الحضارة والعقيدة الغربيين علىٰ النحو الذي يتعارض مع المفهوم الإسلامي الأصيل لهما.

لقد خرجت أوربا عن مفهوم الدين الحق المنزل وانحرفت به، ثم أقامت حضارة علىٰ غير قيم الأخلاق أو البعد الإلهي فكان لابد أيضا أن تتعوض وتنهار وكان لابد أن تكشف الأحداث المتوالية علىٰ فساد الوجهة الغربية حملها عقيدة وحضارة، وكان نتيجة تصدع نظريات النصرانية بدت ظاهرة عودة الغربيين إلىٰ الإسلام ولا ريب أن الفكر البشري كان لابد أن ينتهي إلىٰ ما

كشفت عنه الأبحاث فالنظرية البشرية أثبتت عدم القدرة علىٰ استيعاب العصور والبيئات وقصورها فقد عجزت نظريات الفكر البشري عن العطاء وسرعان ما أصابها العطب نتيجة قيامها علىٰ طابع الهوى والمطامع البشرية الخاصة.

أما في مجالي العقيدة فقد قامت الفكرة علىٰ تحريف النص الالهي مما أدىٰ إلىٰ خروج الدين نفسه عن العقد الالهي المنظم للأديان ليكون دينا قوميا خاصا،

ولقد كان من أخطر انحرافات الفلسفة الغربية المعاصرة التمرد علىٰ الاله، وهدم صروح الإيمان في النفوس، واعلان استغناء الإنسان المعاصر علىٰ عطاء الأديان،

وتساقطت نظريات الغرب، مالتوس، فرويد، دارون، ماركس، دوركايم انهم يتحدثون عن عطاء الفكر الغربي «الذي يسمونه اثراء الفكر فما هو هذا العطاء، أي مجال من المجالات نجد الفكر الإسلامي في حاجة إلىٰ «ركام الفكر الغربي» هل في القصة الإباحية، أم في الفلسفات المادية، أم في مذاهب العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق التي لا تؤمن بالله ولا تقر مفهوم الثوابت الأخلاقية».

إن الفكر الغربي يتمثل في عناصر مختلفة:

أولاً: العلوم التجريبية، وقد تكشفت نظرية استعلاء العلم وكيف تحطمت.

ثانيـــاً: علوم انسانية واجتماعية ونفسية، وقد ظهر انها تستمد من أهواء النفس الملحدة الإباحية وجودها ووجهتها.
ثالثـــاً: الفلسفات المادية وقد تكشفت أخطأها.
رابعـــاً: النظريات الاقتصادية والسياسية وقد عرف انحرافها وعجزها.

لقد رفض المسلمون رأي ارسطو في الله (تبارك وتعالىٰ) ونظريته في الثبات، كما رفض المسلمون نظرية هيجل في الجدلية والصراع ورفضوا مفهوم التطور المطلق لانهم يؤمنون بمفهوم جامع عن الثوابت والمتغيرات، وقد عجزت الديمقراطية والقومية والشيوعية والاشتراكية أن تقدم للمسلمين منهجا صالحا، لقد تبين للمسلمين اليوم أبعاد خطة المؤامرة عليهم، خطة الصهيونية في تدمير النفس الإنسانية والأخلاق وخطة الغرب في فرض مفهوم الفصل بين الدين والدولة، وخطة الماركسية في فرض مفهوم التفسير المادي القائم علىٰ الصراع الطبقي لقد اكتشف المسلمون مدى الكراهية العميقة التي يكنها الغرب للإسلام ومن منطلق هذا الحقد الأسود يعمد في مؤامرة واسعة إلىٰ احتواء المسلمين والسيطرة عليهم، سيطرة اقتصادية وفكرية ومحاولة احتواء وتغيير أعراف المسلمين.

حيث (العلمانية) في الغرب و (الماركسية) في الشرق يكملان بعضهما بعضا في منهج واحد هو التفسير المادي للتاريخ.

إن الغرب لا يريد أن يعود الإسلام إلىٰ مصادره ومنابعه بعد

ان أجرى فيه هذا التحول الخطير مدى قرن ونصف قرن من الزمان لأنهم يرون انهم بهذا التحول قد روضوا الإسلام وجعلوه محتوى من فكرهم ومفاهيمهم وقد تجرد من اجنحته التي يطير بها وأصبح مقيدا ولكن ما الرأي الآن وقد تحطمت هذه المؤامرة تماما وتكشف الموقف عن عدوة حقيقة للمسلمين إلىٰ فهم دينهم الحق الجامع الذي يختلف عن مفهوم الإسلام الذي يجرده اليوم علىٰ السنة اتباعهم وأوليائهم ، انها النكبة الكبرى التي منى بها الغرب حين أخذ الإسلام يحطم تلك القواعد التي بنوها سنوات ، وقد بدأو يرون تساقط أوراق الخريف ، ليس بالنسبة للوجود الإسلامي في بلاده بل في زحف الإسلام إلىٰ الغرب نفسه وفي اسقاط علماء الغرب مفاهيم اللاهوت المنحرفة ويكشفون عن خطأ الحضارة في تجاهلها للبعد الالهي والبعد الأخلاقي .

انه تحول خطير بعيد المدى ، لم تظهر بعد اثاره العميقة ويكفي أن نسجل هنا مظاهرة في مطالع القرن الخامس عشر الهجري الذي لن ينتهي حين يكون الإسلام قد تقدم إلىٰ مواقع الصدارة والحكم في العالم كله ، ان الغرب يهتز غضبا كلما رأى الأصولية الإسلامية تنمو تزدهر ، ويجري وراء مؤامرات جديدة ومحاولات في صفة لاطفاء هذا النور الذي يستمد وجوده من نور الله ،

نعم لقد قدم الإسلام للبشرية المنهج الرباني المتفق علىٰ الفطرة والقائم علىٰ حقيقة المعادلة التي أقامها الحق تبارك وتعالىٰ بين

الكون والإنسان وهي معادلة «اسلام الوجه لله وقبول الاستجابة لله تبارك وتعالىٰ لاقامة منهج الله في الأرض واقامة الحضارة علىٰ السلام والأمن والأمان»، ولكن الغرب بكل قواه «الدينية والعلمية» رفضوا قانون الله وسننه الماضية إلىٰ يوم القيامة،

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

هذه السنة القاضية بان

الأمة التي تخرج عن أمر الله لابد أن تدمر وتسقط ولقد سقطت الحضارات اليونانية والرومانية والفارسية والفرعونية من قبل بهذا القانون وها هي الحضارة الغربية في موضع النذير الأخير، حيث تدخل حثيثا مرحلة المحاق، وهذه بواكير ونذر هذه المرحلة: انكشفت خدعة تزييف الكتب القديمة التي اشار إليها القرآن منذ خمسة عشر قرنا، وانكشف فساد الحضارة والمجتمعات الغربية التي قامت علىٰ أساس الهوى والمادية والإباحية والتي تنكرت لمنهج الله وتجاوزت البعد الالهي والبعد الأخلاقي وقد بدت علامات سقوطها من خلال كتابات أهل الغرب أنفسهم.

إن هذه الدراسات الحديثة التي قدمها علماء غربيون بعد ان فهموا الإسلام (علىٰ انه نظام مجتمع ومنهج حياة) كما جدده رجال اليقظة الإسلامية، هذه الدراسات التي كشفت عنها وقدمناها قد أحدثت اختراقا خطيرا لجدران الحضارة الغربية والفكر الغربي وزلزلتها كأشد القنابل دوياً عنيفاً حيث نسف بوكاي، وجارودي واليسون وغيرهم الكتب القديمة، والعلوم

الاجتماعية والقانون الوضعي.

لقد رفض الغرب نظام الله تبارك وتعالىٰ القائم علىٰ شريعته واستبدلوا به القانون البشري الوضعي الذي أوردهم موارد الهلاك وقد حاولوا أن يجروا المسلمين إلىٰ انحرافهم ولكن الأمور قد تغيرت الآن، فقد اكتشف المسلمون فساد منهج الغرب، كما انهم كشفوا عظمة منهج الإسلام، وصدق الواقع ما جاء في القرآن الكريم عن عظمة عطاء القرآن في الاعجاز العلمي وصدق الواقع ما جاء في القرآن الكريم من تحريف النصارى واليهود للكتب المنزلة.

(قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا)

والموقف الآن في العقد الأول من القرن الرابع عشر الهجري كما يلي:

أولاً: الإسلام يقتحم كل قارات العالم اقتحاما سليما.

ثانياً: إن الغرب نفسه أصبح يعتقد انه لا طريق إلا طريق الإسلام.

ثالثاً: تأكد موقع العالم الإسلامي (القارة الوسطىٰ) في امتلاك الثروة والطاقة والتفوق البشري حثيثا يطلب منه أن يكون دائما علىٰ تعبئة قادرة علىٰ الردع للاعداء.

رابعاً: إن الإسلام يستعد الآن للعودة إلىٰ تطبيق الشرائع الإسلامية.

خامساً: إن المسلمين سيقتحمون الحضارة الإسلامية مرة أخرىٰ من خلال مفاهيمهم الأصيلة وسيكون ما يأخذونه من الغرب بمثابة (مواد خام) يشكلونها في اطار مفهوم (التوحيد الخالص).

هذا وبالله التوفيق،

أنور الجندي

غرة القعدة سنة ١٤٠٦

المحتويات

الباب الثاني
بين الأديان السماوية والفلسفات

الباب الخامس
ماذا يرى مفكرو الغرب في حضارتهم

صدر من هذه السلسلة

١ ــ رجال ومناهج　　تأليف محمد زكي الدين قاسم
٢ ــ نحو كلمة سواء　　الشيخ عبدالله نجيب سالم
٣ ــ الطريق من هنا　　الشيخ محمد الغزالي